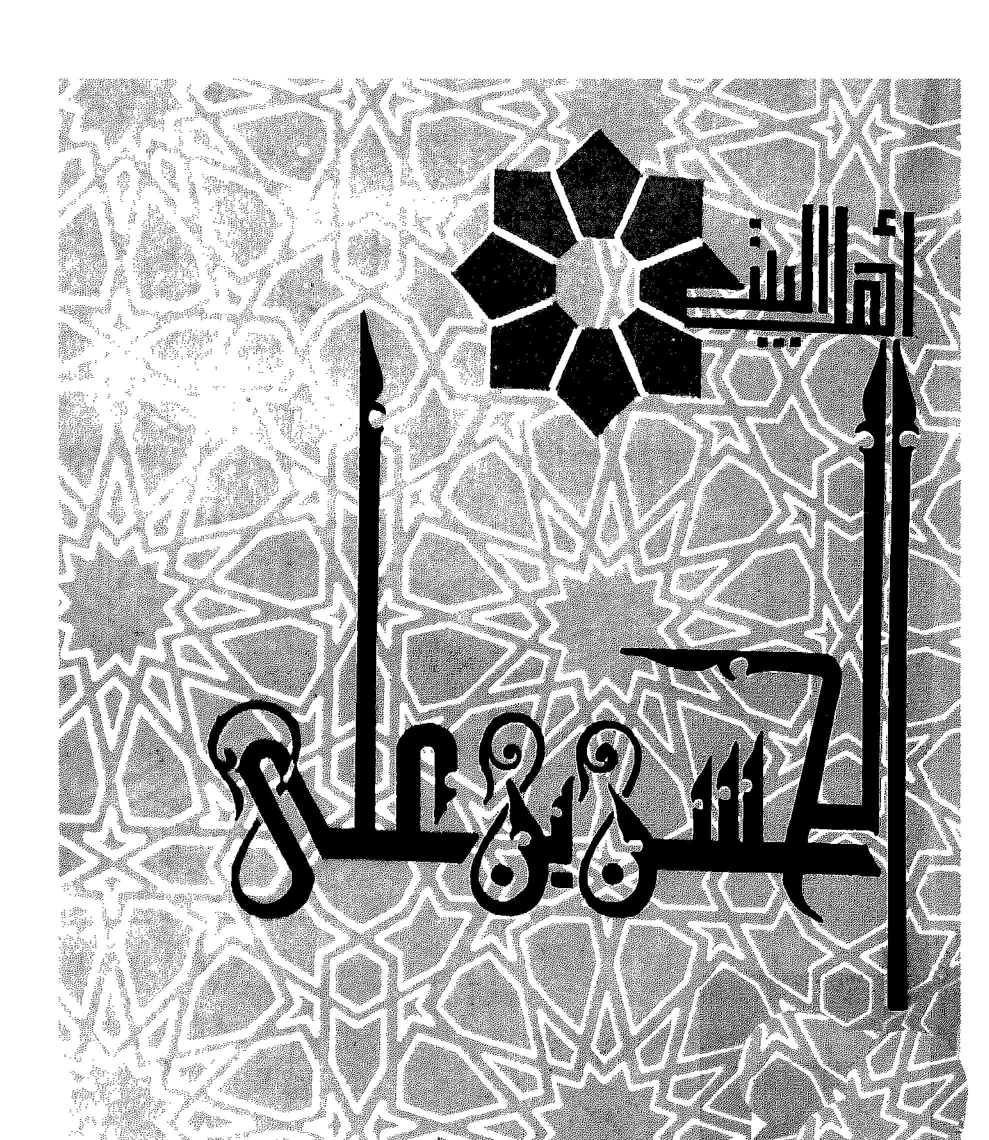


توفيق أبو علم

أهل البيت

الحسن بن علي

أهل البيت

الحسن بن علي

للأستاذ

توفيق أبو علم

الطبعة الثالثة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع

بسم الله الرحمن الرحيم

[إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً]

« سورة الأحزاب »

من آية ٣٣

[قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا المَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى]

« سورة الشورى »

من آية ٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام فى أكمل صورها على سيدنا ومولانا النبي العربى الأمى محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى ختم الله به المرسلين ، وجعله رحمة للعالمين ، وهدى به إلى الحق وإلى صراط مستقيم – صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور .

ورضى الله أحسن الرضا عن آله الأطهار الأخيار ، وعن صحبه الكرام الأبرار ، وعمن والاهم بإحسان إلى يوم الدين – أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون .

وبعد فعندما بدأت الكتابة عن أهل البيت كانت مهمتى سهلة وصعبة وتأتى السهولة عن بعض الشخصيات الكريمة من أهل البيت لكثرة مصادرها ، وصعبة فى الكتابة عن بعضها الآخر لقلة ما كتب عنه وفى مقدمتهم سيدى أمير المؤمنين أبى محمد الحسن السبط رضى الله عنه ، وقد كنت أنهيب دراسة هذه الشخصية فالذين كتبوا عنه وهم قليل حاولوا أن يشوهوا وجه الحق ويفسدوا حرية البحث ، واستعنت بالله وبدأت أبحث وأنقب ووجدت الطريق أمامى ليس ممهداً ، فالمكتبة العربية ينقصها المراجع عن الإمام

الحسن ، وعلى العكس هى زاخرة بالمؤلفات عن الشهيد الإمام الحسين رضى الله عنه ، ولست أدرى السبب الذى من أجله أحجم الكثير عن الكتابة عن هذه الشخصية الفذة ، ففيها نواح كثيرة جديرة بالبحث والدراسة ؛ فهو بلا شك رجل السلام الأول فقد خاف الله فى دماء المسلمين فلم يرد أن يلى أمر أمة محمد وتراق فى سبيل ذلك محجمة دم ، كما قال حين تنازل عن الخلافة لمعاوية على الرّغم من معارضة أهله وأنصاره ، ومرة أخرى تجده ينشد السلام حينما يدرأ الحدود بالشبهات حين شكا إلى الإمام الحسين السم الذى شربه غدراً ومات به ، فسأله الإمام الحسين عمن سقاه فقال الإمام الحسن : لتقتله ، فقال نعم ، فقال ما أنا بمخبرك ، إن يكن صاحبى الذى أظن فالله أشد نقمة ، وإلا فما أحب أن يقتل لى برىء .

وقد يظن بعض الناس أنه خالف أباه فجنح للسلم مع أن الإمام عليًّا كان أيضاً رجل سلام ، وإذا كانت الظروف قد اضطرته إلى الحرب فقد كان مجتهداً ، وكذلك كان الإمام الحسن فى سلمه مجتهداً .

وقد استمر حريصاً على السلام حتى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فأوصى أخاه الإمام الحسين أن يدفنه إلى جانب جده المصطفى صلى الله عليه وسلم فإن أبوا فلا يقاتلهم بل يدفنه إلى جانب أمه السيدة الزهراء .

وقد لقبه الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيد وقال عليه الصلاة والسلام : (إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين) .

وعند تتبعى لتاريخ الإمام الحسن وجدت أن العناية الربانية قد هيأته

لأن يكون إماماً كاملا ، فوعى فى طفولته الباكرة أحاديث عن جده صلى الله عليه وسلم أخذها عنه الرواة ، ثم لازم والده الإمام عليًّا وغرف من بحره الزاخر حتى أصبح معلماً للناس وللناشئة من أهل البيت ، فكان الإمام بحق هم والأئمة من بعده .

وهو العابد الذى حج بيت الله عشرين مرة ماشياً على قدميه وإبله تقاد من بين يديه ويقول تواضعاً لله إنى أستحى أن أذهب إلى بيت الله الحرام راكباً .

أما عن تعدد الزوجات وقد صال فيها وجال بعض الجهال ، وقد نسوا أن زمن الإمام غير زماننا ومعاييره غير معاييرنا ، فقد كان تعدد الزوجات فى أيام الإمام الحسن مستحسناً لربط العصبيات والإكثار من الذرارى المقاتلين ، ولئن كان التعدد مستحبًّا لغير أهل البيت فقد كان لهم مستحبًّا ، لأن سلالة النبى صلى الله عليه وسلم أمان ورحمة لأهل الأرض ، وزواجه الكثير دليل عظمته الروحية فى الناس .

وقد كان الإمام حلو الحديث عف اللسان — لا تصدر عنه الكلمات النابية ، وكان يأخذ الأمور بالروية فلا يذهب عنه الرشد بغضب أو تسرع ، كل ذلك فى هيبة ووقار يحسب حسابها صاحب السلطان فى عرشه ، حتى لقد قال معاوية : (والله ما رأيته جالساً عندى إلا خفت مقامه) .

وكان الإمام مواسياً المنكوب فى ساعة العسرة وإن تباعد عنه أحباؤه فقد خرج مع أبيه وأخيه يودع الصحابى الجليل أبا ذر — رضى الله عنه — وهو خارج إلى الربذة مما أثر فى نفسه ، فخاطبهم قائلا : (رحمكم الله أهل

بيت النبوة ما لى بالمدينة سكن ولا شجن غيركم – إذا رأيتكم ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

أيها السبط الكريم :

إن ما وقع لكم من الدنيا وأهلها يحير الألباب ، لكنا أخذنا عنكم الرضا بالمقدور وإن كان مرًّا ، فذلك من علامات اليقين بالله ، وأخذنا عنكم أن أفعال الله سبحانه وتعالى كلها حسنة وإن خالفت هواناً لأن حكمة الله دقت فخفيت عن العقول هذا فى باطن الأمر ، أما فى ظاهره فقد علل ابن أخيك الإمام على زين العابدين ما وقع لكم خير تعليل حين قال :

عتبت على الدنيا فقلت إلى متى أكابد همًّا بؤسه ليس ينجلى

أكل شريف من على نجاره حرام عليه العيش غير محلل

فقالت نعم يابن الحسين رميتكم بسهمى عناد منذ طلقنى على

فأشار إلى ما كان قاله أبوك أمير المؤمنين على كرم الله وجهه وهو يخاطب الدنيا : (إليك عنى يا دنيا – ألىّ تعرضت – أم إلىّ تشوقت – هيهات غرى غيرى لقد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها) .

وقد نظرت إلى الإمام الحسن – على قصر عهده فى خلافته – فوجدته رجل إدارة وسياسة ، فقد بلغ الدقة فى تصريف الأمور فإذا بالصلح الذى حاكه على معاوية أداته الجبارة للقضاء على خصومه فى التاريخ دون أن يكون ثمة أية مساومة على بيعة أو خلافة أو على مال ، وإذا كل خطوات الإمام الحسن وكل إيجاب أو سلب فى سياسته مخفقاً أو منتصراً آية من

آيات عظمته التي جهلها الناس وظلمها المؤرخون .

ولقد عنيت أشد العناية بموضوع صلح الإمام الحسن مع معاوية لأنه فى اعتقادى موضوع هام يستحق البحث والعناية ، ويخطئ من يظن أن الإمام الحسن هو الذى طلب الصلح ، بل الحقيقة أن معاوية هو الذى بدأ المحاولة ، وقد أبرز هذه الحقيقة الإمام الحسن فى خطابه الذى ألقاه فى المدائن فقال : « ألا وإن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة . . . » وزيادة على أن معاوية هو الذى فكر ودبر وطلب الصلح فإن وسائله التى بها فكر كانت من النوع المحبوك الصنع ، فباع القائد فى جبهة العراق ضميره لمعاوية بالمال ، وباع معه أكثر الرؤساء ضمائرهم ، وأصبحت معسكرات الإمام الحسن تعج بالشائعات التى راحت تمطر أنصاره بوابل من الويل والثبور والمخاوف ، وكما يقال : (إذا أصبح الحسن نفسه لا يتسنى له تنفيذ أوامره فى جيشه بما فعلته الأراجيف من حوله بل لا يستطيع الظهور بشخصه أمام الكثرة من جنوده إلا ليغتال) فهل من سبيل إلا الصلح ؟

على أن نصوص معاهدة الصلح التى أبرمت بينهما تدل دلالة قاطعة على بعد نظر الإمام الحسن وحنكته السياسية ، ومنذ القدم تقاس الشخصيات التاريخية البارزة من مواقفهم من شروطهم التى يأخذونها على أنفسهم باختيارهم .

وكون معاوية لم يف بوعده بل عبس وتولى وندم على ما أعطى فهذا هو معدنه وهذه هى طريقته .

أراد الإمام الحسن بالصلح أن يخلى لمعاوية الميدان ويسلم له الأمر ويرفع

الخصومة حتى يظهر ما يبطن ويعلن ، ويرفع عن وجهه ذلك الغشاء الصفيق ويعرف الناس حقيقة أمره وكامن سره وهكذا فعل .

وفور إبرام الصلح صعد المنبر فى جمع غفير من المسلمين وقال : « إنى ماقاتلتكم لتصدموا ولا لتضلوا وإنما قاتلتكم لأتآمر عليكم وقد أعطيت الحسن شروطاً كلها تحت قدمى » .

وهذا القول يدل على نية معاوية فى خرق شروط الصلح كما سترى ذلك تفصيلا ، كذلك لولا الصلح ما قتل حجر بن عدى وغيره من خيار الصحابة والتابعين ، كذلك قيل إنه لولا الصلح ما قتل معاوية الصحابى عمرو بن الحمق وحمل رأسه إلى الشام وهو أول رأس حمل فى الإسلام ، ولولا الصلح لما سقى معاوية الحسن السم على يد جعدة بنت الأشعث ، ولولا الصلح لما أجبر معاوية البقية الصالحة من أولاد المهاجرين والأنصار على أخذ البيعة ليزيد ، ولننظر إلى ما صنعه الحسن بمعاوية فى صلحه وكيف أن هذا الصلح هد جميع مساعيه حتى ظهر الحق وزهق الباطل وخسر هنالك المبطلون . فكان الصلح فى تلك الظروف هو الواجب والمتعين على الحسن ، كما أن الثورة على يزيد فى تلك الظروف كانت الواجب على أخيه الحسين ، كل ذلك للتفاوت بين الزمانين والاختلاف بين الرجلين .

وقد كان صلح الحسن الذى فضح معاوية وشهادة الحسين التى قضت على يزيد هما السبب فى انقضاء الدولة الأموية .

لقد وقف السبطان بما لهما من قوة وسلطان سداً منيعاً دون ذلك البنيان

وما تم لهما ما أرادا من حفظ شريعة جدهما إلا بالتضحية العظمى بأنفسهم وأموالهم ورجالهم وأطفالهم ، وبكل ما فى دنيا النعمة والنعيم بذلوا كل ذلك فى سبيل الله ولحفظ دين الله .

ولولا نصيحة الإمام الحسن الذى تجرع السم من معاوية والإمام الحسين الذى ضرب المثل الأعلى فى التضحية ، فاستقبل السيوف والرماح والسهام والذى جعل صدره ورأسه وقاية عن المعاول ، لولا هذه التضحيات لأصبح دين الإسلام أسطورة من الأساطير .

وأخيراً نحمد الله ونشكر فضله أن جعلنا من المحبين لأهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنهم شجرة النبوة ومهبط الرسالة ومنبع الرحمة ومعدن العلم وينابيع الحكمة ، فيهم كرائم القرآن وهم كنوز الرحمن إن نطقوا صدقاً وإن صمتوا لم يسبقوا ، ناصرهم ومحبهم يرجو رضوان الله تعالى ويستمطر رحمته ونفحاته ، وعدوهم ومبغضهم يستقبل نقمة الله تعالى ، بهم اهتدينا إلى الصراط المستقيم وعن طريقهم عرفنا الدين الحق القويم ، بهم خرجنا من الظلمات إلى النور وفى صحبتهم نتمتع إن شاء الله تعالى بقصور الجنة ونعيمها ، هم أساس الدين وعماد اليقين ، فعن عبد الله بن الحسن المثنى عن أبيه الحسن السبط رضى الله تعالى عنهم جميعاً قال : خطب جدى المصطفى صلى الله عليه وسلم يوماً – فقال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه (معاشر الناس إنى أدعى فأجيب ، وإنى تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتى أهل بيتى إن تمسكتم بهما لن تضلوا ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض فتعلموا منهم ولا

تعلموهم فإنهم أعلم منكم ، ولا تخلو الأرض ولو خلت لانشاخت بأهلها .

ثم قال - اللهم إنك لاتخلى الأرض من حجة على خلقك لئلا تبطل حجتك ولا تضل أولياءك بعد إذ هديتهم أولئك الأقلون عدداً والأعظمون قدراً عند الله عز وجل ، ولقد دعوت الله تبارك وتعالى أن يجعل العلم والحكمة فى عقبي وعقب عقبي وفى زرعى وزرع زرعى إلى يوم القيامة فاستجيب لى)

والحمد لله رب العالمين

توفيق أبو علم

الإمام الحسن

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
« أما الحسن فإن له هيبتى وسؤددى ،
أما الحسين فإن له جرأتى وجودى »

(حديث شريف)

من بيت أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، استقبل الرسول صلى الله عليه وسلم حفيده وسبطه[1] الأكبر سيد شباب أهل الجنة فى ليلة النصف من شهر رمضان[2] المبارك الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وكان ذلك فى السنة الثالثة من الهجرة . وبهذا يكون أول مولود ذكر فى أشرف بيت عربى عريق فى النسب والعزة .

ولما أذيع نبأ ولادة الصديقة بالمولود الجديد غمرت موجات من السرور والفرح قلب النبي صلى الله عليه وسلم ، فسارع إلى بيت ابنته منزل الإمام علىّ ونادى :

– يا أسماء ، هاتينى ابنى .

فأسرعت أسماء ودفعته إليه فى خرقة صفراء .

(١) السبط فى اللغة : ولد الولد ، والأسباط فى بنى إسرائيل تقابل القبائل عند العرب .

(٢) قال الأستاذ محمد فريد وجدى فى دائرة المعارف : إن ولادة الحسن كانت قبل الهجرة بست سنوات ، وهذا يخالف إجماع المؤرخين ، لأنه فى هذا الوقت لم يكن الإمام على متزوجاً من الزهراء .

فقال : « ألم أعهد إليكم ألا تلفوا المولود فى خرقة صفراء » .

وأذّن صلى الله عليه وسلم فى أذنه اليمنى وأقام فى اليسرى ، وكان أول صوت سمعه المولود الجديد هو صوت جده الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكانت أنشودة هذا الصوت « الله أكبر لا إله إلا الله » .

وبهذه الكلمات المنطوية على الإيمان بكل ما له من معنى يستقبل بها الرسول صلى الله عليه وسلم سبطه فيغرسها فى أعماق نفسه ويغذى بها مشاعره وعواطفه لتكون أنشودته فى بحر الحياة .

والتفت الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإمام علىّ أمير المؤمنين الذى تاه فرحاً إذ صار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذرية منه يفخر بنسبتها إليه على كافة الناس ، وقال له : « هل سميت الوليد المبارك ؟ » .

فأجابه الإمام : ما كنت لأسبقك يا رسول الله .

وما هى إلا لحظات وإذا بالوحى يناجى الرسول ويحمل له التسمية من الحق تعالى ، يقول له جبريل : « سمه حسنا » .

ولم يعرف هذا الاسم فى الجاهلية .

وجاء فى الاستيعاب : أنه لما ولد الحسن عليه السلام جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أرونى ابنى فما أسميتموه ؟ قالوا : حرباً ، فقال صلى الله عليه وسلم : بل هو حسن ، فلما ولد الحسين قال : أرونى ابنى فما أسميتموه ؟ قالوا : حرباً ، فقال صلى الله عليه وسلم : بل هو حسين ، فلما ولد الثالث قال : ما سميتموه ؟ قالوا : حرباً ، فقال صلى الله عليه وسلم : بل هو محسن .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : « إنى سميتهم بأسماء ولد هارون شبر وشبير » .
ولست أجزم إذا كانت هذه الرواية صحيحة ، لأن العداء بين الهاشميين وآل حرب غير خفى ، فما هو المحبذ لآل البيت بتسمية أبنائهم باسم حرب الذى ينتمى إليه الأمويون ، وثانياً أن إعراض الرسول صلى الله عليه وسلم عن اسم حرب حين ولادة الحسن عليه السلام كاف فى إعراض آل البيت عن تسمية الحسين والمحسن بهذا الاسم .

وروى أحمد بن حنبل فى مسنده عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : لما ولد لى الحسن سميته باسم عمى حمزة ، ولما ولد الحسين سميته باسم أخى جعفر ، فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله قد أمرنى أن أغير اسم هذين فسماهما حسناً وحسيناً ، وهذه الرواية قد تكون ضعيفة ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم أسمى حفيديه عقب ولادتهما .

وعن الصادق عليه السلام قال : « عق رسول الله عن الحسن بيده وقال : بسم الله عقيقة عن الحسن وقال : اللهم عظمها بعظمه ولحمها بلحمه ودمها بدمه وشعرها بشعره ، اللهم اجعلها وفاء لمحمد وآله » .

وفى رواية : عق عنه بكبشين أملحين وأعطى القابلة فخذاً وديناراً ، وقال : يا فاطمة احلقى رأسه وتصدقى بزنة شعره فضة ، وأجرى صلى الله عليه وسلم الختان فى اليوم السابع من ولادته ، لأن ختان الطفل فى ذلك الوقت أطيب له وأطهر . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « طهروا أولادكم يوم السابع ، فإنه أطيب وأطهر وأسرع لنبات اللحم ، وأن الأرض تنجس من

بول الأغلف أربعين يوماً » .

وفى أسد الغابة بسنده عن أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب ، أنها قالت : يا رسول الله ، رأيت كأن عضواً من أعضائك فى بيتى ، قال : خيراً رأيت ، تلد فاطمة غلاماً فترضعينه بلبن قثم ، فولدت الحسن فأرضعته بلبن قثم .

ألقابه رضى الله عنه

الإمام الحسن سيد وسبط

يلقب رضى الله عنه بألقاب كثيرة ، وهى :

التقى ، والطيب ، والزكى ، والولى ، والسبط ، والسيد ، وأمير المؤمنين ، والحجة والزاهد والمجتبى ، وأشهرها السبط ، وأعلاها السيد . ومن كناه أبو محمد وأبو القاسم .

فقد روى البخارى عن أبى بكرة رضى الله عنـه : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم على المنبر والحسن بن على معه ، وهو يقبل على الناس مرة وعليه مرة ويقول : « إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » وسنعود إلى هذا الحديث الكريم بالتفصيل فيما بعد ، وكذلك السبط .

ويكنى رضى الله عنه بأبى محمد ، كناه بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى أسد الغابة : أن الكنية هى أن تصدر بأب أو أم ، وهى من سنن

الولادة ، فعن الإمام محمد الباقر عليه السلام : « إنا لنكنى أولادنا فى صغرهم مخافة النبز أن يلحق بهم » .

إنه سيد شباب أهل الجنة ، وأحد الاثنين الذين انحصرت ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهما ، وأحد الأربعة الذين باهل بهم النبى صلى الله عليه وسلم نصارى نجران ، وأحد الخمسة « أصحاب الكساء » وهو أحد المطهرين من الرجس فى الكتاب ، وأحد الذين جعل الله مودتهم أجرا للرسالة ، وجعلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد الثقلين الذين لا يضل من تمسك بهما ، وهو ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحبيبه الذى يحبه ويدعو الله أن يحب من أحبه .

وكانت ملامحه تحاكى جده الرسول ، ووصفه واصفوه فقالوا : « لم يكن أحد أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم من الحسن بن علىّ عليه السلام خَلقاً وخُلقاً وهيأة وهدياً وسؤدداً » .

وعن الغزالى فى الإحياء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للحسن رضى الله عنه : أشبهت خَلقى وخُلقى . وعن أنس بن مالك قال : « لم يكن أحد أشبه بالنبى من الحسن بن علىّ » . وعن علىَ رضى الله عنه أنه قال : « الحسن أشبه برسول الله ما بين الصدر إلى الرأس ، والحسين أشبه بالنبى صلى الله عليه وسلم ما كان أسفل من ذلك » . وفى الإصابة عن البهى قال : « تذاكرنا من أشبه النبى صلى الله عليه وسلم من أهله ، فدخل علينا عبد الله بن الزبير فقال : أنا أحدثكم بأشبه أهله به وأحبهم إليه الحسن بن على » .

ولكن ينافى ذلك ما حكى عن الزهراء رضى الله عنها أنها كانت ترقص الحسن عليه السلام وتقول :

اشبه أباك يا حسن   واخلع عن الحق الرسن

واعبد إلهاً ذا منن   ولا توالِ ذا الإِحَن

وقالت للحسين :

أنت شبيه بأبى   لست شبيهاً بعلى

وروى البخارى عن عقبة بن الحارث قال : « صلى بنا أبو بكر العصر ، ثم خرج فرأى الحسن بن علىّ يلعب فأخذه فحمله على عنقه وهو يقول : بأبى شبيه بالنبى وليس شبيهاً بعلى » وعلىّ يضحك .

وكان الحسن أبيض اللون مشرباً بحمرة أدعج العينين « والأدعج شدة فى سواد العين مع سعتها » ذا وفرة « الوفرة : الشعر السائل على الأذنين » عظيم الكراديس[١] سهل الخدين دقيق المسربة ، كث اللحية ، بعيد ما بين المنكبين جعد الشعر ، حسن البدن ، ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير مليحاً من أحسن الناس وجهاً يخضب بالسواد ، وقال ابن سعد : « كان الحسن والحسين يخضبان بالسواد » . أو كما قال الشاعر :

ما دب فى فطن الأوهام من حسنٍ   إلا وكان له الحظ الخصوصىُّ

كأن جبهته من تحت طرته   بدر يتوجه الليل البهيمىُّ

(١) الكراديس : جمع مفرده الكردوسة وهى كل عظمين التقيا فى مفصل أو العظم الذى يجتمع عليه اللحم ، والمراد ضخم الأعضاء .

قد جلّ عن طيب أهل الأرض عنبره ومسكه فهو الطيب السماوىُّ

نشأ الإمام الحسن رضى الله عنه فى بيت الوحى وتربى فى مدرسة التوحيد وشاهد جده الرسول صلى الله عليه وسلم الذى هو أكمل إنسان ضمه هذا الوجود جمع الناس على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة ، فتأثر السبط بذلك وانطلق يسلك خطى جده فى نصح الناس وإرشادهم ، فقد اجتاز مع أخيه سيد الشهداء رضى الله عنه وهما فى دور الطفولة على شيخ لا يحسن الوضوء ، فلم يدعهما السمو فى النفس وحب الخير للناس أن يتركا الشيخ على حاله لا يحسن وضوءه فأحدثا نزاعاً صورياً أمامه ، وجعل كل منهما يقول للآخر : أنت لا تحسن الوضوء ، والتفتا إلى الشيخ بأسلوب هادئ وجعلاه حكماً بينهما قائلين له : « يا شيخ كل واحد منا يتوضأ أمامك وانظر أى الوضوئين أحسن ؟ » فتوضآ أمامه وجعل الشيخ يمعن فى ذلك فتنبه إلى قصوره والتفت إلى تقصيره من دون أن يأنف وقال لهما : « كلاكما يا سيدىّ تحسنان الوضوء ، ولكن هذا الشيخ الجاهل هو الذى لا يحسن ، وقد تعلم الآن منكما وثاب على يديكما » .

وتدل هذه الواقعة على اتجاه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الهداية بالطرق السليمة والأخلاق الرفيعة ، وقد انطبعت فى ذهن الإمام الحسن عليه السلام وهو فى دور الصبا حتى صارت من خصائصه ومن طبائعه ، وبذلك يكون الإمام قد تأثر بالبيئة الصالحة التى تكونت من أسرته ومن خيار المسلمين وصلحائهم .

وكان الإمام الحسن أعبد الناس فى زمانه وأزهدهم وأفضلهم ، وكان إذا حج حج ماشياً وربما مشى حافياً ، وعن ابن عباس أنه قال : ما ندمت على شيء فاتنى فى شبابى إلا أنى لم أحج ماشياً – ولقد حج الحسن بن على عليهما السلام خمساً وعشرين حجة ماشياً ، وكان إذا توضأ أو صلى ارتعدت فرائصه واصفر لونه . ولا يمر فى شيء من أحواله إلا ذكر الله سبحانه وتعالى ، وكان حليماً ورعاً فاضلا دعاه ورعه وفضله إلى أن ترك الدنيا والملك رغبة فيما عند الله ، وقال : « والله ما أحببت منذ علمت ما ينفعنى ويضرنى أن ألى أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم على أن يراق فى ذلك محجمة دم » أو ليس تنازل الإمام الحسن عن الخلافة هو الزهد بعينه ، قالوا : « وكان أعبد الناس فى زمانه وأزهدهم فى الدنيا » .

وقد كان الإمام الحسن يخاف الله ، وقد روى أن رجلاً سمعه يناجى ربه ويبكى .

فقال له : أتخاف عذاب الله وعندك أسباب النجاة ؟ أين رسول الله وشفاعته صلى الله عليه وسلم ، ورحمة الله التى وسعت كل شيء ؟

فقال الإمام الحسن : أما إنى ابن رسول الله ، فالله يقول : (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم) .

وأما الشفاعة فهو سبحانه يقول : (من ذَا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) .

وأما الرحمة التى وسعت كل شيء . فالله يقول (فسأكتبها للذين يتقون) .

فكيف الأمان يا أخا العرب ؟

وكان الإمام الحسن عذب الروح ، حلو الحديث ، كريم المعاشرة ، حسن الألفة ، محبباً إلى الناس ، يحبه أترابه من شباب قريش والأنصار ، لهذه الخصال ويحبه الشيوخ من أنصار النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الخصال نفسها ولمكانه من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويحبه عامة الناس لكل هذا ، ولسخائه وجوده ، ولعل هذه الصفة من الصفات البارزة التي يشترك فيها مع الإمام الحسين رضي الله عنه ، فقد كان الإمام الحسن يعطي الناس حين يسأل وحين لا يسأل ، وكان يصبح فيصلي الصبح ويجلس في مكانه حتى إذا ارتفعت الشمس طاف بأمهات المؤمنين زائراً لهن متحدثاً إليهن ، يَبَرُّهن وَيبررنه ويهدى إليهن ويُهدين إليه ، ثم يفرغ لبعض شأنه ، فإذا صليت الظهر جلس للناس في المسجد فأطال الجلوس يسمع منهم ويقول لهم ، يعلم من احتاج منهم للعلم ، ويؤدب من احتاج منهم إلى الأدب ويسمع من شيوخ الصحابة من يفيده علماً وأدباً .

وكان في أثناء هذا كله إذا ذكر السلطان أو ذكر السلطان عنده يعرف الخير وينكر الشر في أرقّ لفظ وأعذبه ، ولكنه كان يشتد حتى يبلغ القسوة إذا ذكر أبوه بغير ما يحب ، أو لقي من يعني أباه الغوائل ، أوسعى إليه بمكروه ، وكان بعد هذا كله يحسن كما أحسن الله إليه ولا ينسى نصيبه من الدنيا [1] .

وكان الإمام الحسن أصدق الناس لهجة وأفصحهم منطقاً ، وكان إذ بلغ باب المسجد رفع رأسه ويقول : « إلهي ضيفك ببابك يا محسن قد

(١) الفتنة الكبرى ، للأستاذ العميد الدكتور طه حسين .

أتاك المسيء فتجاوز عن قبيح ما عندى بجميل ما عندك يا كريم » .

وروت زينب بنت أبى رافع قالت : « أتت فاطمة بابنيها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شكواه التى توفى بها ، فقالت يا رسول الله هذان ابناك فورثهما شيئاً .

فقال : أما الحسن ، فإن له هيبتى وسؤددى ، وأما الحسين فإن له جرأتى وجودى » .

وقال الطبرسى فى أعلام الورى : ويصدق هذا الخبر ما رواه محمد ابن إسحق قال : ما بلغ أحد من الشرف بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغ الحسن بن علىّ ، كان يبسط له على باب داره ، فإذا خرج وجلس انقطع الطريق فما يمر أحد من خلق الله إجلالاً له ، فإذا علم قام ودخل بيته فيمر الناس . قال الراوى : ولقد رأيته فى طريق مكة نزل عن راحلته فمشى فما من خلق الله أحد إلا نزل ومشى حتى رأيت سعد بن أبى وقاص قد نزل ومشى إلى جنبه .

أما عن شرف النسب فكفى الحسن والحسين أن جدهما محمد المصطفى سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم وآباهما على المرتضى ، وأمهما فاطمة البضعة الزهراء سيدة النساء وجدتهما خديجة بنت خويلد ، وعمهما جعفر وعم أبيهما حمزة أسد الله وأسد الرسول وسيد الشهداء وجدهما أبو طالب ناصر الرسول صلى الله عليه وسلم والمدافع عنه والمتحمل الأذى فى سبيله وجد أبيهما عبد المطلب شيبة الحمد وسيد البطحاء ، وجد جدهما هاشم مطعم الحجيج

وهاشم الثريد وسيد قريش :

شرف تُوورث كابراً عن كابر   كالرمح أنبوباً على أنبوب
خير الفروع فروعهم   وأصولهم خير الأصول

الرسول والحسن والحسين

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يخاطب الحسن والحسين فيقول : اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ويقول : أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتهم ويبتهل قائلا اللهم أحب من أحبهم وابغض من أبغضهم ، ووال من والاهم وعاد من عاداهم ، وأعن من أعانهم ، واجعلهم مطهرين من كل دنس معصومين من كل ذنب ، ويحق للرسول صلى الله عليه وسلم أن يتأثر بما يعرفه عن الطوايا والنوايا نحو آله فيبكيهم أحياء ، لأنه بصفاء نفسه قد انكشف له الغطاء عن أمور صدقها الوحى ، فأجاز لنفسه أن يبكى وقد أقبل عليه الحسن وأن يقول : إلىّ إلىّ يا بنى – ثم يدنيه ويجلسه على فخذه ويعدد ما ينزل بآله من البلاء والتقتيل والتشريد والتنكيل ، فيذكرهم واحداً واحداً ويقول :

أما الحسن فإنه ابنى وولدى ومنى ، وقرة عينى وضياء قلبى وثمرة فؤادى ، وهو سيد شباب أهل الجنة وحجة الله على الأمة ، أمره أمرى وقوله قولى ، فمن تبعه فإنه منى ومن عصاه فليس منى ، وإنى لما نظرت إليه تذكرت ما يجرى عليه من الذل بعدى – وعند ذلك تبكى الملائكة والسبع الشداد لموته ويبكيه كل شيء وحتى الطير فى كبد السماء والحيتان فى جوف الماء ، فمن بكاه

لم تعم عينه يوم تعمى العيون ، ومن حزن عليه لم يحزن قلبه يوم تحزن القلوب ، ثم يرفعه على عاتقه ويبعثها صرخة تتردد على الزمن : إن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة والحسن والحسين ريحانتاى من الدنيا وهما سيدا شباب أهل الجنة .

وقد شرف الإمام الحسن جده المصطفى صلى الله عليه وسلم ، كما شرف أخاه الإمام أبا عبد الله الحسين السبط بأن نسبهما إليه بالبنوة ، وإن كانا من صلب على كرم الله وجهه .

روى الترمذى من حديث أسامة بن زيد قال : « طرقت النبي صلى الله عليه وسلم فى بعض الحاجة فقال : هذان ابناى وابنا ابنتى ، اللهم إنى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما » .

لذلك يقال لكل من السبطين الحسن والحسين : « يا ابن المصطفى » .

وكانا رضوان الله عليهما يعتزان بأبوته صلى الله عليه وسلم ويهتفان به ، فيقول كل منهما له صلى الله عليه وسلم « يا أبت » فإذا هتف الحسن بأبيه علىّ قال له « يا أبا الحسين » وإذا هتف الحسين بأبيه قال له « يا أبا الحسن » فلما انتقل جدهما صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى كانا يقولان لأبيهما « يا أبت » .

ومن ذلك نرى أن النبوة التى شرفه بها مولانا الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله الكريم : « إن ابنى هذا سيد » وقوله : « إنما هما ابناى وابنا ابنتى ، اللهم إنى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما » أيدها القرآن الكريم ، فى آية المباهلة حيث يقول الله سبحانه وتعالى : (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيه مِنْ بَعْدِ ما جَاءَكَ مِنَ الْعِلْم

فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُم وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وأَنفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثم نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ » .

فقد جاء صلى الله عليه وسلم بالحسن والحسين وفاطمة تمشى خلفه وعلىّ خلفهما وهو يقول لهم : « إن أنا دعوت فأمنوا » .

وقد أبى أهل نجران المباهلة خشية أن يصيبهم عذاب الله ورضوا بدفع الجزية .

وروى الطبرانى عن جعفر بن محمد عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وسلم بايع الحسن والحسين وعبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر وهم صغار لم يبلغوا ، قال : « ولم يبايع صغيراً إلا منا » .

ووقف رسول الله يصلى بالمسلمين فجاء الحسن وهو ساجد فجلس على ظهره ، فرفعه النبي رفعاً رقيقاً ، فلما فرغ من الصلاة وضعه فى حجره فكان يدخل أصابعه فى لحيته والرسول عليه الصلاة والسلام يضمه ويقبّله فى حنان ويقول : اللهم إنى أحبه ، ورأى المسلمون ذلك الحب الدافق فقالوا :

– يا رسول الله إنا رأيناك تصنع لهذا الصبى شيئاً ما رأيناك تصنعه بأحد ؟

– هذا ريحانتى ، وإن ابنى هذا سيد ، وعسى الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين .

ونهض النبي وحمل الحسن وسار ، فقابله رجل ، فقال :

– نعم المركب ركبت يا غلام .

– فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : ونعم الراكب هو .

ووقف الرسول صلى الله عليه وسلم فى مسجده يخطب ، وبينما عليه أفضل الصلاة والسلام يعظ المسلمين جاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان ، فلم يملك رسول الله نفسه ، بل نزل إليهما وأخذهما وعاد إلى المنبر وهو يضمهما إليه ، ثم وضعهما فى حجره .

وقال : صدق الله العظيم : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) .

ولقد شعر أصحاب الرسول بأن ذكر الحسن والحسين يدخل على نفسه الغبطة فسأله بعض الجلساء يوماً : أى أهلك أحب إليك ؟ فأجابه : الحسن والحسين – من أحبنى وأحبهما وأباهما وأمهما كان معى فى الجنة – وقال مرة لواحد من أصحابه : ادع ابنى فأتى له بالحسن وهو يشتد حتى وقع فى حجره فأحتضنه شغفاً .

١ – الحسن والحسين سبطا هذه الأمة

لكل شىء أساس وأس الإيمان الورع ، ولكل شىء فرع وفرع الإيمان الصبر ، ولكل شىء سنام وسنام هذه الأمة عمى العباس ، ولكل أمة سبط وسبط هذه الأمة الحسن والحسين ، ولكل شىء جناح وجناح هذه الأمة على بن أبى طالب [كنز العمال ج ٢ ص ٨٨]

وعن على بن الهلالى عن أبيه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحالة التى قبض فيها فإذا فاطمة سلام الله عليها عند رأسه فبكت

حتى ارتفع صوتها ، فرفع صلى الله عليه وسلم طرفه إليها فقال : حبيبتى فاطمة ما الذى يبكيك ؟ فقالت : أخشى الضيعة من بعدك . فقال : يا حبيبتى أما علمت أن الله اطلع على أهل الأرض إطلاعة فاختار منها أباك فبعثه برسالته ، ثم اطلع إطلاعة فاختار منها بعلك وأوحى إلى أن أنكحك إياه ؟ يا فاطمة ونحن أهل بيت فقد أعطانا الله سبع خصال لم تعط أحداً قبلنا ولا تعط أحداً بعدنا ، وأنا خاتم النبيين وأكرمهم على الله عز وجل وأحب المخلوقين إلى الله عز وجل ، وأنا أبوك ووصيى خير الأوصياء وأحبهم إلى الله عز وجل وهو بعلك ، وشهيدنا خير الشهداء وأحبهم إلى الله عز وجل وهو حمزة ابن عبد المطلب عم أبيك وعم بعلك ، ومنا من له جناحان أخضران يطير بهما إلى الجنة حيث يشاء مع الملائكة وهو ابن عم أبيك وأخو بعلك ، ومنا سبطا هذه الأمة وهما ابناك الحسن والحسين وهما سيدا شباب أهل الجنة ، وأبوهما - والذى بعثنى بالحق - خير منهما - يا فاطمة والذى بعثنى بالحق إن منهما مهدى هذه الأمة إذا صارت الدنيا هرجاً ومرجاً ، وتظاهرت الفتن وتقطعت السبل وأغار بعضهم على بعض ، فلا كبير يرحم صغيراً ، ولا صغير يوقر كبيراً ، فيبعث الله عز وجل عند ذلك من يفتح حصون الضلالة وقلوباً غلفاً يقوم بالدين فى آخر الزمان كما قمت به فى أول الزمان ، ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً .

٢ – إن الحسنين عليهما السلام خير الناس جداً وجدة وأباً وأماً

عن ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيها الناس ، ألا أخبركم بخير الناس جداً وجدة ؟ ألا أخبركم بخير الناس عماً وعمة ؟ – ألا أخبركم بخير الناس خالاً وخالة ؟ ألا أخبركم بخير الناس أبا وأماً ؟ – الحسن والحسين ، جدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدتهما خديجة بنت خويلد ، وأمهما فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبوهما على بن أبى طالب عليه السلام ، وعمهما جعفر بن أبى طالب ، وعمتهما أم هانئ بنت أبى طالب ، وخالهما القاسم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخالاتهما زينب ورقية وأم كلثوم بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدهما فى الجنة وخالاتهما فى الجنة وهما فى الجنة ومن أحبهما فى الجنة .

(وفى ذخائر العقبى) وعن ابن عباس قال : بينما نحن ذات يوم مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبلت فاطمة سلام الله عليها تبكى فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : فداك أبوك ما يبكيك ؟ قالت : إن الحسن والحسين خرجا ولا أدرى أين باتا ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تبكى فإن خالقهما ألطف بهما منى ومنك ثم رفع يديه فقال : اللهم احفظهما وسلمهما فهبط جبريل وقال : يا محمد لا تحزن فإنهما فى حظيرة بنى النجار نائمين وقد وكل الله بهما ملكاً يحفظهما ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه حتى أتى الحظيرة فإذا الحسن والحسين

عليهما السلام معتنقين نائمين وإذا الملك الموكل بهما قد جعل أحد جناحيه تحتهما والآخر فوقهما يظلهما ، فأكب النبي صلى الله عليه وسلم عليهما يقبلهما حتى انتبها من نومهما ، ثم جعل الحسن على عاتقه الأيمن والحسين على عاتقـــه الأيسر ، فتلقاه أبو بكر وقال : يا رسول الله ناولني أحـــد الصبيين أحمله عنك ، فقال صلى الله عليه وسلم : نعم المطى مطيهما ونعم الراكبان هما وأبوهما خير منهما حتى أتى المسجد ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على قدميه وهما على عاتقيه ثم قال :

يا معشر المسلمين ألا أدلكم على خير الناس جداً وجدة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله – قال : الحسن والحسين جدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم – خاتم المرسلين وجدتهما خديجة بنت خويلد سيدة نساء أهل الجنة ، ألا أدلكم على خير الناس عماً وعمة ؟ قالوا بلى يا رسول الله – قال : الحسن والحسين عمهما جعفر بن أبى طالب وعمتهما أم هانئ بنت أبى طالب – أيها الناس ألا أدلكم على خير الناس خالا وخالة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله – قال : الحسن والحسين خالهما القاسم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وخالتهما زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم – ثم قال : اللهم إنك تعلم أن الحسن والحسين فى الجنة وعمهما فى الجنة وعمتهما فى الجنة ومن أحبهما فى الجنة ومن أبغضهما فى النار .

٣ – الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة

عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة – (وصحيح الترمذى أيضاً ، ص ٣٠٧) روى بسنده عن زر بن حبيش عن حذيفة قال : سألتنى أمى متى عهدك ؟ تعنى بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فقلت : ما لى به عهد منذ كذا وكذا ، فنالت منى فقلت لها : دعينى آتى النبى صلى الله عليه وسلم فأصلى معه المغرب وأسأله أن يستغفر لى ولك ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فصليت معه المغرب فصلى حتى صلى العشاء ثم انفتل فتبعته فسمع صوتى فقال : من هذا حذيفة ؟ قلت نعم – قال : ما حاجتك غفر الله لك ولأمك ؟ – قال : إن هذا ملك لم ينزل الأرض قط قبل هذه الليلة استأذن ربه أن يسلم علىّ ويبشرنى بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة .

(وفى حلية الأولياء لأبى نعيم) روى بسنده عن إبراهيم بن يزيد التيمى عن أبيه قال : وجد على بن أبى طالب عليه السلام درعاً له عند يهودى التقطها فعرفها فقال : درعى سقطت عن جمل لى أروق ، فقال اليهودى : درعى وفى يدى ، ثم قال له اليهودى بينى وبينك قاضى المسلمين ، فأتوا شريحاً (إلى أن قال) فقال شريح : صدقت والله يا أمير المؤمنين ، إنها لدرعك ولكن لا بد من شاهدين فدعا قنبراً مولاه والحسن بن على عليهما

السلام وشهدا أنها درعه ، فقال شريح : أما شهادة مولاك فقد أجزناها ، وأما شهادة ابنك لك فلا نجيزها ، فقال على عليه السلام : ثكلتك أمك أما سمعت عمر بن الخطاب يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة .

وفى تاريخ بغداد أيضاً : روى بسنده عن زر بن حبيش عن حذيفة قال : رأينا فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تباشير السرور فقلنا : يا رسول الله لقد رأينا اليوم فى وجهك تباشير السرور ، فقال ومالى لا أسر وقد أتانى جبريل فبشرنى أن حسناً وحسيناً سيدا شباب أهل الجنة وأباهما أفضل منهما .

٤ – إن الله زين الجنة بالحسن والحسين

عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما استقر أهل الجنة فى الجنة قالت الجنة : يارب أليس وعدتنى أن تزينني بركنين من أركانك ؟ قال : ألم أزينك بالحسن والحسين ؟ قال : فماست[1] الجنة ميساً كما تميس العروس .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
فخرت الجنة على النار فقالت : أنا خير منك – فقالت النار : بل أنا خير منك ، فقالت لها الجنة – استفهاماً – ومه ؟ – قالت : لأن فىّ الجبابرة

---

(١) ماست أى تبخترت .

ونمروذ وفرعون فأسكتت ، فأوحى الله إليها لا تخضعن لأزينن ركنيك بالحسن والحسين – فماست كما تميس العروس فى خدرها .

فيما حدثه الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم

قال الحسن : علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن فى الوتر : اللهم اهدنى فيمن هديت وعافنى فيمن عافيت ، وتولنى فيمن توليت ، وبارك لى فيما أعطيت ، وقنى شر ما قضيت فإنك تقضى ولا يقضى عليك وإنه لا يذل من واليت – تباركت ربنا وتعاليت .

(وفى حلية الأولياء لأبى نعيم) روى بسنده عن أبى الجوزاء قال : قلت للحسن بن على عليهما السلام : مثل من كنت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما عقلت عنه ؟ قال : عقلت عنه أنى سمعته يقول : دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الشر ريبة والخير طمأنينة ، وعقلت عنه الصلوات الخمس – وكلمات أقولهن عند انفصالهن ، اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت ، وتولنى فيمن توليت ، وبارك لى فيما أعطيت ، وقنى شر ما قضيت ، إنك تقضى ولا يقضى عليك ، إنه لا يذل من واليت تباركت وتعاليت .

(وفى أسد الغابة لابن الأثير) روى بسنده عن عمير بن مأمون قال : سمعت الحسن بن على عليهما السلام يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من صلى صلاة الغداة فجلس فى مصلاه حتى تطلع الشمس كان له حجاب من النار ، أو قال : ستر من النار .

فى معانقة النبي صلى الله عليه وسلم مع الحسن وتقبيله له

عن أبى هريرة قال : خرج النبى صلى الله عليه وسلم فى طائفة النهار لا يكلمنى ولا أكلمه حتى أتى سوق بنى قينقاع فجلس بفناء بيت فاطمة سلام الله عليها فقال : أثم لكع أثم لكع[١] فحبسته شيئاً فظننت أنها تلبسه سخاباً[٢] أو تغسله — فجاء يشتد حتى عانقه وقبله وقال : اللهم أحببه وأحب من يحبه .

(صحيح البخارى فى كتاب بدء الخلق) فى باب مناقب الحسن والحسين عليهما السلام . روى بسنده عن البراء قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم والحسن بن على عليهما السلام على عاتقه يقول اللهم إنى أحبه فأحبه .

وعن أبى هريرة قال : قبّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن على عليهما السلام وعنده الأقرع بن حابس التميمى جالساً فقال الأقرع : إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : (من لا يرحم لا يُرحم) .

وعن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل حسناً وضمه إليه وجعل يشمه وعنده رجل من الأنصار ، فقال الأنصارى : إن لى ابناً قد بلغ ما قبلته قط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت إن كان الله نزع الرحمة من قلبك فما ذنبى .

---

(١) قال ابن الأثير الجزرى فى نهاية غريب الحديث بمادة (لكع) : (وقد يطلق على الصغير ومنه الحديث : إنه عليه السلام جاء يطلب الحسن بن على قال . أثم لكع) فهو بضم اللام وفتح الكاف ثم العين المهملة .

(٢) السخاب هو خيط ينظم فيه خرز ويلبسه الصبيان والجوارى .

وقال ابن إسحاق – حدثني مساور مولى بني سعد بن بكر قال : رأيت أبا هريرة قائماً على المسجد يوم مات الحسن عليه السلام يبكي وينادى بأعلى صوته : يا أيها الناس مات اليوم حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأخذ حسناً فيضمه إليه ثم يقول : اللهم إن هذا ابني وأنا أحبه وأحب من يحبه .

(مسند الإمام أحمد بن حنبل) روى بسنده عن المبارك عن الحسن عن أبي بكرة – قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بالناس وكان الحسن بن على عليهما السلام يثب على ظهره إذا سجد ففعل ذلك غير مرة فقالوا له : والله إنك لتفعل بهذا شيئاً ما رأيناك تفعله بأحد ، قال المبارك : فذكر شيئاً ثم قال : (إن ابنى هذا سيد وسيصلح الله تبارك وتعالى به بين فئتين من المسلمين) . وقال أيضاً (إنه ريحانتى من الدنيا وإن ابنى هذا سيد وعسى الله تبارك وتعالى أن يصلح به بين فئتين من المسلمين) .

والمراد من الفئتين العظيمتين من المسلمين فى هذا الحديث وقد أصلح الله تبارك وتعالى بينهما بالحسن بن على عليهما السلام أهل الكوفة أصحاب الحسن وأصحاب أبيه عليهما السلام ، وأهل الشام أصحاب معاوية بن أبى سفيان ، الفئة الباغية بنص النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتواتر المشهور ، (ويح عمار تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار) .

وعن خالد بن معدان قال : وفد المقدام بن معدى كرب وعمرو بن الأسود إلى معاوية فقال معاوية للمقدام : أعلمت أن الحسن بن على عليهما

السلام توفى ؟ وقال أتراها مصيبة ، فقال ولم لا أراها مصيبة وقد وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجره وقال : هذا منى وحسين من على .

وعن أنس قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم راقداً إذ جاء الحسن عليه السلام يدرج حتى قعد على صدره ثم بال عليه ، فجئت أمطيه عنه قال : ويحك يا أنس دع ابنى وثمرة فؤادى فإن من آذى هذا فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله .

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يسابق بينهما مرة فسبق الحسن أخــاه وعاد مسرعاً حتى ارتمى فى حجره فأخذه وقبله قبلةً فيها حنان وتقدير يخالطهما حذر ومرارة – ثم أجلسه على ركبته اليمنى وفعل ذلك مع أخيه الحسين وأجلسه على اليسرى وسئل حينئذ : يا رسول الله أيهما أحب إليك ؟ فأجاب : أقول كما قال أبونا إبراهيم – وقد قيل له : أى ابنيك أحب إليك فقال : أكبرهما ابنى محمداً . ويقول أبو هريرة وقد التقى بالحسن بعد وفاة جده : أرنى أقبل منك حيث رأيت رسول الله يقبل ثم قبل سرته فقد كان النبى يفعل ذلك على دعوى أبى هريرة ، وكان ينيم الحسن على عضده ويرقصه ويداعبه ويناغيه مما دفع أبا هريرة إلى القول : سمعت أذناى هاتان وأبصرت عيناى هاتان رسول الله والحسن آخذ بكفيه جميعاً وقدما على قدم رسول الله وهو يقول له :

حزقــة حزقــه ترق عين بقــه

فيرقى الغلام حتى يضع قدميه على صدر جده فيقبله .

ما روى عن الحسن والحسين :

١ – عن الرسول صلى الله عليه وسلم : أن الله تعالى جعل ذرية كل نبى فى صلبه خاصة ، وجعل ذريتى من صلب على بن أبى طالب ، فكانت ذريته صلى الله عليه وسلم منحصرة فى الحسن والحسين وأبنائهما .

٢ – وروى عن أبى سعيد الخدرى فى حديث ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة .

٣ – وفى شدة حب الرسول لهما يروى أنس بن مالك : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى أهل بيتك أحب إليك ؟ قال : « الحسن والحسين » وكان يقول لفاطمة : ادعى لى ابنى فيشمهما ويضمهما إليه ، كذلك يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال فى الحسن والحسين : « اللهم إنى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما » .

وعن زيد بن أرقم : « كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم فى مسجده ، فمرت الزهراء خارجة من بيتها إلى حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعها الحسن والحسين عليهما السلام ؛ ثم تبعهما على ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه ، فقال : « من أحب هؤلاء فقد أحبنى ، ومن أبغض هؤلاء فقد أبغضنى » .

وأخيراً بلغ من مزيد حبه وإشفاقه على سبطيه أنه كان يعوذهما خوفاً عليهما من الحسد ، فقد روى أبو نعيم بسنده عن عبد الله ، قال : كنا جلوساً

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ مر الحسن والحسين وهما صبيان ، فقال : « هات ابنىّ أعوذهما بما عوذ به إبراهيم ابنيه إسماعيل وإسحاق فقال : أعيـذكما بكلمات الله التامة من كل عين لامة ، ومن كل شيطان وهامة » وليس فى سجل المودة الإنسانية أجمل من هذا الحنان .

ما روى عن الإمام الحسن : .

١ – وروت عائشة رضى الله عنها أنها قالت : إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأخذ حسناً فيضمه إليه ، ثم يقول : « اللهم إن هذا ابنى ، وأنا أحبه ، فأحبه وأحب من يحبه » .

٢ – وروى عبد الله بن عبد الرحمن بن الزبير قال : « أشبه أهل النبى صلى الله عليه وسلم وأحبهم إليه الحسن ، رأيته يجىء وهو ساجد فيركب رقبته أو قال : ظهره فما ينزله حتى يكون هو الذى ينزل ، ولقد رأيته وهو راكع فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر » .

٣ – وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى إحدى صلاتى العشاء ، فسجد سجدة أطال فيها السجود ، فلما سلم قال له الناس فى ذلك . فقال : « إن ابنى هذا – يعنى الحسن – ارتحلنى فكرهت أن أعجله » .

٤ – وقال صلى الله عليه وسلم : « من سره أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى الحسن » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الحسن ريحانتى من الدنيا » .

٥ – وروى أنس بن مالك ، قال دخل الحسن على النبي صلى الله عليه وسلم فأردت أن أميطه عنه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ويحك يا أنس دع ابني وثمرة فؤادي فإن من آذى هذا فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله » .

خصائصه ومناقبه :

تحدث الرواة عن نبوغ الإمام الحسن الباكر ، فقد ملك بمقتضى ميراثه من الذكاء وسمو الإدراك مالا يملكه غيره ، فكان لا يمر عليه شيء إلا حفظه ، وكان يحضر مجلس جده صلى الله عليه وسلم فيحفظ الوحي فينطلق إلى أمه فيلقيه عليها فتحدث به الإمام عليًّا فيتعجب ويقول : « من أين لك هذا ؟ » فتقول : « من ولدك الحسن » .

الزهراء والحسن

السيدة العظيمة فاطمة الزهراء التى لم تتجاوز أواسط العقد الثانى من عمرها إن نسبت فإلى أسمى عنصر وإن انحدرت فمن أطهر صلب ، تعيش فى أكرم بيت بعيد عن الأرجاس تشملها عناية رجل يهبها من وقته ما يكفل تربيتها كما يريد لها لا كما تريد البيئة الضالة ، إنها قرة عين الرسول صلى الله عليه وسلم وبضعته تتطلع إلى ما يجتاح الجزيرة بحذر وتلاحظ ما يدور حول رسالة أبيها وما يعترضها من مصاعب بيقظة ، فترى تمرد المتمردين وتعنت المتعنتين ثم تختزن ذلك كله فى حشًى متأثر يتسع للإحساس ، على حين تكون نفسها ثملة بنشوة الدين الجديد أو متألمة لما يلقاه حماتُه بسبيله مسلمةً إلى الله ، تجتاز هى هذه المراحل فتترسب آثارها فى أعماقها وتستقر متبلورة فى حشاها الذى يحتفظ بالحسن جنيناً . . فتحمل فى قرارة نفسها توأمين اثنين : الجنين والأحاسيس اللذين يتفاعلان بحكم الطبيعة وينصهران فى بوتقة واحدة ، فيتأثر الجنين كما تتأثر الزجاجة فى آلة التصوير ، وينمو منكمشاً على نفسه إلى أن يخرج إلى هذه الدنيا بعد وقعة بدر ، وفى نفسه كل ما فى نفس أمه الجائشة لما يلقاه أبوها وبعلها والأنصار من ألوان التعنت وويلات الحرب الدائمة ، فهو إذن ينفعل بحكم طفولته ومرونة عقله ولين طباعه بصورة مستمرة .

فقد كان يكتنف حياة الزهراء التأمل العميق لانها فى تماس دائم مع حوادث تغير توجيهها من اللامبالاة والبشر إلى التفكر والكمد ، ومن الغبطة والانشراح إلى التبتل والتسليم ، فتضع وليدها على هذا الشكل وفى هذا الجو فإذا هو لا يقل عنها اتزاناً لما مازج تكوينه من حياة أمه ، فجاء مؤمناً وادعاً طلقاً قلقلاً تتردد حالاته بين طرفى هذه الأضداد وفى مداها دون أن يتجاور أحدها .

وتبدأ بغرس التعاليم فى نفسه لتجعلها صافية ولتصرفه بكليته إلى السماء ، فينشأ مجبولاً على طبائعها فضلاً عما أوتيه من شبه بها فى الخلق ، لأنهما – كما روى – صورة عن النبى ناطقة القسمات والملامح فيبدو مفطوراً على ما نسجته أمه وظروفه ومحيطه فى نفسه ، فقد أخذت الأم بتلابيبه – ولم تفتر عن رعايته وتوجيهه توجيهاً دينيًّا خلقيًّا ، بل أعطته جل وقتها – وهو الولد الأول – وعملت على ترقية عقله وتقوية جميع جهاته المعنوية والفكرية .[1]

ومن المعروف أن التربية الاجتماعية الحقة تبدأ فى عهد الأمومة حيث يمارس الولد المحبة والطاعة والمحافظة على الواجبات والحقوق ، ويفهم تفاوت الدرجات بين أفراد الجنس ويغتذى بالمبادئ الأولية للعقيدة ، لذا كانت الزهراء تعنى بولدها كثيراً لأنها تخاف عليه من مستقبل جائر يصفه جده – وجده لا ينطق عن الهوى ، وكانت تتعلق به وبأخيه إلى حد تضطرب معه إذا فارقاها أو انصرفا عن البيت إلى غير جدهما أو أبيهما ، فهى تلازمهما لتنشئ فيهما المعرفة والآداب ولتحليهما بالعادات الحسنة .

---

(١) الحسن بن على للأستاذ كامل سليمان .

وكانت وفاة الزهراء فاجعة ثقيلة على الحسن والحسين ، لأن عهدهما معهـا كان فترة من الزمن قصيرة ولكنها بالرغم من قصر المدة تمكنت أن تجعل الحسن كما جعلت أخاه طفلاً مهذباً متمرساً بفكرة الله والدين ، كيف لا وقد ربيا ونشآ فى ظل رجلين وامرأة هم أعظم من أظلت السماء .

يقـول الحسن فى إحدى المناسبات (رأيت أمى فاطمة فى محرابها راكعة تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم وتكثر الدعاء لهم ولا تدعو لنفسها بشىء فقلت لها يا أماه ألا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك ؟

فقالت : يا بنى – الجار ثم الدار – فعلى مثل هذا المشهد كانت تتفتح عينا الطفل للنور .

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الزهراء مرة فقالت له : يا أبه إن لنا ثلاثاً ما طعمنا طعاماً وإن الحسن والحسين قد اضطربا علىّ من شدة الجوع ثم رقدا كأنهما فرخان ، فأيقظهما النبى صلى الله عليه وسلم وأجلسهما على فخذيه وجعل أمهما بين يديه وعلياً بجانبهما واعتنقهم جميعاً ورفع رأسه نحو السماء وقال : (هؤلاء أهل بيتى – اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . .) فطابت النفوس لهذا الدعاء وأحست ببرده وسلامه . وانحدرت دموع التسليم على الوجوه النضيرة – ولامست بركة الجد الولدين فأحسا بلطف خفى يروض نفسيهما ويروح قلبيهما . فنظرا إلى ثلاثة من حولهما قد عمر قلوبهم الإيمان فانطلق من وجوههم نور شكل هالة متلألئة فارتعشا للمنظر المدهش واهتزا له – ثم قرّا وسكنا – وخيمت عليهم جميعاً الرحمة فوجموا

وجوم التهيب والهلع من رب عظيم يخاطبه نبيّ كريم ، ونظر الحسن بعين بصيرته فرأى نفوساً نقية من كل شرك مطهرة من كل دنس ، ففرق كما فرقت وهدأ كما هدأت وأسلم وبايع جده وعاهد الله على ذلك فى تلك الخلوة الرائعة .

وراح هذا المشهد مع من راح – وبقى الحسن يميزه من جميع مفارقاته لأنه وإن فارق الجد والأم وهو فى الثامنة من عمره قد كان فى مرتبة من التعقل والتفهم لا يشاركه فيها كثيرون من أبناء هذه السن إذ اكتملت فيه جميع عناصر الاستعداد الصحيح ومقومات الفكر الراجح .

خرج الحسن مرة وعاد فوجد أمه قد فارقت الحياة فوقع عليها يقبلها ويبكى وشيع أنبل وأشرف أم وعـــاد يتيماً من جده العظيم وأمه محروماً إلا من رحمة الله وأبيه – رجع ليستظل ببيت ليس فيه جد رحيم ولا أم رءوم ولينطوى على نفسه ، ولكن أباه لم يجعل لليأس إلى قلبه سبيلاً بل انتشله من ذل المصيبة واليتم وجعله فى كنف وارفٍ وظل ظليل .

الحسن مع الإمام على

كان الحسن يدعو جده الرسول صلى الله عليه وسلم (يا أبى) ويقول لأبيه الإمام على يا أبا الحسين – وكان الإمام ينصح الحسن إذا حضر ويكتب له إذا غاب فيحقر له الدنيا ويعظم له الآخرة ، ويتعهد فى نفسه العقيدة دون أن ينسى مرافقة نمو مداركه وتقوية ملكة التبصر فيه ليجعله صمداً منيعاً إلى أن أخذت معانى السمو تكتمل فى الغلام . وتلاقت فى نفسه أنواع الإرشادات فاختمرت وقذفت به نحو النضج شوطاً بعيداً ، فصار له الرأى الشخصى والقوة الذاتية .

وأصبح[1] يدعو والده إلى القعود عن الحرب أو يحفزه إذا ما قعد عنها ، وهو فى هذا وذاك فذ له اجتهاد صائب عليه برهان ودليل . . فمن ذلك أنه رافق أباه إلى الجمل ، وإذ هما فى الربذة اعتملت فى نفسه فِكر مختلفة فضاربها ووازنها ثم استنتج وقال لأبيه فى أثناء احتدام الجدل : (ستقتل بمضيعة لا ناصر لك) ، فأجابه والده بشىء من الأناة والرفق : (إنك لا تزال تحن علىّ حنين الجارية – وما الذى رأيته واستصوبته ؟) فيندفع الحسن إلى تفنيد رأى تبناه ويقول : (لقد رأيت لك يوم أحيط بعثمان أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ، ثم رأيت لك يوم قتله ألا تبايع

---

(١) الحسن بن على (كامل سليمان)

حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر فإنهم لن يقطعوا أمراً دونك فأبيت عليّ ، ورأيت لك حين خرجت السيدة عائشة وهذان الرجلان أن تجلس فى بيتك حتى يصطلحوا ، فإن كان الفساد كان على يد غيرك فلم تقتنع منى بذلك كله .

وضاق صدر الوالد وقال لابنه : أى بُنى – أما قولك – لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به – وأما قولك لا تبايع حتى يبايع أهل الأمصار فإن الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هذا الأمر . ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر منى فبايع الناس أبا بكر فبايعته ، ثم توفى وبايع الناسُ عمر فبايعته ، وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر منى ، فجعلنى سهماً من ستة أسهم ، وبايع الناس عثمان فبايعته – ثم سار الناس إلى عثمان فقتلوه وبايعونى طائعين غير مكرَهين . وأما قولك أن أجلس فى بيتى حين خرج طلحة والزبير فكيف لى بما قد لزمنى .

وقد قال الحسن لأبيه يوم النهروان : يا أمير المؤمنين – أكان رسول الله تقدم إليك فى أمر هؤلاء بشىء ؟ فأجابه : إن رسول الله أمرنى بكل حق ، ومن الحق أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين .

وكان الإمام يوصى الإمام الحسن دائماً ويطلعه على ما طوى صدره من العلم الثرار فمن ذلك قوله له : (يا بنى احفظ عنى أربعاً وأربعاً لا يضرك ما عملت معهن : إن أغنى الغنى العقل ، وأكبر الفقر الحمق ، وأوحش

الوحشة العجب ، وأكرم الحسب حسن الخلق . يا بنى إياك ومصادقة الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، وإياك ومصادقة البخيل فإنه يقعد عنك أحوج ما تكون إليه ، وإياك ومصادقة الفاجر فإنه يبيعك بالتافه ، وإياك ومصادقة الكذاب فإنه كالسراب يقرب عليك البعيد ويبعد عنك القريب) .

ومن هذا نرى أن الإمام رضى الله عنه دائم السهر على ولده يشرح له بفصاحته المعهودة ويزوده من معارفه .

وفى واقعة الجمل كان الإمام الحسن فى ميمنة الجيش وأخوه فى الميسرة والراية بيد الأخ الثالث محمد بن الحنفية وكان الوالد يقذف بمحمد ويكف الحسن والحسين – فقيل لمحمد : (لم يغرر بك أبوك فى الحرب ولا يغرر بأخويك ؟ فأجاب : إنهما عيناه وأنا يمينه فهو يدفع عن عينيه بيمينه . .)

فالحسن عند أبيه ساعد قوى والإمام على يزحف وأولاده من حوله يشدون أزره ويسندون ظهره – وقال الإمام لابنه الحسن فى هذه الواقعة : (يا بنى – ليت أباك مات قبل هذا اليوم بعشرين عاماً) ويرد الإمام الحسن : (يا أبت لقد كنت أكره هذا) .

وبعث الإمام على رضى الله عنه بعثه إلى العراق وعلى رأسها الإمام الحسن وكان يحمل كتاب والده الذى رسم فيه قصة مقتل عثمان ودور كل من دعاة الانتقام فيه ونقل به إلى أذهانهم صورة حقيقية لأمر الخليفة المقتول جعلت السامع كالمعاين فهدأت عند تلاوته خواطرهم . وجاء فى هذا

الكتاب : (إنى خرجت مخرجى هذا إما ظالماً أو مظلوماً وإما باغياً وإما مبغيًا علىّ فأنشد الله رجلاً بلغه كتابى هذا إلا نفر إلى فإن كنت مظلوماً أعاننى وإن كنت ظالماً استعتبنى . . .)

ولما وصلت البعثة وكان من أعضائها عبد الله بن عباس ، وعمار بن ياسر ، وقيس بن سعد ، خرج إليهم أبو موسى — فقال له الحسن : (لم تثبط الناس عنا ؟ فو الله ما أردنا إلا الإصلاح ، ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء) . فيجيب أبو موسى : (صدقت بأبى أنت وأمى ، ولكن المستشار مؤتمن ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الراكب ، وقد جعلنا الله إخواناً وحرم علينا دماءنا وأموالنا . . .)

وقد رد عليه عمار متجهاً إلى جمع غفير من الناس وقال : (أيها الناس إنما قال له وحده أنت فيها قاعداً خيرٌ منك قائماً) . ثم قام الحسن وقال :

(أيها الناس إنا جئنا ندعوكم إلى الله وإلى كتابه وسنة رسوله ، وإلى أفقه من تفقّه من المسلمين وأعدل من تعدلون ، وأفضل من تفضلون وأوفى من تبايعون ، من لم يعبه القرآن ولم تجهله السنة ، ولم تقعد به السابقة إلى من قرّبه الله تعالى ورسوله قرابتين ، قرابة الدين وقرابة الرحم ، إلى من سبق الناس إلى كل مأثرة ، إلى كل من كفى الله به رسوله والناس متخاذلون ، فقرُب منه وهم متباعدون ، وصلى معه وهم مشركون ، وقاتل معه وهم منهزمون ، وبارز معه وهم محجمون ، وصدقه وهم يكذبون ، إلى من لم ترد له شهادة

ولا تكافأ له سابقة ، وهو يسألكم النصر ويدعوكم إلى الحق ويأمركم بالمسير إليه ، لتؤازروه وتنصروه على قوم نكثوا راية بيعته ، وقتلوا أهل الصلاح من أصحابه ، ومثلوا بعماله ، وانتهبوا بيت ما له ، فأشخصوا إليه رحمكم الله فأمروا بالمعروف وانهو عن المنكر واحضروا بما يحضر به الصالحون) .

وفى مناسبة ثانية قام فى الناس يدعوهم إلى نصرة الحق فقال : (أيها الناس إنه قد كان من مسير أمير المؤمنين ما قد بلغكم ، وقد أتيناكم مستنفرين لأنكم جبهة الأنصار ورءوس العرب ، وايم الله لو لم ينصره أحد منكم لرجوت أن يكون فى من أقبل معه من المهاجرين والأنصار كفاية ، فأجيبوا دعوة أميركم ، وسيروا إلى إخوانكم ، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه ، ووالله لئن يَلِهِ أولو النهى أمثل فى العاجل والآجل وخير فى العافية ، فأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم . وإن أمير المؤمنين يقول : قد خرجت مخرجى هذا ظالماً أو مظلوماً فاذكرّ الله رجلاً رعى حق الله إلا نفر ، فإن كنت مظلوماً أعاننى ، وإن كنت ظالماً أخذ منى . . والله إن طلحة والزبير لأول من بايعنى وأول من غدر . . . فهل استأثرت أو بدلت حكماً . . ؟) .

وفى مناسبة أخرى قال : (إن مما عظّم الله عليكم من حقه ، وأسبغ عليكم من نعمه ، مالا يحصى ذكره ولا يؤدى شكره ، ولا يبلغه قول ولا صفة .

ونحن إنما غضبنا لله ولكم ، ولم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم ، واستحكمت عقدتهم فاحتشدوا فى قتال عدوكم وجنوده ولا تخاذلوا ، فإن الخذلان يقطع نياط القلوب ، وإن الإقدام على الأسنة نخوة وعصمة ،

ولم يمتنع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة وكفاهم حوائج الذلة ، وهداهم إلى معالم الملة . . .) .

على أن بعض المغرضين يتوهمون أن الحسن شاب هين إلى حد اللين لا يستجيب لظروف والده ، وإذا تراءت إيجابية فإلى قسط بسيط يشبه السلبية ، والحقيقة أن تصرفاته قد بلغت خير ما يرجى فبرهن على طول باع ، إذ رافق القضية وراعى تطورها بعقل رصين حصيف .

فها هو ذا[1] فى النخيلة – قبل صفين بأيام – يشهد تبادل التحارير بين أبيه وخصمه ويراقب المتألبين ويتعرف إلى المخلصين ويماشى الأحداث بيقظـــة ليتسرب إليه قليـــل أو كثير عن القادة أو عن حالة أى إنسان لأن المصطرع هائل والأفق مربد ينذر بيوم يحمل ويلاً وصَغاراً ، وإنه لما استشم ريح النكوص من أبى موسى – قبل ذلك بأيام – وإذ تحقق ذلك بنفسه قال له بكبرياء : (اعتزلنا لا أم لك ودع منبرنا) . . ثم نحّاه .

وكان الحسن يلجئ أباه إلى عزل الولاة وتعيينهم . بإشارته الرشيدة ، بل كان قبلة أنظار الناس يقصدونه فيُجيرهم عند والده ، ويعتذرون له فيقبل أعذارهم ، ويحاول لم شمل أصحاب أبيه . فمن ذلك أن الإمام عاتب سليمان ابن صرد الخزاعى وابنه على تخلفه عنه فى وقعة الجمل فحمل هذا فى نفسه شيئاً من الغيظ فاستلم الحسن إنهاء القضية لما قال له سليمان : (ألا أعجبك من أمر أمير المؤمنين ما لقيت من التوبيخ والتبكيت) فأجابه الحسن :

---

(١) الحسن بن على [للأستاذ كامل سليمان]

(إنما نعاتب من نرجو مودته ونُصحه) .

وقد كان الحسن يدفع بأبيه إلى السيوف دون أن ينسى موعظة نفسه ودون أن يدرأ عنها الخطر به ؛ إذ كان مع أخيه يبذلان النفس رخيصةً بين يدى المبدأ عندما رأيا المكروه يُحدق بأبيهما ، فراحا يستأذنانه ويرتميان فى المهالك غضباً لله وذبًّا عن الإمام وحزبه ، إلى أن ألجآه أن يقول لأصحابه : (املكوا عنى هذين الغلامين فإنى أنفس بهما عن القتل ، والله إنى لسخى بنفسى عن الدنيا طيب النفس بالموت ، ولقد هممت بالإقدام على القوم فنظرت إلى هذين قد ابتدرانى – يعنى الحسن والحسين – ونظرت إلى هذين قد استقدمانى – يعنى عبد الله بن جعفر ومحمد بن على – فعلمت أن هذين إن هلكا انقطع نسل رسول الله من هذه الأمة ، وكرهت ذا وأشفقت على هذين أن يهلكا) .

وإذ اجتاز أبوه الستين من عمره أوصاه وصية تعطينا صورة جلية عن مكان الحسن من قلب أبيه فقال :

من الوالد الفانى إلى المولود المؤمل .

إن ما تبينت من إدبار الدنيا ما يزعنى عن ذكر سواى ، غير أنى وجدتك بعضى بل وجدتك كلى حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابنى ، فعنانى من أمرك ما يعنينى من أمر نفسى .

أوصيك بتقوى الله ولزوم أمره وعمارة قلبك بذكره والاعتصام بحبله ، وأى سبب أوثق من سبب بينك وبين الله إن أنت أخذت به ، أحى قلبك

بالمواعظة وقوة اليقين ، ونوره بالحكمة ، وأعرض عليه أخبار الماضين ، وذكَره بما أصاب من كان قبلك من الأولين ، وسر فى ديارهم وآثارهم فانظر فى ما فعلوا وعما انقلبوا وأين حلوا ونزلوا ، ولا تبع آخرتك بدنياك وأمر بالمعروف تكن من أهله ، وأنكر المنكر بيدك ولسانك ، وجاهد فى الله حق جهاده .

ويقول الإمام على لابنه الحسن : رأيت أن يكون ذلك وأنت فى مقتبل العمر – ذو نية سليمة ونفس صافية – وأن أبدأك بتعلم كتاب الله – واعلم يا بنى أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ولعرفت أفعاله وصفاته .

ويقول الإمام : يا بنى اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك ، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك واكره ما تكره لها ، ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلم وأحسن كما تحب أن يحسن إليك ، واستقبح ما تستقبحه من غيرك وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك . إن أمامك طريقاً ذا مسافة بعيدة ومشقة شديدة ، المخفّ فيها أحسن حالا من المثقل والبطىء عليها أقبح حالا عن المسرع وإن مهبطك بها لا محالة إما على جنة وإما على نار .

واستمر الإمام على فى نصيحته لابنه فلم يترك قاعدة فيها إصلاح الفرد أو إصلاح المجموع إلا تبسط فيها لابنه ليجعل منه رجلا مطبوعاً على الخير الخالص ، يفكر بالآخرة دون أن ينسى نصيبه من الدنيا .

واستفاد الإمام الحسن من هذه الوصية وأصبحت دستوراً له دستور حق واسع الشمول واضح المعالم .

مع الشيخين

ينظر الحسن عليه السلام عقب وفاة جده صلى الله عليه وسلم إلى الحزن البهيم الذى حل بأمه الرءوم فيتصدع قلبه ويذرف من الدموع ما ساعدته الجفون ، أى حزن هذا الذى حل بابنة الرسول صلى الله عليه وسلم وريحانته ، حتى ضربوا بها المثل فى الحزن وعدوها من البكائين الخمسة الذين مثلوا الحزن والأسى فى عالم الوجود ، وبلغ من حزنها أن أنس بن مالك استأذن عليها ليعزيها بمصابها الجليل فقدمت له سؤالا مقروناً بالتفجع : كيف طابت نفوسكم أن تحثوا التراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعادتها أمهات المؤمنين مع بعض النسوة يسألنها عن حالها ويعزينها بمصابها فالتفتت لهن بقلب مكلوم قائلة : (أجدنى كارهة لدنياكن مسرورة بفراقكن ، ألقى الله ورسوله بحسرات منكن ، فما حفظ لى الحق ، ولا رعيت منى الذمة ، ولا قبلت الوصية ، ولا عرفت الحرمة) . وهكذا بقيت الزهراء بعد أبيها صلى الله عليه وسلم – وقد أضناها الحزن وهدها المصابُ وذاب قلبها أسى جحد القوم حقها وسلبهم تراثها .

وبقى الحسن عليه السلام معها فى تلك الفترة مصدوع الجسم خائر القوى ، قد ذبلت نضارة صباه ، لا يعرف فى نهاره إلا بيت الأحزان ، حيث يمضى مع أمه ليساعدها ويخفف عنها اللوعة والحسرة ويستمر معها

طيلة النهار ، فإذا أوشكت الشمس أن تغرب تقدمها مع أبيه وأخيه قافلين إلى الدار فيجد الوحشة والغمّ قد خيما عليها .

وفى اليوم الأخير من حياة الزهراء غسلت لولديها وأمرتهما بالخروج إلى زيارة قبر جدهما ، فخرجا عليهما السلام وهما يفكران فى الأمر هل أنهكت العلة أمهما ؟ ولم يلبثا كثيراً فى المسجد فرجعا قافلين إلى الدار ، فلما وصلا إليها قالا لأسماء – (أين أمنا ؟) فأجابتهما والارتباك والذهول باد عليها وهى تذرف الدموع ! يا سيدى إن أمكما قد انتقلت إلى حظيرة القدس فأخبرا أباكما بذلك فقد قلبهما بهذا النبأ المريع ورجعا إلى المسجد فاستقبلهما الناس قائلين لهما : ما يبكيكما يا بنى رسول الله لا أبكى الله لكما عيناً ، لعلكما نظرتما إلى موقف جدكما صلى الله عليه وسلم فبكيتما شوقاً إليه . فأجابا : أو ليس قد ماتت أمنا فاطمة . وسلبا شعور الناس وتركا الألم والندم يحز قلوبهم لأنهم فقدوا بضعة نبيهم وأعز أبنائه وبناته عنده .

ثم يصغى الحسن إلى مناجاة أبيه وهو يقول : « السلام عليك يا رسول الله عنى وعن ابنتك النازلة فى جوارك والسريعة اللحاق بك ، قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبرى ، ورق عنها تجلدى ، إلا أن لى فى التأسى بعظم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز ، فلقد وسدتك فى ملحودة قبرك ، وفاضت بين نحرى وصدرى نفسك ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، فلقد استرجعت الوديعة وأخذت الرهينة . أما حزنى فسرمد ، وأما ليلى فمسهد ، (الليل المسهد الذى ينقضى بالسهر) إلى أن يختار الله لى دارك التى أنت بها مقيم ، وستنبئك

ابنتك بتضافر أمتك على هضمها فأحفها السؤال ، (الإحفاء بالسؤال الاستقصاء فيه) واستخبرها الحال ، هذا ولم يطل العهد ولم يخل منه الذكر ، والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سئم ، فإن أنصرف فلا عن ملالة ، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين » .

يسمع الحسن هذه المناجاة الحزينة من أبيه فتلم به آلام مبرحة ، ويحف به حزن مرهق ، فقد رأى أعز ما فى الحياة عنده أمه الرءوم تحمل على الآلة الحدباء فتوارى فى الثرى فى غلس الليل البهيم .

وفى هذا يقول الأستاذ الفاضل كامل سليمان : (فإذا نظرنا إلى الحسن فى الفترة نجده بعد أن فقد جده وأمه تبدو على حركاته الصنعة والكلفة ؛ إذ يحس وهو بين ظهرانى هذا المجتمع الجديد أنه فى عالم غير العالم الذى ألفه فلا يجد نفسه فى المحل الذى عرّفه إليه جده فيتطلع إلى أفق أبعد . . يفكر كثيراً ويقدر كثيراً لأنه يرى أوضاعاً متقلبة وحروباً دائمة ، وإعداداً وتجهيزاً وأمة خاصمة مخصومة ، ويرى وسطاً لا عهد له به فيه إجلاب ما تعود سماعه ، فيجمع إحساساته المشتتة وتتحرك فى نفسه يقظة تختلف عن لا مبالاة الطفولة الهادئة ، ويبدأ بتفتيح عينيه مشرقاً ومغرباً شأن كل ناشئ تستتم مواهبه نموها ، فينفعل للمشاهد وتطفح نفسه بالمؤثرات التى تفيض عنها الحقيقة ، ها إنه ينظر فيكفهر الكون فى وجهه وتكتنفه وحشة بغيضة وجو غير محبب . إنه لا يرى جده الذى أفاض تعاليمه على الدنيا — ثم لا يرى أمه التى كان يركن إلى عطفها وإيناسها ، وإذ ذاك يتقلب بين قبر هذه فى البقيع وجدث

ذاك فى المسجد ليبكى قليلاً أو كثيراً وليسرى عن نفسه ويخفف من غلوائه .

فما حلت به أزمة من هذا النوع إلا كان يقصد البقيع أو المسجد وفى حسبانه أن شبحى محمد وفاطمة هما كل ما فى الكون .

وقد بينت بالتفصيل فى الجزء الثانى من كتاب أهل البيت كيف أن الإمام علياً كان يرشح نفسه للخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومما لا شك فيه أن ما استقر فى نفس الإمام على من الاستياء على أخذ حقه قد استقر فى نفس الحسن عليه السلام ، فجعله يؤنب وينتقد من احتل مركز أبيه ، فقد دخل الحسن المسجد وكان الصديق يخطب على المنبر فقال له :

– انزل عن منبر أبى واذهب إلى منبر أبيك .

– فأجابه أبو بكر – صدقت والله إنه لمنبر أبيك لا منبر أبى[1] .

على أن الإمام علياً لم يدخر وسعاً فى إبداء الرأى كلما احتاج إليه الخليفة ، وإذا حلت مشكلة لا يُتمكن من حلها رجعوا إلى الإمام على ليكشف لهم الستار عنها ، وكان يتولى أجوبة ذلك تارة بنفسه وأخرى يسند الحل إلى ولده الحسن ، فمن ذلك أن أعرابياً سأل الخليفة أبا بكر فقال : إنى أصبت بيض نعام فشويته وأكلته وأنا محرم فما يجب على ؟ فتحير الخليفة ولم ينطق جواباً ، وأحال الجواب إلى عمر فتحير كما تحير صاحبه ، وأحال

(١) شرح النهج لابن أبى الحد – وجاء فى الإصابة أن هذه الكلمة للحسين مع عمر بن الخطاب وفى الصواعق ص ١٠٥ أن الحسن قال لأبى بكر هذه الكلمة – ووقع للحسين – ذلك أيضاً مع عمر بن الخطاب .

الجواب إلى عبد الرحمن فعجز أيضاً وفزعوا إلى الإمام ، فوجه الأعرابى إليه السؤال السالف فالتفت إليه الإمام على قائلاً : سل أى الغلامين شئت وأشار إلى الحسن والحسين ، فتوجه الأعرابى إلى الحسن فسأله عن مسألته فقال له :

ألك إبل ؟

الأعرابى : نعم

فقال له الإمام الحسن : فاعمد إلى ما أكلت من البيض نوقاً فاضربهن فى الفحول فما ينتج منها اهده إلى بيت الله العتيق الذى حججت إليه ، فيلتفت إليه الإمام على قائلا : (إن من النوق السلوب وما يزلق)[١]

فأجابه الحسن : إن يكن من النوق السلوب وما يزلق فإن من البيض ما يمرق (مرقت البيضة أى فسدت) .

واستحسن الإمام على جواب وليده فالتفت إلى حضار مجلسه مشيداً بمواهب ولده ومعرباً عن غزارة علمه وفضله قائلا : « معاشر الناس إن الذى فهم هذا الغلام هو الذى فهمه سليمان بن داود » .

على أنه يمكن القول أن الخليفة الأول رضى الله عنه كان على يقين من فضل الحسن ، يعرف منزلته ويحدب عليه ويقلد جده فى الحنين إليه ، حتى إنه كان يخطب الناس ويحضهم على احترامه واحترام ذويه ويقول : أيها الناس ارقبوا محمداً فى أهل بيته ، واحفظوه فيهم فلا تؤذوهم .

---

(١) السلوب الناقة التى مات ولدها أو ألقته بغير تمام – والزلوق الناقة التى تلقى ولدها بغير تمام .

مكانة الإمام الحسن عند أمير المؤمنين عمر

فرض أمير المؤمنين عمر بن الخطاب للحسن والحسين عليهما السلام مثل فريضة أهل بدر وقدمهما على كثير من المهاجرين والأنصار تقديراً لهما ولقرابتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يلحق معهما برجال بدر فمن لم يشهد الواقعة إلا سلمان الفارسي وأبا ذر .

وقال أمير المؤمنين عمر لقومه من بني عدي : (والله ما أدركنا الفضل في الدنيا إلا بمحمد ، ولا نرجو ما نرجو من الآخرة وثوابها إلا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فهو شرفنا وقومه أشرف العرب ثم الأقرب فالأقرب) .

وعندما كسا أمير المؤمنين أصحاب النبي فلم يرتض في الكسوة ما يستصلحه لهما ، فبعث إلى اليمن فأتى لهما بحلل فاخرة ثم ما اطمأن باله ولا طابت نفسه إلا حين لبسا وخطرا أمامه .

وكيف لا يمتلئ صدره غبطة ولا يتيه جذلاً وهما ابنا رسول الله وهو يجلس للتوزيع بين قبره ومنبره ، في حين أن أبا حفص يعرف عنهما وعن سابقة الهاشميين مالا يسع الجاهل أن يرده أو ينكره ، فلم تمر سانحة إلا وصرح فيها بمعتقده ، ولا سنحت فرصة إلا وجهر فيها بما يكنه في نفسه نحوهما : فإنه عام الرفادة سنة سبع عشرة للهجرة عندما كرر الناس الاستسقاء وفشلوا قال لهم : لأستسقين غداً بمن يسقي الله به ، ولما أصبح غدا عند العباس وقال له : اخرج بنا حتى نستسقي بك ، فقال العباس يا عمر اقعد في بيتي ثم

أرسل إلى بنى هاشم أن يتطهروا ويلبسوا من صالح ثيابهم – فأتوه ، فأخرج طيباً فطيبهم ثم خرج العباس وعلى أمامه والحسن عن يمينه والحسين عن يساره وبنو هاشم خلف ظهره ودعا العباس الله فسقى بهم . .

فإن فى اعتزاز عمر بهم وفى تسليمه بفضلهم إنصاف واطمئنان وثقة غالية ، بل إنه الحق يذعن إليه ابن الخطاب قانعاً راضياً – وكأنى به ساعتئذ قد عرف خطرهم عند الله فمشى خلفهم موقناً لا يحتمل الفشل ، أمام معجزة استدرار الغيث لأنه واثق كل الثقة بنجاح المعجزة وبساطع برهانهم وعظيم قدرهم (١) .

وليس هذا آخر ما عنده من التلميح والتصريح ، فقد استاذن الحسن عليه مرة فلم يؤذن له ثم استأذن عبد الله ابنه فلم يؤذن له ، ومضى الحسن ومضى ابن عمر . . ولكن شيئاً داخل خاطر الحسن فاقتصد فى الكلام لمورده !

واستدعاه الخليفة فقال الحسن : لقد قلت يا أمير المؤمنين . إن لم يؤذن لعبد الله فلا يؤذن لى . . . وأنصت لكلمة الفصل تدور على لسان أبى حفص الذى قال : أنت أحق بالإذن منه ! وهل أنبت الشعر فى الرأس بعد الله إلا أنتم ؟

لقد كان أمير المؤمنين يؤثر الحسن ويأنس بحديثه إذا حضر ، وكان يستطلع أخباره إذا فارقه أو جافاه ، لأن مرتبة أبى محمد فى الأمة لم تعد خافية على أحد من سائر الناس فكيف بابن الخطاب الذى كان يقربه ويدنيه ويختصه من دون ولده ؟

لقد قسم السُّهمان يوماً فأعطاه وأعطى أخاه كل واحد منهما عشرة آلاف

---

(١) الحسن بن على (دراسة وتحليل) للأستاذ كامل سليمان

وأعطى ولده عبد الله ألف درهم ، فحنق عبد الله وعاتب أباه قائلا : (قد علمت سبقى فى الإسلام وهجرتى فكيف تفضل علىّ هذين الغلامين) .

وأعتقد أنه أقنع أباه وجاء بحجة لا يدحضها عدل أبيه وصلابته — بل لعله آمن بأنه قد استولى على مشاعره وحرك ناحية العاطفة والحساسية فيه ، ونسى بيان الأب الذى قال بغضب !! ويحك يا عبد الله ! ائتنى بجد مثل جدهما وأب مثل أبيهما وأم مثل أمهما ، وجدة مثل جدتهما وخال مثل خالهما وخالة مثل خالاتهما ، وعم مثل عمهما وعمة مثل عمتهما ؛ فجدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوهما على وأمهما فاطمة وجدتهما خديجة وخالهما إبراهيم وخالاتهما زينب ورقية وأم كلثوم ، وعمهما جعفر بن أبى طالب وعمتهما أم هانئ بنت أبى طالب ، وقد نسبهما وانتسب فما ساوى واحداً بواحد ، وأقنع ولده ببساطة ومنطق سيال ، وعرّفه بذينك الغلامين فطأطأ عبد الله الهام إذعاناً للحق واحتراماً لمقالة الوالد ، وأصبح بعدها وبفضلها — يعترف بحقهما ويذب عنهما حتى اتهم بمغالاته فى الهاشميين جميعاً . وكيف لا يكون عبد الله كذلك وقد أعطاه أبوه الأماثيل فى كل قول قاله بعلىّ أو كل حكم حكمه على رأى علىّ وكل مشورة استشار بها عليًّا !

ولأمير المؤمنين عذره فى إيثار الحسن — لأنه مضافاً إلى ما سمع يتطلع فيمن هم حوله فلا تقع عينه إلا على من يقول : سمعت رسول الله — أو حدثنى رسول الله — أو قال فلان قال رسول الله ، موصياً بالحسن وأخيه ومعلناً تنصيبهما سيدين محاطين بالتجلة والإكرام ، وإمامين قاما بالأمر أو قعدا عنه .

الحسن والخليفة الثالث

الحسن فى عهد عثمان شاب عمره ينيف على عشرين عاماً ، وهو دور يسمح لصاحبه أن يخوض معترك الحياة ، وبمعنى آخر شاب يقظ تجلله نورانية الإيمان بما هذب منه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصقل منه الإمام على رضى الله عنه وأرهفت منه فاطمة ، وبأن قد صار إنساناً باراً يندفع فى سبيل الله ، فدخل الحسن فى دوره هذا ميدان الجهاد ، فانضم إلى المجاهدين حيث اتجهت ألويتهم الفاتحة إلى احتلال أفريقيا ، فانخرط فى الجيش ويسير إلى المغرب فيدخل مع الفاتحين له ما لهم وعليه ما عليهم ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها اتجه الحسن إلى عاصمة جده صلى الله عليه وسلم والنصر حليفه وقلبه مفعم بالسرور والارتياح لتوسع النفوذ الإسلامى وانتشار دين جده العظيم .

على أن ما يعنينى أن أبرزه هو الخلاف على موقف الحسن رضى الله عنه فى المحنة التى اجتازها الخليفة الثالث عثمان رضى الله عنه والتى انتهت بقتله ، يقول عميد الأدب العربى المغفور له الدكتور طه حسين : (وكان الحسن رجل صدق قد كره الفرقة وآثر اجتماع الكلمة وخاض غمرات الفتنة على كُره منه فى أكبر الظن ، قاوم الفتنة ما وسعته مقاومتها أيام عثمان فلم يخض فيما خاض الناس فيه من حديثها ، ولم يشارك المعارضة حين عظم الشر ،

وكان من الذين أسرعوا إلى دار عثمان فقاموا دون الخليفة يريدون حمايته ، ولكن الخليفة قتل على الرغم من ذلك لأن خصمه تسوروا عليه الدار ولم يكن الحسن يرى أن يشترك أبوه فى شىء من أمر الفتنة من قرب أو من بعد ، وإنما أشار عليه أن يعتزل الناس وأن يترك المدينة فيقيم فى ماله بينبع ، فلم يسمع علىّ له وإنما رأى أن مكانه فى المدينة حيث يستطيع أن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر أو يصلح بين الناس ، فلما قتل عثمان لم ير الحسن لأبيه أن يقيم فى المدينة ولا أن يتعرض للبيعة ولا أن يقبلها وإن عُرضت عليه – ولو استطاع الحسن لاعتزل الفتنة اعتزالها كما فعلت تلك المعتزلة من أصحاب النبي ولكنه عرف لأبيه حقَّه عليه فأقام معه وشهد مشاهده كلها على غير حُب لذلك أو رغبة منه فيه ، ثم لم يكن الحسن يرى لأبيه أن يترك مُهاجَره فى المدينة وأن يرحل إلى العراق للقاء طلحة والزبير وعائشة ، وإنما كان يؤثر له أن يبقى فى مُهاجره مجاوراً النبي ويكره له أن يذهب إلى دار غربة ويتعرض للموت بمَضيعة ، وكان أبوه يعصيه فى كل ما كان يشير عليه من ذلك حتى بكى الحسن ذات يوم حين رأى ركاب أبيه تؤم العراق فقال له أبوه (إنك لتحن حنين الجارية) .

ولم يفارق الحسن حزنه على عثمان فكان عثمانيًّا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة إلا أنه لم يَسُل سيفاً للثأر بعثمان لأنه لم ير ذلك حقًّا له ، وربما غالى فى عثمانيته حتى قال لأبيه ذات يوم مالا يحب . فقد روى الرواة أن عليًّا مر بابنه الحسن وهو يتوضأ فقال له : (أسبغ الوضوء) فأجابه الحسن بهذه

الكلمة المُرة : (لقد قتلتم بالأمس رجلاً كان يُسبغ الوضوء) ، فلم يزد عليّ على أن قال : (لقد أطال الله حزنك على عثمان) .

أما الشيعة فيخالفون الدكتور طه حسين الرأى فيما قال (إن الحسن كان عثمانيًّا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة) ، ويرون أن الحسن كان من جملة الناقدين والناقمين على عثمان ، فقد رأى ما لاقاه حزب أبيه من التحطيم والتعذيب والإرهاب والاعتقال ويضربون بما لاقاه وما تعرض له أمثال عمار ابن ياسر وأبى ذر — فقد ضرب عمار بن ياسر وغشى عليه ، ومن رأى الشيعة أن الخليفة الثالث لم يرع حق عمار وهو فى طليعة أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى إيمانه بالله وحبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ضرب الرقم القياسى للعقيدة والإيمان . ويقولون إن الصحابى أبا ذر اندفع إلى نكران سياسة عثمان فأمر الخليفة الناس أن لا يجالسوا أبا ذر ولا يكلموه ، وقال له أبو ذر : (ويحك يا عثمان أما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيت أبا بكر وعمر — هل رأيت هذا هديهم ؟ إنك لتبطش بى بطش الجبارين) فقال له عثمان : (اخرج عنا من بلادنا) ، فقال له أبو ذر : ما أبغض جوارك إلى فإلى أين أخرج ؟ — قال حيث شئت ، قال فأخرج إلى الشام أرض الجهاد قال له : إنما جلبتك من الشام لأنك أفسدتها فكيف أردك إليها قال فأخرج إلى العراق ، قال لا ، وأخيراً أمره بالخروج إلى الربذة (بالقرب من المدينة) . وكان فى توديع أبى ذر الإمام على وعقيل وعبد الله ابن جعفر والحسن والحسين ، وألقى الحسن رضى الله عنه كلمة توديع قال

فيها : (ياعماه لولا أنه لا ينبغى للمودع أن يسكت وللمشيع أن ينصرف لقصر الكلام وإن طال الأسف ، وقد أتى من القوم إليك ما ترى ، فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها وشدة ما اشتد منها برجاء ما بعدها ، واصبر حتى تلقى نبيك وهو عنك راض) . ورد عليه أبو ذر قائلا : « رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة – إذا رأيتكم ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما لى بالمدينة سكن ولا شجن غيركم ، إنى ثقلت على عثمان بالحجاز كما ثقلت على معاوية بالشام وكره أن أجاور أخاه وابن خاله بالمصرين[١] فأفسد الناس عليهما فسيرنى إلى بلد ليس لى به ناصر ولا دافع إلا الله ، والله ما أريد إلا الله صاحباً وما أخشى مع الله وحشة » .

ويسوق الشيعة الكثير ليدللوا على ما لاقاه بعض الصحابة من العنت من جانب الخليفة الثالث وأن هذا لا يتفق مع قول عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين إن الإمام الحسن كان عثمانياً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . ويقولون إن الإمام الحسن كان من جملة الناقدين للخليفة لأنه رأى ما لاقاه حزب أبيه من التحطيم والتعذيب والإرهاب والاعتقال وشاهد ما لاقاه أبوه الإمام علىّ من الاستهانة بحقه .

ومرة أخرى لا يوافق الشيعة على ما رواه المسعودى من أنه لما اندلعت نيران الثورة عزم الثائرون على قتل الخليفة بعد ما حاصروه أمداً غير يسير .

---

(١) المصرين البصرة ومصر وكان والى البصرة عبد الله بن عامر ووالى مصر عبد الله بن سعد بن أبى السرح .

والذى رواه المسعودى كما جاء فى مروج الذهب أن الإمام عليًّا بعث الحسن والحسين للدفاع عن عثمان لما بلغه أن القوم قد عزموا على قتله . ويؤيد الدكتور طه حسين رواية المسعودى فيقول : (وقد اجتمع القادرون على القتال من بنى أمية وانضم إليهم شباب من أبناء المهاجرين فدخلوا الدار وقاموا يحمونها ويحمون عثمان من الثــائرين وكان فيهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ابنا على ومحمد بن طلحة . . .) .

ويدلل الشيعة على أن رواية المسعودى غير صحيحة إلى استبعاد انفصال الحسن وأبيه الإمام عن البقية الصالحة من المهاجرين والأنصار ، فإن التاريخ فى رأيهم لم يحدث أنهم ثاروا لعثمان أو خذلوا الثائرين عنه ، مع العلم أن مدة الحصار على رواية المسعودى تسعة وأربعون يوماً ، ولم تظهر من الصحابة طيلة تلك المدة بادرة من بوادر المساعدة والمؤازرة ولو كانوا غير راضين بالأمــر لماتمكن الثائرون من فعل أى شىء فإن عددهم لم يك خطيراً حتى لا يتمكنوا من القضاء عليهم . ويرى الشيعة أنهم كانوا يزيدون الثائرين حماساً ويمجدون نهضتهم ولا يختص ذلك بطائفة دون أخرى ، ويصلون فى النهاية إلى أن موقف الحسن للدفاع عن عثمان محل شك وريبة .

على أن الدكتور محمد الصادق فى كتابه (علىّ والحاكمون) يقول تحت عنوان (مقتل عثمان) : فلما جاءته وفود الأمصار تشكو إليه عماله واستبدادهم وركوبهم الأهواء راجين أن ينصفهم بعض الإنصاف الذى كان

بعهد الأولين فوعدهم خيراً فى ظاهر الأمر وبطن لهم حيلة القضاء على قادة الوفود ، فلما كانوا فى بعض الطريق إلى ديارهم ضبطوا كتاباً من مروان ابن الحكم يأمر به العمال بقتل زعماء الوفود ساعة يصلون ، فارتدوا حينذاك إلى المدينة وطلبوا من عثمان مشيره الأول هذا الكذاب الأشر ، طلبوا إليه أن يسلمهم مروان – فأبى وأصروا – وأصر ألا يجيب لهم طلباً ، واشتد سخطهم وزادت بهم النقمة حتى اضطر الخليفة إلى ملازمة داره أربعين يوماً ، وعلى بن أبى طالب يسعى طيلة هذه الأيام أن يحسم مادة الخلاف بطريقة صالحة يقرها المنطق الصحيح ، فقال له : (إن الناس ورائى) ذلك النصح البالغ السالف فلم ينفعه إلا عناداً وإصراراً . .

ثم قوى جانب الوفود الانقلابيين حتى انضم إليهم خلق كثير من العاصمة وغيرها ، وحاصروا قصر الخلافة بكل ضراوة وشراسة ، فلما تعاظم الخطر على من فى الدار تخلى عن الخليفة حتى أبناء عائلته الأمويين الذى كانوا هم السبب الرئيسى فيما صار إليه أمره وأمر المسلمين ، فآثروا أن يهربوا خفية إلى الشام حيث ينتظرهم نسيبهم معاوية عامل الخليفة عليها ، وبقى الحسنان على رأس القوم الذين يلازمون أبواب دار الخلافة لعلهم يمنعون عن الخليفة الأذى وسوء المصير حتى يخرج من مظالم الناس . .

وقد قيل إنه لما طال حصار الثوار لدار عثمان وساءت معاملتهم له فمنعوه من الخروج والصلاة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم وحالوا دون وصول الماء إليه ، أرسل عثمان إلى بعض أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وأمهات

المؤمنين يطلب إليهم أن يمدوه بحاجته من الماء ، فسارع الإمام على إلى تلبية رغبته وأقبل على الثوار ، وقيل إنه قال لهم : (إن الذى تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين ، لا تقطعوا عن هذا الرجل المادة فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقى وما تعرض لكم هذا الرجل فبم تستحلون حصره وقتله) .

وقيل إنه لما مات الخليفة لم يسمح الثوار فى بادئ الأمر بدفنه فظل ثلاثة أيام دون دفن ، وطلب بعض القرشيين من الإمام على أن يتوسط لدى الثوار ليسمحوا بمواراة جثمانه التراب فأذنوا بدفنه ، ولم يشهد جنازته سوى مروان بن الحكم وجبير بن مطعم وحكيم بن حزام وأبو جهم بن حذيفة العدوى ونيار بن مكرم وزوجتى عثمان .

وحاول الدهماء قذف جنازة عثمان بالحجارة فنهرهم الإمام على .

وحفظ الإمام الحسن رضى الله عنه وعمره أربع سنين الشيء الكثير مما سمعه من جده ومما قاله :

١ – علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولها فى الوتر : « اللهم اهدنى فيمن هديت وعافنى فيمن عافيت ، وتولنى فيمن توليت ، وبارك لى فيما أعطيت وقنى شر ما قضيت ، فإنك تقضى ولا يقضى عليك ، وإنه لا يذل من واليت تباركت ربنا وتعاليت » .

٢ – وروى عمير بن مأمون قال : سمعت الحسن بن على يقول : من

صلى صلاة الغداة فجلس فى مصلاه حتى تطلع الشمس كان له حجاب من النار أو قال : ستر من النار .

٣ – وسئل رضى الله عنه عما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : سمعته يقول لرجل « دع ما يريبك إلى مالا يريبك فإن الشر ريبة والخير طمأنينة » .

٤ – وقال له بعض أصحابه : ما تذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام : أخذت تمرة من تمر الصدقة ، فتركتها فى فمى فنزعها بلعابها ، فقيل يا رسول الله ، ما كان عليك من هذه التمرة ، قال إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة .

٥ – وعن خلق جده رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الإمام الحسن : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سأله أحد حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول .

٦ – عندما غضب سيدنا عثمان رضى الله عنه على أبى ذر ، ورأى إبعاده ، فأخرجه من المدينة ، وبادر الإمام الحسن إلى توديعه قائلا : « يا عماه لولا أنه ينبغى للمودع أن يسكت ، وللمشيع أن ينصرف لقصر الكلام ، وإن طال الأسف وقد أتى القوم إليك ما ترى فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها وشدة ما اشتد فيها برجاء ما بعدها ، واصبر حتى تلقى نبيك وهو عليك راض » .

وقد رد أبو ذر فقال : « رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة إذا رأيتكم

ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مالى بالمدينة سكن ولا شجن غيركم إنى ثقلت على عثمان بالحجاز كما ثقلت على معاوية بالشام وكره أن أجاور أخاه وابن خاله بالمصرين فأفسد الناس عليهما فسيرنى إلى بلد ليس لى به ناصر ولا دافع إلا الله ، والله ما أريد إلاّ الله صاحباً وما أخشى مع الله وحشة » .

زوجاته

عرف الإمام الحسن رضى الله عنه بحسن عشرته لأزواجه فكان يمسكهن بمعروف ويسرحهن بإحسان وكان الناس يرغبون فى مصاهرته . وروى أبوالفرج فى الأغانى بسنده عن عوف بن خارجة قال : « والله إنى لعند عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته إذ أقبل رجل يتخطى رقاب الناس حتى قام بين يدى عمر فحياه بتحية الخلافة .

فقال له عمر : من أنت ؟ قال : أنا امرؤ نصرانى ، أنا امرؤ القيس ابن عدى الكلبى . قال : فما تريد ؟ قال : أريد الإسلام . فعرضه عليه عمر رضى الله عنه ، فقبله ثم دعا له برمح فعقد له على من أسلم بالشام من قضاعة فأدبر الشيخ واللواء يهتز على رأسه .

قال عوف فوالله ما رأيت رجلا لم يصل لله ركعة قط أمر على جماعة المسلمين قبله ونهض على بن أبى طالب رضوان الله عليه من المجلس ، ومعه ابناه الحسن والحسين عليهم السلام حتى أدركه فأخذ بثيابه .

فقال له : « يا عم أنا على بن أبى طالب ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره ، وهذان ابناى الحسن والحسين من ابنته ، وقد رغبنا فى صهرك فأنكحنا فقال : قد أنكحتك يا على المحياة بنت امرئ القيس ، وأنكحتك يا حسن سلمى بنت امرئ القيس ، وأنكحتك يا حسين الرباب بنت امرئ القيس (أم السيدة سكينة) » .

وقال هشام الكلبى : كانت الرباب من خيار النساء وأفضلهن . وسنرى فى الفصل القادم أنها خطبت بعد قتل الإمام الحسين ، فقالت : « ما كنت لأتخذ حماً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقد تزوج خولة بنت منظور الفزارية ، وجعدة بنت الأشعث ، وأم كلثوم بنت الفضل بن العباس ، وأم إسحاق بنت طلحة ، وولدت منه ولداً سماه طلحة ، وأم بشير بنت أبى مسعود الأنصارى ولدت منه زيداً ، وهند بنت عبد الرحمن بن أبى بكر ، وحفصة ابنة عبد الرحمن ابن أبى بكر ، وغيرهن ومجموع ما تزوجه لم يتجاوز خمسة عشر ، وهو رقم لا يمت إلى الكثرة المزعومة بصلة ، ولا يمت إلى ما زعمه بعض المستشرقين من أن عدد زوجاته وصل إلى المائة ، ويعيب بعض قصار الإدراك كثرة زواجه وطلاقه مع أنى – كما بينت – أعتبر عدد مرات زواجه عادياً مثل الذى كان يحدث فى زمانه ، ولست أدرى من أين جاءت هذه الكثرة التى يتحدث عنها رجال التاريخ والمستشرقون كما سنرى بعد قليل وينسى هؤلاء جميعاً أن الزواج فى زمانهم كان يربط العصبيات ويزيد فى قوة

القبائل ، وكان تعدد الزواج أمراً مألوفاً بل مستحباً وهو فى بيت النبوة أكثر استحباباً ، وليس مع الحلال تهمة ، وما أحوج المجتمع لأئمة الهدى الذين يمشون بين الناس بنور الإيمان الذى يرقونه من عرقهم الطاهر المطهر ، وينمونه فى بيئتهم النقية الصالحة .

وصدق الإمام على كرم الله وجهه حينما قال فى السادة آل البيت الأطهار : « أين الذين زعموا أنهم الراسخون فى العلم دوننا كذباً وبغياً علينا ، أن رفعنا الله ووضعهم وأعطانا وحرمهم ، وأدخلنا وأخرجهم ، بنا يستعطى الهدى ويستجلى العمى » .

وصدق الفرزدق حين قال :

إن عــــد أهل التقى كانوا أئمتهم
أو قيل من خير أهل الأرض قيل هُمُ

وينتهز (لامنس) هذه الفرصة ليتحدى الإسلام ليلصق به التهم ويطعن فى رجاله ، وقد كتب فى بحثه عن أزواج الإمام : « ولما تجاوز (يعنى الإمام الحسن رضى الله عنه) الشباب وقد أنفق خير سنى شبابه فى الزواج والطلاق فأحصى له حوالى المائة زوجة وألصقت به هذه الأخلاق السائبة لقب المطلاق ، وأوقعت عليًّا فى خصومات عنيفة وأثبت الحسن كذلك أنه مبذر كثير السرف ، وقد خصص لكل من زوجاته مسكناً ذا خدم وحشم ، وهكذا نرى كيف يبعثر المال أيام خلافة علىّ التى اشتد فيها الفقر . . . »

وقد اعتمد لامنس فى قوله : « إن الإمام كان كثير الزواج والطلاق » على

أقوال المدائنى وأمثاله من المؤرخين الذين تابعوا السلطة الحاكمة فكتبوا لها لا للتاريخ .

وقد استقى المستشرقون الذين كادوا للإسلام فى بحوثهم من منهل المؤرخين الذين ساندوا تلك الدول الجائرة التى ناهضت أهل البيت وعملت على تشويه واقعهم والحط من كرامتهم ، وقد زاد عليه لامنس فذكر من الأكاذيب ما لم يقل به أحد غيره فقد قال :

١ — إنه ألقى أباه بسبب كثرة زواجه وطلاقه فى خصومات عنيفة ولم يشر أحد ممن ترجم الإمام إلى تلك الخصومات العنيفة التى زعمها لامنس .

٢ — وذكر أن الإمام خصص لكل من زوجاته مسكناً ذا خدم وحشم . وأن جميع المؤرخين لم ينقلوا ذلك ، وهو من الكذب السافر والافتراء المحض لقد كان زواج الإمام الحسن ليس الزواج الذى يختص به الرجل لمشاركة حياته ، وإنما كانت حوادث استدعتها ظروف شرعية محضة ، من شأنها أن يكثر فيها الزواج والطلاق معاً ، وذلك هو دليل سمتها الخاصة .

ونعود إلى زوجاته ، فأما « خولة بنت منظور الفزارية » فهى من سيدات النساء فى وفور عقلها وكمالها تزوج بها كما سأبين فيما بعد ، فقيل إنه ليلة اقترانه بها بات معها على سطح الدار فشدت خمارها برجله وشدت الطرف الآخر بخلخالها فلما استيقظ وجد ذلك فسألها عنه فقالت له معربة عن إخلاصها وحرصها على حياته : « خشيت أن تقوم من وسن النوم فتسقط فأكون أشأم سخلة على العرب » ، فلما رأى منها ذلك أحبها وأقام عندها

سبعة أيام ، وقد بقيت عنده حولا لم تتزين ولم تكتحل حتى رزقت منه السيد (الحسن) فتزينت فدخل عليها الإمام فرآها متزينة فقال لها « ما هذا » فقالت له : « خفت أن أتزين وأتصنع فتقول النساء تجملت فلم تر عنده شيئاً فأما وقد رزقت ولداً فلا أبالى » .

وبقيت عنده إلى أن توفى فجزعت عليه جزعاً شديداً ، فقال لها أبوها مسلياً :

نبئت خولة أمس قد جزعت من أن تنوب نوائب الدهر
لا تجزعى يا خول واصطبرى إن الكرام بنوا على الصبر

وذكرت السيدة زينب بنت علىّ العاملية فى ترجمة خولة ما حاصله أنها لما بلغت مبالغ النساء خطبها جملة من وجهاء قريش وأشرافهم ، فامتنع أبوها من إجابتهم لأنهم ليسوا بأكفاء لها ، ثم إنه طلق أمها (مليكة بنت خارجة) فتزوجها من بعده طلحة بن عبيد الله ، وتزوج ابنه محمد بخولة فولدت له إبراهيم وداود وأم القاسم ، وقتل زوجها محمد فى واقعة الجمل فخطبها جماعة من الناس فجعلت أمرها بيد الحسن فتزوجها .

ويروى أنه لما نزح الإمام إلى يثرب حملها معه ، فبلغ أباها ذلك فأقبل إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيده راية فركزها فى المسجد ، فلم يبق قيسى إلا وانضم تحتها وهو يهتف بقومه ويستنجد بهم على أخذ بنته من الإمام ، فلما بلغه رضى الله عنه ذلك خلى سراحها فأخذها وخرج ، فجعلت خولة تتوسل به على إرجاعها وتندد بعمله وتذكر له فضل الإمام ، فندم

على فعله وقال لها « البثى ها هنا فإن كان للرجل بك من حاجة سيلحق بك » ، فلحقه الإمام مع أخيه الحسين وعبد الله بن عباس ، فلما انتهوا إليه قابلهم بحفاوة وأرجعها إلى الإمام . وهذه القصة مشكوك فى صحتها .

أما « جعدة بنت الأشعث » فقد اختلف المؤرخون فى اسمها ، فقيل سكينة ، وقيل شعثاء ، وقيل عائشة ، والأصح أنها جعدة حسب ما ذكره أكثر المؤرخين وكما جاء فى مقاتل الطالبيين .

أما « عائشة الخثعمية » وقد تزوجها الإمام الحسن فى حياة والده ولما قتل علىّ أقبلت إلى الإمام الحسن فأظهرت الشماتة بوفاة أبيه .

فقالت له : « لتهنك الخلافة » .

ولما علم عليه السلام شماتتها قال لها : « ألقتل علىّ تظهرين الشماتة ، اذهبى فأنت طالق » فتلفعت بثيابها وقعدت حتى انقضت عدتها ، فبعث لها بقية صداقها وعشرة آلاف درهم صدقة لتستعين بها على أمورها ، فلما وصلت إليها ، قالت : « متاع قليل من حبيب مفارق » ولم يذكر التاريخ أن الإمام طلق زوجة سوى هذه وأم كلثوم وامرأة من بنى شيبان .

أما بقية زوجاته فقيل هم : أم كلثوم بنت الفضل بن عباس ، وفى الاستيعاب أن الأمام الحسن تزوجها ، ثم فارقها فتزوجها من بعده أبو موسى الأشعرى ، ثم أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله التميمى وقد ولدت منه ولداً أسماه طلحة ، وأم بشير بنت أبى مسعود الأنصارى وولدها زيد ، وهند بنت عبد الرحمن بن أبى بكر وامرأة من بنات عمرو بن أهيم المنقرى ،

وامرأة من ثقيف وولدها عمر ، وامرأة من بنات زارة ، وامرأة من بنى شيبان من آل همام بن مرة فقيل له إنها ترى رأى الخوارج فطلقها وقال : « إنى أكره أن أضم إلى نحرى جمرة من جمر جهنم »[١] وأم عبد الله ، وهى بنت الشليل بن عبد الله أخى جرير البجلى ، وأم القاسم .

وبذلك يكون مجموع ما تزوجه الإمام الحسن هذا العدد الذى ذكرناه وهو لا يمت إلى الكثرة المزعومة بصلة ، ولنا أن نسأل أين كثرة الزواج والطلاق التى طبل لها بعض المؤرخين .

وإذا كان هناك تعدد لزواجه فيجب الحكم على ذلك فى ظل الظروف التى كان يعيش فيها ، فإذا كان قد تزوج أكثر من مرة فإنه يقصد بهذا التعدد الإصهار إلى كثير من القبائل لأن الحاكم على حد تعبير ابن خلدون يستند إلى عصبية ، ولما كان بنو أمية لم ينتصروا ويتمكنوا فى الأرض إلا بما توافر لديهم من عصبية فقد أدرك الحسن بما قد يتعرض له ذووه وذريته من اضطهاد وتقتيل لا يحفظ منه سلالة الرسول من الاندثار والانقراض إلا تعدد الزواج وكثرة النسل[٢] .

أولاده

اختلف المؤرخون فى عدد أولاده اختلافاً كثيراً ، فقد روى أنهم اثنا عشر

---

(١) شرح ابن أبى الحديد .

(٢) نظرية الإمامة للدكتور أحمد محمود صبحى .

« ثمانية ذكور وأربع أناث » وقيل ستة عشر الذكور أحد عشر والإناث خمس ، وقيل غير ذلك وقد اتفق المؤرخون أنه لم يعقب أحد من أولاده سوى الحسن وزيد .

أما أعلام أولاده فهم :

١ – القاسم : وقد استشهد مع عمه سيد الشهداء فى واقعة كربلاء .

٢ – أبو بكر : واسمه عبد الله ، أمه أم ولد ويقال لها رملة ، برز يوم الطف يحامى عن دين الله ويذب عن ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستشهد فى تلك الواقعة .

٣ – عبد الله : استشهد مع عمه فى كارثة كربلاء ، وله من العمر إحدى عشرة سنة ، نظر إلى عمه الحسين وقد أحاطت به جيوش الأمويين ، فأقبل يشتد للدفاع عنه ، وسارع أبجر بن كعب بالسيف ليضرب الإمام الحسين ، فصاح به الغلام : « ويلك يا ابن الخبيثة أتضرب عمى » واتقى الغلام الضربة بيده ، ثم رماه حرملة بن كاهل بسهم فذبحه .

٤ – زيد : وقد كان كريم الطبع جليل القدر كثير الإحسان قصده الناس من جميع الآفاق لطلب بره ومعروفه ، وكان يلى صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما ولى سليمان بن عبد الملك عزله منها . ولما هلك واستخلف عمر بن عبد العزيز أرجعها إليه .

وقد مدحه محمد بن بشير الخارجى بقوله :

إذا نزل ابن المصطفى بطن تلعة نفى جدبها واخضرّ بالنبت عودها

وزيد ربيع الناس فى كل شتوة إذا أخلفت أنواؤها ورعودها
حمول لأشتات الديات كأنه سراج دجى قد فارقته سعودها

وكان يركب فيأتى سوق (الظهر) فيقف به فتزدحم الناس على النظر إليه ويعجبون من خلقه ، ويقولون يشبه جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفى وله من العمر تسعون سنة ورثاه جماعة من الشعراء منهم قدامة بن موسى الحجمى بقوله :

فإن يك زيد غالت الأرض شخصه فقد بات معروف هناك وجود
وإن يك أمسى رهن رمس فقد ثوى به وهو محمود الفعال فقيد
سميع إلى المضطر يعلم أنه سيطلبه المعروف ثم يعود
وليس بقوال وقد حط رحله لملتمس المعروف أين تريد
إذا قصر الوعد الذى قد نمى به إلى المجد آباء له وجدود
مناديل للمولى محاشيد للقِرى وفى الروع عند النائبات أسود
إذا مات منهم سيد قام سيد كريم فيبنى مجدهم ويشيد

٥ - الحسن : وقد حضر مع عمه الحسين عليه السلام فى واقعة كربلاء فقاتل معه حتى سقط جريحاً ثم أنقذ ورجع إلى المدينة وتزوج بابنة عمه (فاطمة بنت الحسين) .

وقيل توفى وعمره خمس وثلاثون سنة مسموماً وقد سقاه السم الوليد ابن عبد الملك .

أخلاقه

كان النبي صلى الله عليه وسلم فى عظم أخلاقه مثالا للرحمة الإلهية التى تملأ القلوب البائسة الحزينة رجاء ورحمة ، وكان يزور ضعفاء المسلمين ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم ويجيب دعوة من دعاه ولا يرد دعوة مملوك ولا فقير ، ومن جالسه صابره حتى يكون جليسه هو المنصرف وما أخذ أحد بيده فجذبها منه حتى يكون الآخذ هو الذى يرسلها ، وكان حريصاً على تطبيب النفوس واجتناب الإساءة لأى إنسان .

وكل هذه الأخلاق الرفيعة قد تمثلت فى الإمام الحسن بحكم ميراثه من جده العظيم صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر رجال التاريخ نوادر كثيرة من مكارم أخلاقه منها :

(ا) أنه مر على جماعة من الفقراء قد وضعوا على وجه الأرض كسيرات من الخبز كانوا قد التقطوها من الطريق ، وهم يأكلون منها فدعوه إلى مشاركتهم فأجابهم إلى ذلك وهو يقول : « إن الله لا يحب المتكبرين » ، ولما فرغ من تناول الطعام دعاهم إلى ضيافته فأطعمهم وكساهم وأغدق عليهم بنعمه وإحسانه .

وصفة التواضع هذه تدل على كمال النفس وسموها وشرفها ، وفى الحديث « إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله » .

(ب) ومن آيات أخلاقه أنه مر على صبية يتناولون الطعام فدعوه

لمشاركتهم فأجابهم إلى ذلك ثم حملهم إلى منزله فمنحهم ببره ومعروفه ، وقال : (اليد لهم لأنهم لم يجدوا غير ما أطعمونى ونحن نجد مما أعطيناهم) .

(جـ) ومن مكارم أخلاقه أنه كان يقابل الإساءة بالإحسان فقد كان عنده شاة فوجدها يوماً قد كسرت رجلها فقال عليه السلام لغلامه :

– من فعل هذا بها ؟

– أنا

– لم ذلك ؟

– لأجلب لك الهم والغم .

فتبسم عليه السلام وقال له : لأسرك ، فأعتقه وأجزل له فى العطاء .

(د) ومن عظيم أخلاقه أنه كان جالساً فى مكان فأراد الانصراف منه فجاءه فقير فرحب به ولاطفه وقال له :

– إنك جلست على حين قيام منا أفتأذن لى بالانصراف .

– نعم يابن رسول الله .

ويدل ذلك على أن مراعاة حق الجليس من الآداب الاجتماعية التى توجب المحبة والألفة وتوجد التعاون والترابط بين الناس ، فلذلك أمر الإسلام بها وحث عليها .

(هـ) واجتاز على الإمام شخص من أهل الشام ممن غذاهم معاوية بالكراهية والحقد على آل البيت ، فجعل يكيل للإمام السب والشتم والإمام ساكت لم يرد عليه شيئاً من مقالته ، وبعد فراغه التفت الإمام فخاطبه بناعم

القول وقابله ببسمات فياضة بالبشر قائلا :

« أيها الشيخ : أظنك غريباً ، لو سألتنا أعطيناك ، ولو استرشدتنا أرشدناك ولو استحملتنا حملناك ، وإن كنت جائعاً أطعمناك ، وإن كنت محتاجاً أغنيناك وإن كنت طريداً آويناك » .

وما زال عليه السلام يلاطف هذا الشامى ليقلع روح العداء والشر من نفسه حتى ذهل ، ولم يطق رد الكلام وبقى حائراً خجلا كيف يعتذر للإمام ، وكيف يمحو الذنب عنه ، وطفق يقول : « الله أعلم حيث يجعل رسالته فيمن يشاء » .

وهكذا كان الإمام الحسن رضى الله عنه مثالا للإنسانية الكريمة ورمزاً للخلق العظيم ، لا يثيره الغضب ولا يزعجه المكروه ، قد وضع نصب عينيه قوله تعالى : (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) .

وقد قابل جميع ما لاقاه من سوء أو أذى أو مكروه من الحاقدين عليه بالصبر والصفح الجميل ، حتى اعترف ألد خصومه مروان بن الحكم بسمو حلمه وعظيم خلقه ، وذلك حينما انتقل الإمام إلى الرفيق الأعلى ، فبادر مروان إلى حمل جثمانه .

فقال له سيد الشهداء : « تحمل اليوم سريره وقد كنت بالأمس تجرعه الغيظ » .

فقال : « إنى كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال » .

لقد كان الإمام كجده الرسول فى سعة حلمه وعظيم أخلاقه وصفحه عمن أساء إليه .

وقد روى التاريخ نوادر كثيرة من أخلاقه دلت على أنه فى طليعة الأخلاقيين والمساهمين فى بناء الأخلاق والآداب فى دنيا العرب والمسلمين .

جرأته

كان الإمام الحسن رضى الله عنه مع مسالمته يصون كرامته فى موقف الجد .

روى ابن أبى حديد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

دخل الحسن بن علىّ على معاوية بعد عام الجماعة وهو جالس فى مجلس ضيق فجلس عند رجليه ، فتحدث معاوية ما شاء أن يتحدث ، ثم قال : عجباً لعائشة تزعم أنى فى غير ما أنا أهله ، وأن الذى أصبحت فيه ليس لى بحق ، ومالها ولهذا ، يغفر الله لها ، إنما كان ينازعنى فى هذا الأمر أبو هذا الجالس ، وقد استأثر الله به .

فقال الحسن : أو عجب ذلك يا معاوية .

قال : أى والله.

قال : أفلا أخبرك بما هو أعجب من هذا ؟

قال : ما هو ؟

قال : جلوسك فى صدر المجلس وأنا عند رجليك .

فضحك معاوية وقال : يا ابن أخي بلغني أن عليك ديناً .

قال : إن لعليّ ديناً .

قال : كم هو ؟

قال : مائة ألف .

قال : قد أمرنا لك بثلثمائة ألف ، مائة منها لدينك ، ومائة تقسمها فى أهل بيتك ، ومائة لخاصة نفسك ، فقم مكرماً واقبض صلتك .

فلما خرج الحسن عليه السلام ، قال يزيد بن معاوية : تالله ما رأيت رجلا استقبلك بما استقبلك به ثم أمرت له بثلثمائة ألف .

قال : يا بنى إن الحق حقهم ، فمن أتاك منهم فاحث له .

وكذلك جابه معاوية بأشد مما تقدم ، حين قام معاوية خطيباً على المنبر ، فتهكم على أمير المؤمنين الإمام عليّ ، وقال : من عليّ ؟

فقال الإمام الحسن : إن الله لم يبعث نبيًّا إلا جعل له عدوًّا من المنافقين ، قال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًّا من المجرمين) ، وأنا ابن عليّ وأنت ابن صخر ، وأمك هند وأمى فاطمة ، وجدتك قتيلة وجدتى خديجة ، وجدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدك عتبة بن ربيعة فلعن الله ألأمنا حسباً وأخملنا ذكراً وأقدمنا كفراً وأشدنا نفاقاً .

فصاح أهل المسجد (آمين) .

قال الفضل : قال يحيى بن معين : (وأنا أقول آمين) .

فقطع معاوية كلامه وفر إلى منزله .

والظاهر أن جرأة الإمام الحسن هى صفة لازمته منذ الصغر فقد دخل المسجد النبوى فى طفولته ولم يكن قد بلغ يومئذ الثامنة من عمره ، فرأى أبا بكر الصديق رضى الله عنه يخطب على المنبر ، فهتف به : « ليس هذا منبر أبيك ، انزل عن منبر أبى » .

فابتسم الصديق رضى الله عنه ، وقال فى حنان : « يا ابن بنت رسول الله ، صدقت والله ، ما كان لأبى منبر ، وإنه لمنبر أبيك » .

كرمه وسخاؤه

عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خلقان يحبهما الله وهما حسن الخلق والسخاء » . وقال عليه الصلاة والسلام : « السخاء من الإيمان » . والسخاء ينم عن طيب القلب ، ويكشف عن الفضائل النفسية ، ويحكى عن رحمة الإنسان ورأفته ، ومن الطبيعى أنه إنما يكون كذلك فيما إذا كان بذله بداعى الخير والمعروف لا بداعى السمعة والمديح والثناء ، وغير ذلك من الدواعى التى لا تمت إلى الإحسان بصلة ، وقد حدث التاريخ عن أناس كانوا يهبون الألوف للوافدين ، ويبذلون القرى للأضياف ، ولكن سرعان ما انكشف أنه تصنع لا اتصال له بحقيقة الكرم والمعروف ، إن السخاء الحقيقى هو بذل الخير بداعى الخير ، وبذل الإحسان بداعى الإحسان ، وقـد تجلت هذه الصفة الرفيعة بأجلى مظاهرها وأسمى معانيها فى الإمام أبى

وقـد تجلت هـذه الصفة الرفيعة بأجلى مظاهرها وأسمى معانيها فى الإمام
أبى محمد عليه السلام ، حتى لقب بكريم أهل البيت .

وقد وصفه أبوه بالكرم والمسالمة ، فقد روى أبو جعفر محمد بن حبيب عن المسيب الفزارى قال :

« سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول : أنا أحدثكم عنى وعن أهل بيتى ، أما عبد الله ابن أخى (أى ابن جعفر زوج السيدة زينب) فصاحب لهو وسماح .

وأما الحسن فصاحب جفنة وخوان ، فتى من فتيان قريش ، ولو التقت حلقتا البطلان[١] لم يغن عنكم شيئاً فى الحرب . وأما أنا وحسين فنحن منكم وأنتم منا » .

وقد تلقى الإمام الحسن رضى الله عنه هذه المكرمة من سلفه الطاهر الذى عرف بالسخاء والمعروف ونجدة الضعيف والإحسان إلى كل منقطع ومحروم ، وفى جده الأعلى يقول القائل :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه　　　ورجـال مكة مسنتون عجاف

وكان الحسن لا يعرف للمال قيمة ولا يرى له أهمية سوى ما يرد به جوع جائع ، أويكسوبه عارياً ، أويغيث به ملهوفاً ، أويفى به دين غارم ، ومن كان ندىّ الكف مبسوط اليدين بالعطاء متمسكاً بأهداف السخاء بعيداً عن البخل وضروبه ، فأعظم به من خير عميم . قد كان السخاء عنصراً من عناصر ذات الحسن ومقوماً من مقومات مزاجه ، وقد أثر عنه أنه ما قال لسائل لا قط ، وقيل له :

---

(١) مثل يضرب للأمر إذا اشتد أو جاوز الحد .

– لأى شيء لا نراك ترد سائلا ؟

فأجاب : « إنى لله سائل ، وفيه راغب ، وأنا أستحى أن أكون سائلا وأرد سائلا ، وإن الله عودنى عادة أن يفيض نعمه علىَّ ، وعودته أن أفيض نعمه على الناس ، فأخشى إن قطعت العادة أن يمنعنى العادة » ، وأنشأ يقول :

إذا ما أتانى سائل قلت مرحباً ... بمن فضله فرض على معجل
ومن فضله فضل على كل فاضل ... وأفضل أيام الغنى حين يسأل

ويقول فى الجود والسخاء :

إن السخاء على العباد فريضة ... لله يقرأ فى كتاب محكم
وعدَ العباد الأسخياء جنانه ... وأعد للبخلاء نار جهنم
من كان لا تندى يداه بنائل ... للراغبين فليس ذاك بمسلم

وله أيضاً :

خلقت الخلائق من قدرة ... فنهم سخى ومنهم بخيل
فأما السخى ففى راحة ... وأما البخيل فحزن طويل

وكانت الوفود من المرتزقة والمحتاجين تزدحم عليه ، فيغدق عليهم ببره وإحسانه ويجزل لهم المزيد من العطاء ، وقد ذكر التاريخ نوادر كثيرة من كرمه وجوده ، منها :

١ – جاءه أعرابى سائلا ، فقال : « أعطوه ما فى الخزانة » ، وكان فيها عشرة آلاف درهم .

فقال له الأعرابى : يا سيدى هلا تركتنى أبوح بحاجتى وأنشر مدحتى ؟

فأجابه الإمام :

نحن أناس نوالنا خضل يرتع فيه الرجاء والأمل

تجود قبل السؤال أنفسنا خوفاً من ماء وجه من يسل

لو علم البحر فضل نائلنا لفاض من بعد فيضه خجل

٢ – واجتاز عليه السلام على غلام أسود بين يديه رغيف يأكل منه لقمة ويدفع لكلب كان عنده لقمة أخرى .

فقال له الإمام : ما حملك على ذلك ؟

– إنى لأستحى أن آكل ولا أطعمه .

رأى الإمام فيه خصلة من أحب الخصال عنده ، فأحب أن يجازيه على صنعه ويقابل إحسانه بإحسان ، فقال له :

– لا تبرح من مكانك . ثم انطلق فاشتراه من مولاه واشترى الحائط (البستان) الذى هو فيه فأعتقه وملكه إياه .

٣ – واجتاز يوماً فى بعض أزقة المدينة فسمع رجلا يسأل الله أن يرزقه عشرة آلاف درهم ، فانطلق إلى بيته وأرسلها إليه بالوقت .

٤ – وجاءه شخص يظهر العوز والحاجة فقال له :

ما هذا حق سؤالك ، يعظم لدى معرفتى بما يجب لك ويكبر على ويدىّ تعجز عن نيلك بما أنت أهله ، والكثير فى ذات الله قليل ، وما فى ملكى وفاء لشكرك فإن قبلت منا الميسور ، ورفعت عنا مؤنة الاحتفال والاهتمام فعلت

فأجابه الرجل : يا بن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أقبل القليل وأشكر العطية واعذر على المنع .

فأحضر رضى الله عنه وكيله وحاسبه وقال له : (هات الفاضل) وكان الفاضل خمسين ألف درهم فدفعها إليه ولم يكتف عليه السلام بذلك بل قال لوكيله : ما فعلت بالخمسمائة دينار التى عندك ؟ فقال له : هى عندى فأمره بإحضارها ثم دفعها إلى الرجل وهو يعتذر له .

إن قوله رضى الله عنه (الكثير فى ذات الله قليل) ينم عن أن هذا العطاء إنما هو فى سبيل الله تعالى لا يبتغى من أحد جزاء أو شكوراً .

٥ – ومن [1]مكارمه أنه خرج مع سيد الشهداء الإمام الحسين وابن عمهما عبد الله بن جعفر وافدين إلى بيت الله الحرام ، وفى أثناء الطريق أصابهم جوع وعطش وقد سبقتهم أثقالهم فانعطفوا على بيت قد ضرب أطنابه فى وسط تلك البيداء القاحلة ، فلما وصلوا إلى البيت لم يروا فيه إلا عجوزاً فطلبوا منها شراباً وطعاماً فأجابت بما طبعت عليه نفس الكريم قائلة : نعم . . إنها النفس إذا جبلت على الخير وطبعت فيها الأريحية قدمت فى سبيل العز والمجد كل ما تملك ، لم يك عند العجوز سوى شاة هى كل ما تملك مما أظلته الخضراء وأقلته الغبراء .

فتقدمت وبيدها الشاة قائلة لهم :

(دونكم هذه الشاة فاحلبوها واشربوا لبنها) .

---

(١) حياة الإمام الحسن بن على للأستاذ باقر شريف .

فلما فعلوا ذلك تقدمت إليهم مرة أخرى قائلة :

(أقسم عليكم إلا ما ذبحها أحدكم حتى أهيئ لكم الحطب لشيها)

ففعلوا ذلك وهيأت العجوز الحطب ، وبعد الفراغ من تناول الطعام عزموا على الرحيل فتقدموا إليها وعرفوها بشخصياتهم ليجازوها على صنعها خيراً إن رجعوا إلى وطنهم قائلين :

(يا أمة الله إنا نفر من قريش نريد حج بيت الله الحرام فإذا رجعنا سالمين فهلمى إلينا لنكافئك على هذا الصنيع الجميل) .

ثم انصرفوا لشأنهم ، ثم أقبل رب البيت فأخبرته العجوز بالقصة فاستولى عليه الغضب ذلك لأن الشاة هى مصدر القوت وإدرار الرزق عليهم .

فقال لها : (ويحك أتذبحين الشاه لأناس لا تعرفينهم ، ثم تقولين إنهم نفر من قريش) .

وسار الزمن فمضت سنة وأقبلت أخرى فصادفت البادية أزمة شديدة لأن السماء قد منعتها قطرها حتى قلت موارد العيش وانعدمت أسباب القوت ، فرحلا عن البادية ونزلا المدينة ولم يجدا عملا يحيطان به خبراً سوى التقاط البعر من الطرقات والشوارع ، فاتخذا ذلك مهنة لهما ، وفى يوم من الأيام وهما على عملهما أرادت السعادة أن تحنو عليهما فلمح الحسن العجوز فعرفها ، وقد حل وفاء الدين ، والمعروف فى ذمة الأحرار دين ، فأمر غلامه أن يأتى بها إليه ، فلما مثلت بين يديه قال الإمام الحسن لها : أتعرفينى يا أمة الله ؟

– لا

– أنا أحد ضيوفك يوم كذا سنة كذا .

– لست أعرفك .

– إن لم تعرفيني فأنا أعرفك .

ثم أمر غلامه فاشترى لها من غنم الصدقة ألف شاة وأعطاها ألف دينار ، ثم أمر غلامه أن يذهب بها إلى أخيه الحسين رضى الله عنه ويعرفه بها ، فأخذها الغلام فلما دخلت عرفها سيد الشهداء فقال للغلام :

– كم أعطاها أخى ؟

فأخبره الغلام بعطائه فوصلها عليه السلام بمثل ذلك ، ثم بعث بها إلى عبد الله بن جعفر فلما دخلت عليه عرفها ، فأمر لها بألفى شاة وألفى دينار ، فأخذت ذلك جميعاً وانصرفت وقد تغير حالها من فقر مدقع إلى غناء وثروة حسدها عليه كل من عرفها ، كل ذلك من بر الحسن وفضله .

٦ – واشترى عليه السلام بستاناً من الأنصار بأربعمائة ألف ، ثم بلغه بعد ذلك أنهم قد احتاجوا إلى ما فى أيدى الناس فرده إليهم ، وبذلك أنقذهم من ذل السؤال وهذا أفضل أنواع السخاء .

٧ – وحيته جارية بطاقة من ريحان فقال عليه السلام لها : (أنت حرة لوجه الله) فلامه أنس على ذلك : فأجابه أدبنا الله تعالى فقال : (إذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها) وكان أحسن منها إعتاقها .

٨ – وهناك قصة تروى عن مكارمه وتتلخص فى أن مروان بن الحكم قال : « إنى لمشغوف ببغلة الحسن بن على فمن يأتينى بها ؟ » .

فانبرى له ابن أبى عتيق قائلا :

– أنا آتيك بها لكن بشرط أن تقضى لى ثلاثين حاجة ؟

– ألتزم لك بذلك .

فقال ابن أبى عتيق لمروان : إذا اجتمع الناس عندك العشية فإنى آخذ فى مآثر قريش وأمسك عن الحسن فلمنى على ذلك .

فلما اجتمع الناس أخذ ابن أبى عتيق فى مآثر قريش وسكت عن ذكر فضائل الإمام الحسن .

فقال له مروان : ألا تذكر أولية أبى محمد وله فى هذا ما ليس لأحد منا .

فقال ابن أبى عتيق : إنما كنا فى ذكر الأشراف ولو كنا فى ذكر الأنبياء لذكرنا فضائل أبى محمد .

ولما خرج الإمام الحسن رضى الله عنه تبعه ابن أبى عتيق ، فلما نظر إليه الحسن عليه السلام تبسم وعرف الغاية من مديحه فقال رضى الله عنه له : ألك حاجة ؟ فقال نعم ذكرت البغلة ، فنزل عليه السلام ودفعها إليه .

٩ – وقصة أخرى تروى وملخصها أن فقيراً جاءه يشكو حاله ولم يكن عنده عليه السلام فى ذلك اليوم شيء فعز عليه الأمر واستحى من رده فقال رضى الله عنه له : إنى أدلك على شيء يحصل لك منه الخير ، فقال الفقير يابن رسول الله ما هو ؟

قال رضى الله عنه : اذهب إلى الخليفة فإن ابنته قد توفيت وانقطع عليها وما سمع من أحد تعزية بليغة فعزه بهذه الكلمات يحصل لك منه الخير .

قال : يابن رسول الله حفظنى أياها .

قال عليه السلام : قل له « الحمد لله الذى سترها بجلوسك على قبرها ولم يهتكها بجلوسها على قبرك » .

وحفظ الفقير هذه الكلمات وجاء إلى الخليفة فعزاه بها ، فذهب عنه حزنه وأمر له بجائزة .

وقال له : أكلامك هذا ؟

– لا ، وإنما كلام الإمام الحسن .

فقال الخليفة : صدقت فإن معدن الكلام الكلام الفصيح وأمر له بجائزة أخرى .

زهده

رفض الإمام جميع مباهج الحياة وزهد فى ملاذها ونعيمها ، واتجه إلى الدار الآخرة التى أعدها الله للمتقين من عباده وقال عليه السلام : « من عرف الله أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل إذا تفكر حزن ، وقد ترك الملك والدنيا رغبة فيما عند الله » .

وقد تحدث رضى الله عنه عن عزوفه عن الدنيا واقتناعه بالقليل منها بقوله :

لكسرة من خسيس الخبز تشبعنى   وشربة من قراح الماء تكفينى
وطرة من دقيق الثوب تسترنى   حيًّا وإن مت تكفينى لتكفينى

ويقول أيضاً :

قدم لنفسك ما استطعت من التقى إن المنيــة نازلة بك يا فتى
أصبحت ذا فرح كأنك لا ترى أحباب قلبك فى المقابر والبــلى

وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت :

يا أهـل لذات الدنيـا لا بقاء لها إن اغـــتراراً بظـل زائل حمق

ويقول فى ذم المغرور فى الدنيا والمفتون بحبها :

قل للمقـــــيم بغـير دار إقامة حان الرحيـــل فودع الأحبابا
إن الذين لقيتهـــم وصحبتهم صـــاروا جميعاً فى القبور ترابا

تقواه وورعه

كان الإمام الحسن إذا دخل المسجد رفع صوته قائلا :

(إلهى ضيفك ببابك يا محسن قد أتاك المسىء فتجاوز عن قبيح ما عندى بجميل ما عندك يا كريم) .

وإذا شرع فى الصلاة بدا عليه الخوف والخضوع والخشوع حتى ترتعد جميع فرائصه ، ومن مظاهر عبادته وخوفه من الله أنه إذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم ، فسأل الله الجنة وتعوذ من النار ، وإذا ذكر الموت وما يعقبه من بعث ونشور بكى بكاء الخائفين والمنيبين . وإذا ذكر العرض على الله شهق شهقة يغشى عليه منها ، وإذا حضر جنازة ظهرت عليه السكينة أياماً ، وإذا مات فى جواره ميت سمع منه النحيب والبكاء كما

يسمع من دار الميت .

وأما تلاوته للذكر الحكيم فكان يتلو آياته المحكمة بإمعان وتدبر فكان لا يمر بآية تشتمل على نداء المؤمنين إلا قال : لبيك اللهم لبيك .

ومن مظاهر عبادته أنه كان يقرأ كل ليلة سورة الكهف وإذا فرغ من صلاة الفجر لا يتكلم إلا بذكر الله حتى تطلع الشمس .

وروى ابن قتيبة أن رجلا أتى الحسن بن على يسأله فقال الحسن إن المسألة لا تصلح إلا فى غُرم فادح أو فقر مدقع أو حَمَالة مُفظَّعة . فقال الرجل ما جئت إلا فى إحداهن — فأمر له بمائة دينار ثم أتى الرجل الحسين ابن على فسأله فقال له مثل ما قاله أخوه فرد عليه كما رد على الحسن فقال كم أعطاك — قال مائة دينار فنقصه ديناراً كره أن يساوى أخاه ، ثم أتى الرجل عبد الله بن عمر فسأله فأعطاه سبعة دنانير ولم يسأله عن شيء فقال له الرجل إنى أتيت الحسن والحسين واقتصّ كلامهما عليه وفعلهما به ، فقال عبد الله ويحك : وإنى تجعلنى مثلهما إنهما غُرّا العلم غُرَّا المال .

ومما يدل على عظيم زهده أنه زهد فى الملك خوفاً من دماء المسلمين وطلباً لمرضاة الله ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال : « إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين عظيمتين » ، كما سيأتى ذلك تفصيلا بعد قليل ، وقد قال : والله ما أحببت منذ علمت ما ينفعنى ويضرنى أن ألى أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم على أن يهراق فى ذلك محجمة دم ، وذلك هو الزهد بعينه . قد بينت ذلك سابقاً .

هيبته ووقاره

الإمام الحسن سيد فى حداثته وعظيم منذ صغره يلحق به أبو هريرة ويقول له : السلام عليك يا سيدى لأنه سيده رغم التفاوت بينهما فى السن بدليل أنه يقسم دون أن يخاف معرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الحسن سيد . .

إن شخصية الحسن كانت تملأ العيون وتهيمن على النفوس لأنه قد التفت به عناصر الإمامة وتمثلت فيه هيبة النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى لقد كان معاوية وهو سلطانه يهابه ويخشاه . ولقد صار للحسن هيبة واحترام يضطران ابن عباس على جلاله وصحبته أن يأخذ له الركاب إذا ركب ويرى ذلك فرصة سعيدة يتبرك بها هو وأرفع الصحابة كعباً وأدناهم من جده منزلة لأنه يتمتع منذ طفولته الرشيدة بفطنة حادة وحمية مهذبة متزنة تميزه أشياء لاتتوافر فى غير ربيب النبى بل تفرض على محمد بن إسحاق أن يقول (ما تكلم عندى أحد كان أحب إلىّ إذا تكلم ألا يسكت من الحسن بن على وما سمعت منه كلمة فحش قط . .)

وقد بلغ من عظيم هيبته أنه كان يفرش له على باب البيت فإذا خرج وجلس انقطع الطريق ، لأنه لا يمر أحد إلا جلس إجلالا وإكباراً له فإذا علم ذلك قام ودخل البيت .

ومن عظيم هيبته وسمو مكانته فى نفوس المسلمين أنه ما اجتاز مع أخيه

على ركب فى حال سفرهما إلى بيت الله الحرام ماشيين إلا ترجل ذلك الركب تعظيماً وإكباراً لهما ، حتى ثقل المشى على جماهير الحجاج فكلموا سعد بن أبي وقاص فى ذلك فبادر إلى الإمام وقال له : « يا أبا محمد ، إن المشى قد ثقل على الحجاج لأنهم إذا رأوكما لم تطب نفوسهم بالركوب فلو ركبتما رحمة لهم » .

فأجابه الإمام بما ينم عن نفس قد عاهدَتِ الله أن تبذل فى مرضاته كل غال ونفيس قائلا :

« لا نركب فقد عاهدنا الله أن نؤم بيته ماشين ، ولكن نتنكب الطريق » كما جاء ذلك فى المناقب .

وسار عليه السلام فى بعض طرق يثرب ، وقد لبس حلة فاخرة وركب بغلة فارهة ووجهه الشريف يشرق حسناً وجمالا ، وقد حفت به خدمه وحاشيته فرآه بعض اليهود فبادر إليه أحدهم وقال له :

– يابن رسول الله عندى سؤال ؟

– ما هو ؟

– إن جدك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » فأنت المؤمن وأنا الكافر وما الدنيا إلا جنة لك تنعم فيها وتستلذ بها وأنت مؤمن ، وما أراها إلا سجناً قد أهلكنى حرها وأجهدنى فقرها ؟

– لو نظرت إلى ما أعد الله لى وللمؤمنين فى الدار الآخرة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لعلمت أنى قبل انتقالى إليها وأنا فى هذه

الحالة فى سجن ، ولو نظرت إلى ما أعد الله لك ولكل كافر فى دار الآخرة من سعير نار جهنم ، ونكال العذاب الأليم المقيم لرأيت قبل مصيرك إليه أنك فى جنة واسعة ونعمة جامعة[١]، وتركه الإمام واليهودى يتميز من الغيظ والحقد .

ورأى هيبة الإمام ووقاره بعض الأغبياء من الحاقدين عليه ، فقال له : « إن فيك عظمة » .

فأجابه الإمام : إن فىَّ عزة ، ثم تلا قوله تعالى : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) . كما جاء فى المناقب .

إن الحسن كان يحكى جــده الرسول صلى الله عليه وسلم فى هيبته وسؤدده .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « أما الحسن فإن له هيبتى وسؤددى ، وأما الحسين فإنه له جرأتى وجودى » .

وكل هذا يفسر لنا ما قاله ابن عباس رضى الله عنهما حين مات الإمام الحسن : « أول ذل دخل على العرب موت الحسن عليه السلام » وأنت تدرك من كلمة ابن عباس هذه أى مكانة كانت للإمام الحسن فى المجتمع وأى فراغ كان يملؤه فى الناس .

---

(١) الفصول المهمة .

علمه وفصاحته وبلاغته :

أسلفت القول بأن الإمام الحسن رضى الله عنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث حفظها عنه ويؤيد ذلك ما جاء فى كتاب الإصابة لابن حجر ، وقد وعى حديث الرسول مع أنه كان دون الثامنة والحقيقة أن للبيئة التى نشأ فيها دخلا عظيماً فى تعليمه ، فبعد جده تولى الإمام على كرم الله وجهه تربيته وثقافته العلمية .

وقد نشأ على بن أبى طالب فىالإسلام منذ طفولته وتربى فى حجر النبي صلى الله عليه وسلم ، وغرف علمه من بحر النبوة الأصفى حتى امتلأ وصار كما قال الإمام الحسن البصرى ربانى هذه الأمة .

وكان يتحدث بنعمة ربه فيقول : « أيها الناس سلونى قبل أن تفقدونى فوالله ما من آية فى كتاب الله عز وجل إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار ، أم فى سهل أم فى جبل » لذلك كان علم الإمام الحسن موروثاً بحق ومغروفاً من المنبع الأصفى فكان علماً خالصاً ، حرص عليه ونفع به ، وقدره قدره حتى روى عنه أنه كان يقول لبنيه وبنى أخيه الإمام الحسين : « تعلموا العلم فإن لم تستطيعوا حفظه فاكتبوه وضعوه فى بيوتكم » . وفى تفسير كتاب الله تعالى سئل ذات يوم عن تفسير قوله تعالى فى سورة (البروج) (وشاهد ومشهود) فأجاب بقوله أما الشاهد فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك قوله تعالى : (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً

منيراً) . وأما (المشهود) فهو يوم القيامة وذلك فى قوله تعالى : (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) – وما إن سمع منه السائل هذا التفسير المؤيد بكتاب الله حتى احتضنه واثنى عليه قائلا : أشهد أنك من بيت النبـوة .

أما بلاغته : فقد كان من أروع البلغاء فى إصابته للمناسبات ، ومن أقدرهم على الإيجاز والإعجاز والإبداع فى الكلام ، فقد سئل عن مكارم الأخلاق . فقال : مكارم الأخلاق عشرة : صدق اللسان ، والتـذمم [١] على الجار ، وصدق البأس ، وإعطاء السائل ، وحسن الخلق ، والمكافأة بالصنائع ، وصلة الرحم ، ومعرفة الحق للصاحب ، وقرى الضيف ورأسهن الحياء .

وقال فى فضل القرآن :

إن هذا القرآن فيه مصابيح النور ، وشفاء الصدور فليجل جال بضوئه وليلجم الصفة قلبه فإن التفكير حياة القلب البصير كما يمشى المستنير فى الظلمات بالنور .

وقال فى الدعاء :

– ما فتح الله عز وجل على أحد باب مسألة فخزن[٢] عنه باب الإجابة ، ولا فتح على رجل باب عمل فخزن عنه باب القبول ، ولا فتح لعبد باب شكر فخزن عنه باب المزيد .

---

(١) التذمم : مأخوذ من أذمه أى أجاره وأخذه تحت حمايته .

(٢) خزن : أغلق وسد .

وقال فى السياسة :

– هى أن نرعى حقوق الله وحقوق الأحياء وحقوق الأموات ، فأما حقوق الله ، فأداء ما طلب والاجتناب عما نهى ، وأما حقوق الأحياء فهى أن تقوم بواجبك نحو إخوانك ولا تتأخر عن خدمة أمتك ، وأن تخلص لولى الأمر ما أخلص لأمته ، وأن ترفع عقيرتك فى وجهه إذا ما حاد عن الطريق السوى ، وأما حقوق الأموات فهى أن تذكر خيراتهم وتتغاضى عن مساوئهم فإن لهم رباً يحاسبهم .

وقال له معاوية : ما يجب لنا فى سلطاننا ؟

الإمام : ما قال سليمان بن داود .

معاوية : وما قال سليمان ؟

الإمام : إنه قال لبعض أصحابه : أتدرى ما يجب على الملك فى ملكه وما لا يضره إذا أدى الذى عليه منه ، إذا خاف الله فى السر والعلانية وعدل فى الغضب والرضا وقصد فى الفقر والغنى ، ولم يأخذ الأموال غضباً ، ولم يأكلها إسرافاً وتبذيراً ، ولم يضره ما تمتع به من دنياه إذا كان من خلته .

وقال فى الصديق والصاحب :

– ألا أخبركم عن صديق كان لى من أعظم الناس فى عينى ، وكان رأس ما عظم به فى عينى صغر الدنيا فى عينه ، كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يتشهى ما لا يحل ، ولا يكتنز إذا وجد ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يمد يداً إلا على ثقة لمنفعة ، كان لا يتشكى ولا يتبرم ، كان أكثر دهره

صامتاً فإذا قال بذ (أى تفوق وغلب) القائلين ، كان ضعيفاً مستضعفاً ، فإذا جاء الجد فهو الليث عادياً ، كان – إذا جامع العلماء – على أن يسمع أحرص منه على أن يقول ، كان إذا غلب على الكلام لم يغلب على السكوت ، كان لا يقول ما يفعل ويفعل ما لا يقول ، كان إذا عرض له أمران لا يدرى أيهما أقرب إلى الحق نظر أقربهما من هواه فخالفه ، كان لا يلوم أحداً على ما قد يقع العذر فى مثله ، كان لا يقول حتى يرى قاضياً عدلا وشهوداً عدولا .

المروءة والكرم والنجدة والحزم

التفت معاوية يوماً إلى الإمام الحسن ، وقال له : يا أبا محمد أربع خلال لم أجد من يجيبنى عنها :

– ما هى ؟

– المروءة والكرم والنجدة والحزم .

– أما المروءة فإصلاح الرجل أمر دينه وحسن قيامه على ماله وإفشاء السلام والتحبب إلى الناس . وقال أيضاً : المروءة شح الرجل على دينه وإصلاحه ماله وقيامه بالحقوق .

– الكرم : العطية قبل السؤال ، والتبرع بالمعروف والإطعام فى المحل .

– النجدة : الذب عن الجار والصبر عند الشدائد .

– الحزم : طول الأناة والاحتراس من جميع الناس .

الكنز والحرص والحسد :

قال الإمام الحسن عليه السلام :
هلاك الناس فى ثلاث : الكبر والحرص والحسد .
- والكبر به هلاك الدين وبه لعن إبليس .
- والحرص عدو النفس وبه أخرج آدم من الجنة .
- والحسد رائد السوء وبه قتل هابيل قابيل[١] .

التحريض على طلب العلم :

قال الإمام الحسن لبنيه : تعلموا العلم فإنكم صغار القوم اليوم وكبارهم غداً ، ومن لم يحفظ منكم فليكتب .

وقال : علم الناس وتعلم علم غيرك ، فتكون قد أتقنت علمك وعلمت ما لم تعلم .

وقال : حسن السؤال نصف العلم[٢] .

فضل القرآن الكريم :

يقول الإمام الحسن : إن القرآن فيه مصابيح النور وشفاء الصدور فليجل جال بضوئه وليلجم الصفة قلبه ، فإن التفكير حياة القلب البصير كما يمشى المستنير فى الظلمات بالنور[٣] .

(١ ، ٢) نور الأبصار .   (٣) كشف الغمة .

السخاء والمعروف :

وكان عليه السلام يطوف فى بيت الله الحرام ، فسأله رجل عن معنى الجواد ؟

فقال له : إن لكلامك وجهين ، فإن كنت تسأل عن المخلوق فإن الجواد الذى يؤدى ما افترض عليه ، والبخيل الذى يبخل بما افترض عليه ، وإن كنت تسأل عن الخالق فهو الجواد إن أعطى وهو الجواد إن منع لأنه إن أعطى عبداً أعطاه ما ليس له ، وإن منع منع ما ليس له .

وقال عليه السلام : المعروف ما لم يتقدمه مطل ولا يتبعه منّ ، والإعطاء قبل السؤال من أكبر السؤدد .

فى القضاء والقدر :

وكتب الحسن البصرى إلى الإمام الحسن بن على رضى الله عنهما ، يسأله عن القضاء والقدر ، فكتب الإمام الحسن بن علىّ يقول :

« من لم يؤمن بقضاء الله وقدره ، خيره وشره ، فقد كفر ، ومن حمل ذنبه ربه فقد فجر وإن الله تعالى لا يطاع استكراهاً ولا يعصى بغلبة ، لأنه تعالى مالك لما ملكهم ، وقادر على ما أقدرهم ، فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما عملوا ، فإن لم يفعلوا فليس هو الذى أجبرهم على ذلك ، ولو أجبر الخلق على الطاعة لأسقط عنهم العقاب ، ولو أهملهم فإن ذلك عجز

فى القدرة ، ولكن الله له فيهم المشيئة التى غيبها عنهم ، فإن عملوا بالطاعة فله المنة عليهم ، وإن عملوا بالمعصية فله الحجة عليهم » .

تقوى الله :

قال عليه السلام : « إن الله لم يخلقكم عبثاً وليس بتارككم سدى ، كتب آجالكم وقسم بينكم معائشكم ليعرف كل ذى منزلة منزلته وأن ما قدر له أصابه ، وما صرف عنه فلن يصيبه ، قد كفاكم مؤنة الدنيا وفرغكم لعبادته وحثكم على الشكر وافترض عليكم وأوصاكم بالتقوى ، وجعل التقوى منتهى رضاه والتقوى باب كل توبة ورأس كل حكمة ، وشرف كل عمل بالتقوى ، فاز من فاز من المتقين ، قال الله تبارك وتعالى : (إن للمتقين مفازاً) . وقال : (ويُنجّى اللهُ الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسّهم السوءُ ولا هم يحزنون) . فاتقوا الله عباد الله واعلموا أن من يتق الله يجعل له مخرجاً من الفتن ، ويسدده فى أمره ويهيئ له رشده ويفلجه بحجته ، ويبيض وجهه ويعطيه رغبته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » .

وقال عليه السلام :

يا ابن آدم عف عن محارم الله تكن عابداً ، وارض بما قسم الله تكن غنيًّا ، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً ، وصاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به تكن عادلا ، إنه كان بين أيديكم قوم يجمعون كثيراً ويبنون مشيداً ويأملون بعيداً ، أصبح جمعهم بوراً وعملهم غروراً ومساكنهم قبوراً ،

يا ابن آدم إنك لم تزل فى هدم عمرك مذ سقطت من بطن أمك ، فجد بما فى يديك فإن المؤمن يتزود والكافر يتمتع ، وكان يتلو عقب كلامه هذا قوله تعالى : (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) .

ومر عليه السلام على قوم يلعبون ويضحكون فى يوم عيد الفطر فوقف عليه السلام والتفت إليهم قائلا :

إن الله جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته فسبق قوم ففازوا ، وقصر آخرون فخابوا ، فالعجب كل العجب من ضاحك لاعب فى اليوم الذى يثاب فيه المحسنون ويخسر فيه المبطلون ، وأيم الله لو كشف الغطاء لعلموا أن المحسن مشغول بإحسانه والمسيء مشغول بإساءته ثم تركهم عليه السلام وانصرف .

وفى المساجد يقول عليه السلام من أدام الاختلاف إلى المسجد أصاب ثمان خصال :

آية محكمة ، وأخاً مستفاداً ، وعلماً مستطرفاً ، ورحمة منتظرة ، وكلمة تدل على هدى أو تردعه عن ردى ، وترك الذنوب حياء أو خشية .

الآداب الاجتماعية :

وجه الإمام على إلى الحسن أسئلة هى البرنامج الصحيح للأخلاق والفضائل فأجاب الحسن بما هو عفو الخاطر فكان الجواب آية من آيات البلاغة والإعجاز : .

الإمام على : يا بنى ما السداد — الحسن : يا أبت السداد دفع المنكر بالمعروف.
« « : ما الشرف ؟ — « : اصطناع العشيرة وحمل الجريرة .
« « : ما المروءة ؟ — « : العفاف وإصلاح المرء ماله .
« « : ما الدنيئة ؟ — « : النظر فى اليسير ومنع الحقير
« « : ما اللؤم ؟ — « : احتراز المرء نفسه وبذله عرشه .
« « : ما السماحة ؟ — « : البذل فى العسر واليسر .
« « : ما الشح ؟ — « : أن ترى ما فى يديك شرفاً وما أنفقته تلفاً .
« « : ما الإخاء ؟ — « : الوفاء فى الشدة والرخاء .
« « : ما الجبن ؟ — « : الجرأة على الصديق والنكول عن العدو .
« « : ما الغنيمة ؟ — « : الرغبة فى التقوى والزهادة فى الدنيا
« « : ما الحلم ؟ — « : كظم الغيظ وملك النفس .
. « : ما الغنى ؟ — « : رضى النفس بما قسم الله وإن قل فإنما الغنى غنى النفس
« « : ما الفقر ؟ — « : شره النفس فى كل شىء .
« « : ما المنعة ؟ — « : شدة البأس ومقارعة أشد الناس .
« « : ما الذل ؟ — « : الفزع عند المصدوقية
« « : ما الجرأة ؟ — « : موافقة الأقران .

الإمام على : ما الكلفة ؟	— الحسن :	كلامك فيما لا يعنيك .
« « : ما المجد ؟	— « :	أن تعطى فى الغرم وأن تعفو عن الجرم .
« « : ما العقل ؟	— « :	حفظ القلب كل ما استرعيته .
« « : ما الحزق ؟	— « :	معاداتك إمامك ورفعك عليه كلامك .
« « : ما الثناء ؟	— « :	إتيان الجميل وترك القبيح .
« « : ما الحزم ؟	— « :	طول الأناة والرفق بالـــولاة والاحتراس من الناس بسوء الظن هو الحزم .
« « : ما الشرف ؟	— « :	موافقه الإخوان .
« « : ما السفه ؟	— « :	اتباع الدناة ومصاحبة الغواة
« « : ما الغفلة ؟	— « :	تركك المسجد وطاعتك المفسد .
« « : ما الحرمان ؟	— « :	تركك حظك وقد عرض عليك .
« « : ما السيد ؟	— « :	الأحمق فى ماله المتهاون فى عرضه ، يشتم فلا يجيب المتحزن بأمر العشيرة هو السيد .
« « : ما الزهد ؟	— « :	الرغبة فى التقوى والزهادة فى الدنيا .

الإمام على : ما العى ؟ — الحسن : العبث باللحية وكثرة التنحنح عند المنطق .

» » : ما الرأفة ؟ — » : النظر فى اليسير ومنع الحقير .

ومن حكمه عليه السلام :

أيها الناس إنه من نصح لله وأخذ قوله دليلا هدى للتى هى أقوم ووفقه الله للرشاد وسدده للحسنى ، فإن جار الله آمن محفوظ وعدوه خائف مخذول فاحترسوا من الله بكثرة الذكر . واخشوا الله بالتقوى ، وتقربوا إلى الله بالطاعة فإنه قريب مجيب .

قال الله تبارك وتعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أُجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) فاستجيبوا لله وآمنوا به فإنه لا ينبغى لمن عرف عظمة الله أن يتعاظم ، فإن رفعة الذين يعلمون عظمة الله أن يتواضعوا ، و[عز] الذين يعرفون ما جلال الله أن يتذلّلوا [له] ، وسلامة الذين يعلمون ما قدره الله أن يستلموا له ، ولا ينكروا أنفسهم بعد المعرفة ولا يضلوا بعد الهدى . واعلموا علماً يقيناً أنكم لن تعرفوا التقى حتى تعرفوا صفة الهدى ، ولن تمسكوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذى نبذه ، ولن تتلوا الكتاب حق تلاوته حتى تعرفوا الذى حرَّفه ، فإذا عرفتم ذلك عرفتم البدع والتكلف ورأيتم الفرية على الله والتحريف ، ورأيتم كيف يهوى من

يهوى ولا يجهلنّكم الذين لا يعلمون . والتمسوا ذلك عند أهله فإنهم خاصة نور يُستضاء بهم وأئمة يقتدى بهم ، بهم عيش العلم وموت الجهل – وهم الذين أخبركم حلمهم عن جهلهم وحكم منطقهم عن صمتهم ، وظاهرهم عن باطنهم ، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه ، وقد خلت لهم من الله سنّة ومضى فيهم من الله حكم إن فى ذلك لذكرى للذاكرين ، واعقلوه إذا سمعتموه عقل رعايته ولا تعقلوه عقل روايته ، فإن رواة الكتاب كثير ورعاته قليل والله المستعان .

جوابه فى مسائل سئل عنها

بعث معاوية رجلا متنكراً يسأل الإمام عليًّا رضى الله عنه عن مسائل سأله عنها ملك الروم ، فلما دخل الكوفة وخاطب أمير المؤمنين أنكره فقرره فاعترف له بالحال ، فقال الإمام على قاتل الله ابن آكلة الأكباد ما أضله وأضلّ من معه ، قاتله الله لقد أعتق جارية ما أحسن أن يتزوجها – حكم الله بينى وبين هذه الأمة قطعوا رحمى وصغّروا عظيم منزلتى وأضاعوا أيامى – علىَّ بالحسن والحسين ومحمد فدُعوا فقال عليه السلام يا أخا أهل الشام هذان ابنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا ابنى فاسأل أيهم أحببت .

فقال الشامى : أسأل هذا – يعنى الحسن عليه السلام ثم قال :

كم بين الحق والباطل – وكم بين السماء والأرض – وكم بين المشرق والمغرب ؟ وعن هذا المحو الذى فى القمر ، وعن قوس قزح – وعن هذه المجرّة وعن

أول شيء انتضح على وجه الأرض – وعن أول شيء اهتز عليها – وعن العين التى تأوى إليها أرواح المؤمنين والمشركين – وعن المؤنث – وعن عشرة أشياء بعضها أشد من بعض ؟

فقال الحسن عليه السلام : يا أخا الشام بين الحق والباطل أصابع ما رأيت بعينك فهو الحق – وقد تسمع بأذنيك باطلاً كثيراً – وبين السماء والأرض دعوة المظلوم ومدُّ البصر – فمن قال غير هذا فكذِّبه .

وبين المشرق والمغرب يوم مطرد للشمس تنظر إلى الشمس حين تطلع وتنظر إليها حين تغرب من قال غير هذا فكذِّبه . وأما هذه المجرَّة فهى إشراج السماء مهبط الماء المنهمر على نوح عليه السلام . وأما قوس قزح فلا تقل : قزح فإن قزح شيطان ولكنها قوس الله وأمان من الفرق . وأما المحو الذى فى القمر فإن ضوء القمر كان مثل ضوء الشمس فمحاه الله . وقال فى كتابه : فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) .

وأما أول شيء انتضح على وجه الأرض فهو وادى دلس . وأما أول شيء اهتز على وجه الأرض فهى النخلة . وأما العين التى تأوى إليها أرواح المؤمنين فهى عين يقال لها سلمى . وأما العين التى تأوى إليها أرواح الكافرين فهى عين يقال لها برهوت[1] – وأما المؤنث فإنسانٌ لايدرى امرأة هو أم رجل فينتظر به الحلم فإن كانت امرأة بانت ثدياها ، وإن كان رجلا خرجت

---

(١) برهوت : واد باليمن أو بئر بحضرموت – وقيل هو اسم البلدى الذى فيه البئر رائحتها منتنة فظيعة جداً .

لحيته . وإلا قيل له يبول على الحائط فإن أصاب الحائط بوله فهو رجلٌ وإن نكص كما ينكص بول البعير فهى امرأة .

وأما عشرة أشياء بعضها أشد من بعض فأشد شيء خلق الله الحجر وأشد من الحجر الحديد ، وأشد من الحديد النار ، وأشد من النار الماء ، وأشد من الماء السحاب ، وأشد من السحاب الريح ، وأشد من الريح الملك ، وأشد من الملك ملك الموت ، وأشد من ملك الموت الموت ، وأشد من الموت أمر الله .

قال الشامى : أشهد أنك ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كلامه فى الاستطاعة :

كتب الحسن بن أبى الحسن البصرى إلى أبى محمد الحسن بنِ على عليهما السلام :

« أما بعد فإنكم معشر بنى هاشم الفلك الجارية فى اللجج الغامرة والأعلام النيِّرة الشاهرة ، أو كسفينة نوح عليه السلام التى نزلها المؤمنون ونجا فيها المسلمون ، كتبت إليك يابن رسول الله عند اختلافنا فى القدر وحيرتنا فى الاستطاعة فأخبرنا بالذى عليه رأيك ورأى آبائك عليهم السلام ، فإن من علم الله علمكم وأنتم شهداء على الناس والله الشاهد عليكم ، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » .

فأجابه الحسن : بسم الله الرحمن الرحيم — وصل إلىّ كتابك ولولا ما

ذكرته من حيرتك وحيرة من مضى قبلك إذاً ما أخبرتك . أما بعد فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أن الله يعلمه فقد كفر ومن أحال المعاصي على الله فقد فجر .

إن الله لم يطع مكرهاً ولم يعص مغلوباً ولم يهمل العباد سدى من المملكة بل هو المالك لما ملّكهم والقادر على ما عليه أقدرهم ، بل أمرهم تخييراً ونهاهم تحذيراً ، فإن ائتمروا بالطاعة لم يجدوا عنها صاداً ، وإن انتهوا إلى معصية فشاء أن يمنّ عليهم بأن يحول بينهم وبينها فعل ، وإن لم يفعل فليس هو الذى حملهم عليها جبراً ولا ألزموها كرهاً ، بل منّ عليهم بأن بصّرهم وعرّفهم وحذّرهم وأمرهم ونهاهم ، لا جبلاً لهم على ما أمرهم به فيكون كالملائكة ، ولا جبراً لهم على ما نهاهم عنه ، ولله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين والسلام على من اتبع الهدى .

وحينما قال له معاوية بعد الصلح : (اذكر فضلنا) حمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد النبي وآلـه ثم قال : (من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن ابن رسول الله ، أنا ابن البشير النذير ، أنا ابن المصطفى بالرسالة ، أنا ابن من صلت عليه الملائكة ، أنا ابن من شرفت به الأمة ، أنا ابن من كان جبريل السفير من الله إليه ، أنا ابن من بُعث رحمة للعالمين).

وهنا قال له معاوية : (يا حسن عليك بالرُّطب فانعته لنا) .

قال : نعم يا معاوية الريح تلقحه ، والشمس تُنفخه – والقمر يلوِّنه ، والحر ينضجه ، والليل يبرده .

ثم أقبل على منطقه فقال : أنا ابن المستجاب الدعوة ، أنا ابن من كان من ربه كقاب قوسين أو أدنى ، أنا ابن الشفيع المطاع ، أنا ابن مكة ومنى أنا ابن من خضعت له قريش رغماً ، أنا ابن من سعد تابعه وشقى خاذله ، أنا ابن من جعلت الأرض له طهوراً ومسجداً ، أنا ابن من كانت أخبار السماء له تترى أنا ابن من أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

فقال معاوية : أظن نفسك يا حسن تنازعك إلى الخلافة ؟

فقال : ويلك يامعاوية إنما الخليفة من سار بسيرةرسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل بطاعة الله ، ولعمرى إنا لأعلام الهدى ، ومنار التقى ولكنك يامعاوية ممن أبار السنن ، وأحيا البدع واتخذ عباد الله خولاً ودين الله لعباً ، فكان قد أخمل ما أنت فيه فعشت يسيراً وبقيت عليك تبعاته .

وروى عنه عليه السلام فى قصار هذه المعانى :

قال : ما تشاور قومٌ إلا هُدوا إلى رشدهم .

وقال : اللؤم ألا تشكر النعمة .

وقال لبعض ولده : يا بُنى لا تؤاخ أحداً حتى تعرف موارده ومصادره ، فإذا استطبت الخبرة ورضيت العشرة فآخه على إقالة العثرة والمواساة فى العسرة .

وقال : لا تجاهد الطلب جهاد الغالب ولا تتكل على القدر اتكال المستسلم ، فإن ابتغاء الفضل من السنة والإجمال فى الطلب من العفة وليست العفة بدافعة رزقاً ولا الحرص بجالب فضلا ، فإن الرزق مقسومٌ واستعمال الحرص استعمال المآثم .

وقال عليه السلام : القريب من قرَّبته المودة وإن بعد نسبه ، والبعيد من باعدته المودة وإن قرب نسبه . لا شيءأقرب من يد إلى جسد – وإن اليد تغل فتقطع وتحسم .

وقال عليه السلام : الخير الذى لا شر فيه : الشكر مع النعمة والصبر على النازلة .

وقال لرجل أبلَّ من علة : إن الله قد ذكرك فاذكره وأقالك فاشكره .

وقال : العار أهون من النار .

وقال عند صلحة لمعاوية : إنا والله ما ثنانا عن أهل الشام بالسلامة والصبر فسلبت السلامة بالعداوة – والصبر بالجذع ، وكنتم فى مبدئكم إلى حنين ودينكم أمام دنياكم وقد أصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم .

وقال : ما أعرف أحداً إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه .

وقيل له : فيك عظمة فقال : بل فىّ عزة – قال الله

(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)

ويقول عليه السلام : من أدام الاختلاف إلى المسجد أصاب إحدى ثمان : آية محكمة وأخاً مستفاداً وعلماً مستفرطاً ورحمة منتظرة وكلمة تدله على الهدى أو تردَّه عن ردىّ وترك الذنوب حياءً أو خشية .

ورزق غلاماً فأتته قريش تهنئه فقالوا : يهنيك الفارس – فقال عليه السلام هذا القول ؟ ولعله يكون راجلا فقال له جابر : كيف نقول يا ابن رسول الله ؟ فقال عليه السلام : إذا ولد لأحدكم غلامٌ فأتيتموه فقولوا له :

شكرت الواهب وبورك لك فى الموهوب ، بلغ الله به أشدَّه ورزقك بره .

وقال عليه السلام : إن أبصر الأبصار ما نفذ فى الخير مذهبه وأسمع الأسماع ما وعى التذكير وانتفع به . أسلم القلوب ما طهر من الشبهات .

وسأله رجل أن يخيله – قال عليه السلام : إياك أن تمدحنى فأنا أعلم بنفسى منك ، أو تكذبنى فإنه لا رأى لكذوب ، أو تغتاب عندى أحداً فقال له الرجل : أتأذن لى فى الانصراف فقال : نعم إذا شئت .

وقال عليه السلام : إن من طلب العبادة تزكى لها . إذا أضرّت النوافل بالفريضة فارفضوها . اليقين معاذ للسلامة . من تذكر بُعد السفر اعتدَّ . ولا يغش العاقل من استنصحه بينكم وبين الموعظة حجاب العزَّة . قطع العلم عذر المتعلمين . كلُّ معاجل يسأل النظرة وكل مؤجل يتعلل بالتسويف .

وقال : اتقوا الله – عباد الله – وجدوا فى الطلب – وتجاه الهرب ، وبادروا العمل قبل مقطعات النقمات ، وهادم اللذات ، فإن الدنيا لا يدوم نعيمها ولا تؤمن فجيعها ولا تتوقى فى مساويها – غرور حائل وسناد مائل فاتعظوا عباد الله بالعبر ، واعتبروا بالأثر ، وازدجروا بالنعيم وانتفعوا بالمواعظ ، فكفى بالله معتصماً ونصيراً وكفى بالكتاب حجيجاً وخصيماً ، وكفى بالجنة ثواباً وكفى بالنار عقاباً ووبالاً .

بيعة الإمام الحسن

بينت فى الكتاب الثانى من أهل البيت (على بن أبى طالب) ما قدر

الله سبحانه وتعالى من اغتيال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه غدراً بيد أحد الخوارج وهو (عبد الرحمن بن ملجم) فمات الإمام شهيداً راضياً مرضيًّا .

وقد ضربه ابن ملجم فى جبينه بسيف مسموم وهو خارج لصلاة الفجر ، ولم ينس الإمام على رضى الله عنه وهو فى هذه المحنة القاسية أن يوصى أهله بألا يمثلوا بقاتله ، وقال لهم : (يا بنى عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين ، قتل أمير المؤمنين ، ألا لا يقتلن أحد إلا قاتلى ، انظر يا حسن إذا أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة ، ولاتمثل بالرجل فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » . وكان مما قاله أمير المؤمنين مخاطباً ابنه الإمام الحسن فى شأن ابن ملجم : (يا بنى نحن أهل بيت الرحمة والمغفرة ، أطعمه مما تأكل واسقه مما تشرب ، فإن أنا مت فاقتص منه بأن تقتله ولا تمثل بالرجل ، وإن أنا عشت فأنا أعلم ما أفعل به ، وأنا أولى بالعفو ، فنحن أهل بيت لا تزداد على المذنب إلينا إلا عفواً وكرماً) .

وفى الساعة الأخيرة أوصى الإمام بنيه الحسن والحسين بوصية ، ثم نظر إلى أخيهما لأبيهما محمد بن الحنفية رضى الله عنه وقال له :

(هل حفظت ما أوصيت به أخويك ، قال نعم : قال فإنى أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك ، العظيم حقهما عليك ، وتزين أمرهما ولا تقطع أمراً دونهما) .

ثم قال لهما : وصيتكما به فإنه شقيقكما وابن أبيكما ، وقد علمتما أن

أباكما كان يحبه فأحباه .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد نبأه بما وقع له .

فقد قال له يوماً : أتعلم من أشقى الأولين ؟

قال : نعم عاقر الناقة ، فقال ألا تعلم من أشقى الآخرين ؟ قال الذى يضربك على هذه فيخضب هذه .

وفى رواية أنه لما أقبلت الليلة الثامنة عشرة من شهر رمضان اضطرب الإمام أشد الاضطراب فجعل يمشى فى صحن الدار وهو محزون النفس خائر القوى ، ينظر إلى الكواكب ويتأمل فيها فيزداد همه وحزنه وهو يقول متنبأ عن وقوع الحادث وقال : (ما كذبت ولا كذبت ، إنها الليلة التى وعدت بها) كما جاء فى الصواعق .

أما مبايعة الإمام الحسن فهناك خلاف بين الشيعة والسنة فى أمرها . فيكاد يجمع الشيعة على إمامة هؤلاء الثلاثة على والحسن والحسين .

أما أهل السنة فلا ينكرون إمامة الحسن أيام خلافته حتى سلم الأمر لمعاوية — ويرى الشيعة عكس ذلك فإمامته متصلة منذ مقتل الإمام على إلى أن فارق الدنيا .

وفى هذا يذكر الشيعة أن علياً دفع إليه سلاحه وسائر تراث الأنبياء والأوصياء وسلمه الاسم الأعظم[١] وأن علياً جمع أولاده بعد طعنه وكانوا اثنى عشر ذكراً فقال لهم : (يا بنىّ إن الله عز وجل قد أبى إلا أن يجعل فىّ سنة

---

(١) المسعودى = إثبات الوصية — ونظرية الإمامة لدى الشيعة الاثنى عشرية .

يعقوب إذ دعا ولده وكانوا اثنى عشر ذكراً فأخبرهم بصاحبهم ، ألا وإنى أخبركم بصاحبكم ، ألا إن هذين ابنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشار إلى الحسن والحسين فاسمعوا لهما وأطيعوا وذودوا عنهما فإنى ائتمنتهما على ما ائتمننى رسول الله مما ائتمنه الله عليه من خلقه .

أما أهل السنة فيذكرون عن على أنه قال عكس ذلك إذ سئل ألا تستخلف علينا ؟ قال : — ما استخلف رسول الله فأستخلف ، ولكن إن يرد الله للناس خيراً فسيجمعهم بعدى على خيرهم ، وأنه سئل هل يستخلف الحسن ؟ فقال : لا آمركم ولا أنهاكم .

وفى معرض الخلاف بين الشيعة والسنة يذكر الدكتور أحمد صبحى[١] أن علياً قد غادر الدنيا وهو ينصح شيعته ويلح عليهم بمواصلة الحرب ضد معاوية ، لأنه طلب الباطل فأصابه . وكان على يعلم أن ابنه الحسن لم يكن يوافقه تماماً على حروبه ، ولم يكن متحمساً لها ، وربما لم يغب عن بال على أيضاً أن لو آل الأمر إلى الحسن لسلم الخلافة لمعاوية . وقد وصف على ابنه بقوله : (أما الحسن فصاحب جفنة وخوان فتى من فتيان قريش ، ولو قد التقت حلقتا البطان لم يغن عنكم شيئاً فى الحرب . ثم يقول وأما أنا وحسين فنحن منكم وأنتم منا)[٢] .

ونصل فى النهاية إلى أن إمامة الحسن من وجهة النظر الشيعية واجبة

---

(١) نظرية الإمامة للدكتور أحمد صبحى .

(٢) ابن أبى الحديد (شرح النهج) .

لا محيص عنها من حيث إنه السبط الأكبر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأول الأئمة من ذرية الرسول ، فهو إذاً همزة الوصل بين الرسول وبين أى إمام منتسب إلى آل البيت .

ويؤيد المرحوم الدكتور طه حسين الاختلاف الذى حدث بين المسلمين فالمؤرخون والمحدثون من أهل السنة يقولون إن عليًّا أبى أن يستخلف حين طلب ذلك بعد أن أصيب . يقول قدم : إن الناس طلبوا إليه أن يستخلف الحسن فقال : لا آمركم ولا أنهاكم . ويقول قوم آخرون إن الناس طلبوا إليه أن يستخلف فأبى وقال : أترككم كما ترككم رسول الله .

والإمام الحسن بدون شك هو الخليفة الطبيعى لوالده أمير المؤمنين فهو ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيد شباب أهل الجنة وهو إمام إن قام أو قعد وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا » ، وقد هذبه الله عن كل نقص ورجس ، كما دلت على ذلك آية التطهير ، بالإضافة إلى توافر جميع ما تتطلبه الخلافة من الصفات الرفيعة فى شخصيته كالعلم والتقوى والحزم والجدارة .

فزع المسلمون بعد موت الإمام وأجمعوا أمرهم على مبايعة الإمام الحسن فاجتمعوا فى جامع الكوفة سنة أربعين من الهجرة فى صباح ٢١ من شهر رمضان المبارك وقدمه للخلافة وبايعه قيس بن سعد بن عبادة وعبد الله بن العباس أما الأول فهو أعظم قواد على الذين بقوا على قيد الحياة بعد وفاة

عمار ، والاشـــتر وهو زعيم الأنصار فكانت بيعته بيعة الأنصار وأما الثانى فقد كانت بيعته بيعة بنى هاشم وآل الرسول صلى الله عليه وسلم وأقبل الإمام الحسن ، فاعتلى[١] منصة الخطابة فابتدأ ، بعد حمد الله والثناء عليه بتأبين فقيد العدالة الكبرى الإمام أمير المؤمنين ، وتعداد بعض فضائله ومواهبه فقال : « لقد قبض فى هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ولا يدركه الآخرون بعمل ، ولقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقيه بنفسه ، ولقد كان يوجهـــه برايته فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، فلا يرجع حتى يفتح الله عليه ، ولقد توفى فى هذه الليلة التى عرج فيها بعيسى بن مريم ، ولقد توفى فيها يوشع بن نون – وصى موسى – وما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم بقيت من عطائه ، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله » .

وتمثلت صورة الإمام أمامه فخنقته العبرة وأرسل ما فى عينيه من دموع ، وكذلك بكى جميع من حضر فى جنبات الحفل ، وساد الحزن وعم الأسى .

ثم استأنف الإمام خطابه ، فأعرب للناس عن سمو مكانته وما يتمتع به من الشرف والمجد قائلا :

« أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن على ، وأنا ابن النبى ، وأنا ابن البشير النذير ، وأنا ابن الداعى إلى الله بإذنه ، وأنا ابن السراج المنير ، وأنا من أهل البيت الذى أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم

---

(١) وقد روى ذلك أبو الفرج بسنده فى مقاتل الطالبيين ومؤيده ما جاء فى الطبرى وابن الأثير وابن أبى حديد .

تطهيراً ، وأنا من أهل بيت افترض الله مودتهم على كل مسلم فقال تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً) فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت » .

وبذلك تضمن خطابه دعوة الناس إلى مبايعته ، وقد كانت دعواه رائعة بكل ما للروعة من معنى ، فلقد عرّف نفسه إلى الجماهير بأنه ابن الداعى إلى الله وابن السراج المنير ، وأنه ممن أذهب الله عنهم الرجس والأباطيل ، وهل هناك أحد أحق بالخلافة من شخص التقت به هذه الكمالات واجتمعت فيه هذه الفضائل .

ولما أنهى عليه السلام خطابه الذى لم يرد التاريخ إلا جزءاً يسيراً منه انبرى عبد الله بن العباس فحفز المسلمين إلى المبادرة لمبايعته قائلا : « معاشر المسلمين هذا ابن نبيكم ووصى إمامكم فبايعوه » وتمت البيعة وهم (إنما يبايعون الله ورسوله .

ثم يستعرض فى خطابه مزايا أهل البيت وحقهم الصريح فى الأمر فيقول : (نحن حزب الله الغالبون وعترة رسول الله الأقربون ، وأهل بيته الطيبون الطاهرون وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله فى أمتــه) إلى أن قال : فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة إذ كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة ، قال الله عز وجل : (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول) . ثم يقول : (وأحذركم الإصغاء لهتاف الشيطان ، فإنه لكم عدو مبين فتكونون كأوليائه الذين قال لهم : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص

على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون ، فستلقون للرماح ورداً وللسيوف جزراً وللعمد حطماً ، وللسهام غَرَضاً ثم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً) .

ويجمع جمهور المؤرخين على أن البيعة تمت فى صبيحة الليلة التى وارى فيها جثمان أبيه ، وإن كان بعض المؤرخين قد وقع فى أخطاء تاريخية ، فقد ذكر العلامة المرحوم الأستاذ محمد فريد وجدى أن الإمام الحسن رضى الله عنه قد بويع له بالخلافة قبل وفاة والده ، ولما انتهت البيعة توفى والده ، وهذا القول مخالف لإجماع المؤرخين .

وحاول معاوية أن يدافع عن نفسه فقال :

« أما بعد فقد وصل كتابك وفهمت ما ذكرت فيه ، ولقد علمت بما حدث فلم أفرح ولم أحزن ولم أشمت ولم آس ، وإن عليًّا أباك لكما قال أعشى بن قيس بن ثعلبة :

فأنت الجـواد وأنت الذى ... إذا ما القلوب ملأن الصدورا

جـدير بطعن بدم اللقــاء ... يضرب منها النساء النمـورا

وما مزيد من حليج البحـار ... يعلو الأكام ويعلو الجسورا

بأجـود منه بما عنــده ... فيعطى الألوف ويعطى البدورا

وتلمس فى هذه الرسالة دهاء معاوية وخداعه وخوفه من الإمام الحسن ، وذلك لمدحه وثنائه على الإمام على وإنكاره لما أظهره من الفرح بموته ، ولولا ذلك لما سجل لخصمه هذا الثناء العاطر .

هل تسرع الإمام الحسن فى قبول الخلافة :

يقول بعض النقاد إن الإمام الحسن تسرع فى قبول الخلافة فى مثل الظرف الذى بايعه فيه الناس بما كان يؤذن به هذا الظرف من زعازع ونتائج بعضها ألم وبعضها خسران .

يسارع إلى الجواب عن هذا التساؤل الشيخ راضى آل ياسين .

أما أولا – فلما كان الواجب على الناس دنيا الانقياد إلى بيعة الإمام المنصوص عليه كان الواجب على الإمام – مع قيام الحجة بوجود الناصر – قبول البيعة من الناس .

أما قيام الحجة – فيما نحن فيه – فقد كان من انثيال الناس طواعية إلى البيعة فى مختلف بلاد الإسلام ما يكفى بظاهر الحال دليلا عليه ، ولا مجال للتخلف عن الواجب مع وجود شرطه .

وأما ثانياً – فإن مبعث هذا الانعكاس البدائى عن قضية الحسن عليه السلام هو النظر إليها من ناحيتها الدنيوية فحسب والأنسب بقضية (إمام) أن يستنطقها الباحث من ناحيتها الدينية على الأكثر ، وكثير هو الفرق بين الدنيا والدين فى نظر إمام – والقضية من هذه الناحية ظفر لا خسارة ، وهى وإن تكن معرض آلام ولكنها آلام فى سبيل الإسلام ، ومن أولى من الحسن بالإسلام وتحمل آلامه وإنما هو نبت بيته .

وأما ثالثاً – فلم يكن الحسن فى رفعة مكانه من زعماء المسلمين وفى نسبه

الممتاز ومركزه من العلم بالذى يستطيع الفراغ وإن أراده عن عمد ولا بالذى يتركه الناس وإن أراد هو أن يتركهم ، وكان لا بد للرجات العنيفة فى المجتمع الإسلامى أن تتدافع إليه تستدعيه للوثوب إخفاقاً للحق وإنكاراً للمنكر ، كما وقع لأخيه الحسين عليه السلام فى ظرفه .

وأيضاً فلو ترك الناس وتجافى عن بيعتهم أو تركه الناس وأعفوه خلافتهم فلن يتركه المتغلبون على الناس ، وإنهم لينظرون إليه – دائماً – كشبح مخيف بما يدور حوله من الدعوة إلى الإصلاح أو النقمة الصارخة على الوضع التى كان يتطوع لها مختلف الطبقات من الساخطين والمعارضين والدعاة لله ، ولن يجد هؤلاء يومئذ ملجـأ يفيئون إليه خيراً من ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم الإمام المحبوب . وهل كانت الوفود التى عرضت عليه استعدادها لمناوأة الحكام الأمويين وإعادة الكرة[1] لاسترجاع الحق المغصوب إلا ظاهرة هذه النقمة الصارخة التى كان يعج بها المجتمع الإسلامى يوم ذاك ، وأنى لسلطان المتغلبين أن يستقر ما دام هذا المنار قائماً ينوء إليه الناس .

ولنتذكر أنه قتل مسموماً – ولماذا يقتلونه وقد صالحهم وترك لهم الدنيا برمتها لولا أنهم خافوه على سلطانهم ورأوا من وجوده حاجزاً يمنعهم من النفوذ إلى قلوب الناس – وهل ذلك إلا دليل انقياد الناس – فى عقيدتهم – إليه دونهم .

وهذا كله بعد الصلح وبعد ظهور جماعات من شيعته وغير شيعته

---

(١) الإمامة والسياسة .

ينكرون عليه موقفه من الصلح – كما سنرى فيما بعد .

ترى فكيف كانت قوته فى الناس لو أنه أبى الخلافة من أول الأمر وبقى شغف المسلمين إلى بيعته على حدته فهل كان من المحتمل أن يظل محور الأمل ومفزع الناقمين والمعارضين ثم تنام عنه العيون الحذرة على دنياها فلا تعالجه بما ختمت به حياته المقدسة أخيراً ؟ وهل كان إلاّ طعمة الاغتيالات الكافرة فى سنته الأولى بعد أبيه على أغلب الظن ؟

فأى منطق هذا الذى يرى من قبول الحسن للخلافة تسرعاً ؟ !

والخلافة فى أصلها مقام أبيه وميراثه وميراث أخيه على حد تعبير الإمام على بن موسى بن جعفر عليهم السلام .

وأما الزعازع التى لوّح بها هذا النقد ، فما كانت إلا خطط المناوئين فى الكوفة وليس شىء منها بالذى يضير الحسن إبان نشاط الناس معه كما هو فى إبان بيعته ، وأى خليفة أو زعيم ليس له مناوئون؟ فلم لا يكون قبول البيعة هو الأرجح على مختلف الوجوه؟ بل هو الواجب لضرورة الوقت وللمصلحة العامة ولإخفاق الحق[١] .

---

(١) صلح الحسن = (الإمام الشيخ راضى آل ياسين) .

الكوفة وبيعة الإمام الحسن

الكوفة[1] هى « قبة الإسلام وذروة الكلام ومصان ذرى الإعلام إلا أن بها أجلافاً[2] تمنع ذوى الأمر الطاعة وتخرجهم عن الجماعة وتلك أخلاق ذوى الهيئة والقناعة » .

مصّرها المسلمون فى السنة السابعة عشر للهجرة بعد فتح العراق مباشرة ، وقد زاد عمران الكوفة زيادة مفاجئة حين هاجر إليها أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب فاتخذها مقرًّا له بعد وقعة الجمل سنة ٣٦ هـ وكان دخوله إليها فى الثانى عشر من شهر رجب .

ولما كانت الكوفة هى عاصمة الخلافة فقد تقاطر عليها كبار المسلمين من مختلف الآفاق وسكنتها القبائل العربية من اليمن والحجاز والجاليات الفارسية من المدائن وإيران وعمرت فيها الأسواق التجارية وزهت فيها الدراسات العلمية .

وكان من الطبيعى أن يغلب على الكوفة التشيع للإمام على وأولاده عليهم السلام وكان لوجود الحسن عليه السلام فى الكوفة وإقامته فيها ما جعله قبلة الأنظار فانتهت البيعة له على خير ما كان يرجى لها من القوة والنشاط لولا أن

(١) وصف الكوفة = (صعصعة بن صوحان العبدى ،

(٢) الجلف هو الغليظ الجافى .

للقدر أحكاماً لا تجرى على أقيسة العقول ولا تسير على رغائب الأنفس ، فكان الجو السياسى فى العاصمة التى تحتفل لأول مرة فى تاريخها بتنصيب خليفة لا يزال راكداً متلبداً مشوباً بشىء كثير من التبلبل المريب وذلك هو ما ورثته الكوفة من مخلفات الحروب الطاحنة التى كانت على مقربة منها فى البصرة والنهروان وصفين ، وقد كان فى الكوفة فى هذا الوقت أنصار كثيرون لشهداء هذه الحروب وضحاياها من الفريقين يشاركونهم الرأى ويتمنون لو يسّر لهم أخذ الثأر ويعملون ما وسعهم العمل لتنفيذ أغراضهم .

أما الحسن رضى الله عنه وهو فى مستهل خلافته فقد كانت القلوب كلها معه لأنه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأن من شرط الإيمان مودته ومن شرط البيعة طاعته[١] .

وكما يقول ابن كثير (وأحبوه أشد من حبهم لأبيه)[٢]

إلا أن انتقال الخلافة الإسلامية إلى الحاضرة الجديدة فى العراق بما تحمله معها من الصراحة فى الحكم والصرامة فى العدل جعل فريقاً من النفعيين يفكرون فى إقامة جسر بين الكوفة والشام ، وكان هذا الفريق من النفعيين أقساماً ، فالحزب الأموى وعلى رأسهم عمرو بن حريث وعمارة بن الوليد بن عقبة وحجر بن عمرو وعمر بن سعد بن أبى وقاص وأبو بردة بن أبى موسى الأشعرى وإسماعيل وإسحق ابنا طلحة بن عبد الله وأضرابهم — فكتبوا إلى معاوية بالسمع والطاعة فى السر واستحثوه على المسير نحوهم وضمنوا له تسليم

---

(١) الشيخ راضى آل ياسين .   (٢) البداية والنهاية .

الحسن إليه عند دنوهم من عسكره أو الفتك به[١]، وفيما يحدثنا المسعودى فى تاريخه (أن أكثرهم أخذوا يكاتبون معاوية سراً ويتبرعون له بالمواعيد ويتخذون عنده الأيادى) .

« ودس معاوية إلى عمرو بن حريث والأشعث بن قيس وحجار بن أبجر وشبث بن ربعى دسيسة ، وآثر كل واحد منهم بعين من عيونه أنك إذا قتلت الحسن فلك مائة ألف درهم ، وجند من أجناد الشام وبنت من بناتى ؛ فبلغ الحسن عليه السلام ذلك فاستلأم (لبس اللأمة) ولبس درعاً وكفرها وكان يحترز ولا يتقدم للصلاة بهم إلا كذلك فرماه أحدهم فى الصلاة بسهم فلم يثبت فيه لما عليه من اللأمة[٢] .

وكان هؤلاء قادة السخط وأعوان الثورة وتبعهم الخوارج[٣] وهم أعداء الإمام على رضى الله عنه منذ حادثة التحكيم وأقطابهم فى الكوفة عبد الله بن وهب الراسبي وشبث بن ربعى وعبد الله بن الكواء والأشعث بن قيس وشمر بن ذى الجوشن .

وكان الخوارج أكثر أهل الكوفة لجاجة على الحرب منذ يوم البيعة وهم الذين شرطوا على الحسن عند بيعتهم له حرب الحالّين الضالّين — أهل

---

(١) المفيد فى الإرشاد . (٢) علل الشرايع .

(٣) الخوارج هم قوم من الإسلاميين يرون فى سيرة الخليفتين عثمان وعلى رضى الله عنهما ومن بعدهما من أمراء المؤمنين وولاة أمورهم ما لا يرى عامة المسلمين ويزعمون أنها مخالفة للدين ، فيخرجون من الجماعة ويتألبون عليهم فيضطر أولو الأمر إلى قتالهم خشية اضطراب الأمن وانتشار الفساد ومن ذلك أطلق عليهم اسم (الخوارج) .

الشام – فقبض الحسن يده عن بيعتهم على الشرط وأرادها (على السمع والطاعة وعلى أن يحاربوا من حارب ويسالموا من سالم) ، فأتوا الحسين أخاه وقالوا له : « ابسط يدك نبايعك على ما بايعنا عليه أباك يوم بايعناه وعلى حرب الحالّين الضالّين أهل الشام » . فقال الحسين : « معاذ الله أن أبايعكم ما دام الحسن حيًّا » ، فانصرفوا إلى الحسن ولم يجدوا بدًّا من بيعته على شرطه[١] .

ومنهم أيضاً الشكاكين وسبب تسميتهم بالشكاكين ترجع إلى تأثرهم بدعوة الخوارج من دون أن يكونوا منهم فهم المذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

ومنهم (الحمراء) وهم عشرون ألفاً من مسلحة الكوفة – كما يحصيهم الطبرى فى تاريخه – إلى جانب هؤلاء كانت الأغلبية الكبرى التى تناصر الحسن رضى الله عنه ، ومنهم جمهرة من بقايا المهاجرين والأنصار لحقوا عليًّا بالكوفة وكان لهم من صحبتهم الرسول صلى الله عليه وسلم ما يفرض لهم المكانة الرفيعة بين الناس ، وقد برهن أنصار الإمام الحسن على إخلاصهم لأهل البيت منذ نودى الحسن للخلافة ، ومنذ نادى بعد خلافته بالجهاد وفى سائر ما استقبله من مراحل ، ولقد قدر لهم أن يكونوا يومئذ بمنجاة من دسائس المواطنين الآخرين ، وكان منهم قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى وحجر بن عدىّ الكندى ، وعمرو بن الحمقَ الخزاعى ، وسعيد بن قيس الهمدانى ، وحبيب بن مظاهر الأسدى ، وعدى بن حاتم الطائى والمسيب ابن نجية وزياد بن صعصعة وغيرهم .

---

(١) الإمامة والسياسة .

سياسة الحسن قبل الحرب

١ - وضع الحسن رضى الله عنه لبيعته صيغة خاصة وقبض يده عما أريد معها من قيود ، وأرادها هو على السمع والطاعة والحرب لمن حارب والسلم لمن سالم فكان عند ظن المعجبين ببلاغته الإدارية بما ذكر من الحرب ولوح بالسلم فأرضى الفريقين من أحزاب الكوفة دعاة الحرب والمعارضين ، وكان لديه من الوضع العام فى الكوفة ما يكفيه نذيراً لاتخاذ مثل هذه الحيطة الحكيمة لوقت ما .

٢ - زاد الحسن رضى الله عنه المقاتلة مائة مائة ، وكان ذلك أول شيء أحدثه حين الاستخلاف فتبعه الخلفاء من بعده عليه[١]

٣ - وقد أمر الحسن بقتل رجلين كانا يتجسسان لعدوه عليه وهدد بتنفيذ هذا الحكم روح الشعب التى كان يستجيب لها عناصر كثيرة فى الكوفة والبصرة .

قال المفيد رحمه الله : (لما بلغ معاوية وفاة أمير المؤمنين وبيعة الناس ابنه الحسن دّس رجلا من حمير إلى الكوفة ورجلا من بنى القين إلى البصرة ليكتبا إليه بالأخبار ويفسدا على الحسن الأمور ، فعرف بذلك الحسن فأمر

(١) شرح النهج لابن أبى الحديد

باستخراج الحميرى من عند لحام بالكوفة فأخرج وضرب عنقه[1]] .

ويؤيد أبو الفرج الأصفهانى ما ذكره المفيد ، ثم قال : (وكتب الحسن إلى معاوية : أما بعد فإنك دسست إلىَّ الرجال كأنك تحب اللقاء لا أشك فى ذلك فتوقعه إن شاء الله ، وبلغنى أنك شمّتَّ بما لم يشمّت به ذوو الحجى (يشير إلى ما تظاهر به معاوية من الفرح بوفاة أمير المؤمنين عليه السلام) ، وإنما مثلك فى ذلك كما قال الأول :

فإنّا ومن قد مات منا لكالذى ... يروح ويمسى فى المبيت ليغتدى
فقل للذى يبغى الخلاف الذى مضى ... تجهّز لأخرى مثلها فكأن قَدِ

٤ – تمهله عن الحرب برغم إلحاح الأكثرين ممن حوله على البدار إليها منذ تسلمه الحكم فى الكوفة

٥ – استدراجه معاوية عن طريق التبادل بالرسائل إلى نسيان موقفه المتأرجح الذى لم تقو على دعمه الدعاوى الفارغة الكثيرة ، فإذا بإضمامة من الغلطات هى أجوبة معاوية للحسن وهى التى كشفت للناس معاوية المجهول ومهدت للحسن معذرته تجاه الرأى العام فى حربه لمعاوية ، وإذا بمعاوية الغريق المغلوب فى منطق العقلاء وإن يكن الغالب بعد ذلك فى منطق القوة .

واستنكر عامل الإمام على البصرة عبد الله بن عباس إرسال معاوية بعثة العيون والجواسيس إلى البصرة ، وأرسل له رسالة كما أرسل أخرى إلى الإمام الحسن يشجعه على مقاومة معاوية ، وقد جاء فى هذه[2] الرسالة : « أما بعد

(١) كشف الغمة – والبحار – والإرشاد .
(٢) شرح ابن أبى الحديد .

فإن المسلمين ولوك أمرهم بعد على عليه السلام ، فشمر للحرب وجاهد عدوك وقارب أصحابك واشتر من الظنين دينه بما لا يثلم لك دنياه ، وولّ أهل البيوت والشرف تستصلح به عشائرهم حتى يكون الناس جماعة ، فإن بعض ما يكره الناس ما لم يتعد الحق ، وكانت عواقبه تؤدى إلى ظهور العدل وعز الدين خير من كثير مما يحبه الناس إذ كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور وذل المؤمنين وعز الفاجرين ، واقتد بما جاء عن أئمة العدل فقد جاء عنهم أنه لا يصلح الكذب إلا فى حرب أو إصلاح بين الناس ، فإن الحرب خدعة ولك فى ذلك سعة إذ كنت محارباً ما لم تبطل حقًّا . . .

واعلم أن عليًّا أباك إنما رغب الناس عنه إلى معاوية أنه آسى بينهم فى الفىء وسوى بينهم فى العطاء فثقل عليهم ، واعلم أنك تحارب من حارب الله ورسوله فى ابتداء الإسلام حتى ظهر أمر الله ؛ فلما وحد الرب ومحق الشرك وعز الدين أظهروا الإيمان وقرءوا القرآن مستهزئين بآياته ، وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى وأدوا الفرائض وهم لها كارهون ، فلما رأوا أنه لا يعز فى الدين إلا الأتقياء الأبرار توسموا بسيمى الصالحين ليظن المسلمون بهم خيراً ، فما زالوا بذلك حتى شركوهم فى أماناتهم وقالوا حسابهم على الله ، فإن كانوا صادقين فإخواننا فى الدين وإن كانوا كاذبين كانوا بما اقترفوا هم الأخسرين ، وقد منيت بأولئك وبأبنائهم وأشباههم والله ما زادهم طول العمر إلا غيًّا ولا زادهم ذلك لأهل الدين إلاَّ مقتاً ، فجاهدهم ولا ترض دنية ولا تقبل خسفاً ، فإن عليًّا أباك لم يجب إلى الكوفة حتى غلب على أمره فأجاب وإنهم يعلمون أنه

أولى بالأمر إن حكموا بالعدل ، فلما حكموا بالهوى رجع إلى ما كان عليه حتى أتى عليه أجله ، ولا تخرجن من حق أنت أولى به حتى يحول الموت دون ذلك والسلام » .

واحتوت هذه الرسالة على أمور مهمة :

١ – أن ابن عباس عرض على الإمام أن يولى الأشراف وذوى النفوذ ويشرى من الظنين دينه ليقضى بذلك على روح التفرقة ، ويكون الناس جماعة واحدة حتى يتمكن من مناجزة معاوية ومقاومته ، وغفل ابن عباس أن ذلك يتنافى مع السياسة الرشيدة التى انتهجها أهل البيت فإنها بنيت على الحق الخالص .

٢ – واشتملت هذه الرسالة على أهم الأسباب الوثيقة التى أدت إلى خذلان الإمام فى دور خلافته ونجاح معاوية فى عهد حكومته . فإن الإمام قد انتهج سياسة العدل والمساواة فسوى بين المسلمين فى العطاء فلم يقدم أحداً على أحد فى العطاء عملا بما أمر به الإسلام ، ونصت عليه مبادئه العادلة التى محت التفاوت بين الأبيض والأسود وهدمت الحواجز بين الغنى والفقير وجعلت « الناس سواسية كأسنان المشط كلهم من آدم وآدم من تراب » لا ميزة لأحد على أحد إلا بالتقوى ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالعمل والكفاءة . سار الإمام علىّ رضى الله عنه على هذه السياسة العادلة ومشى على هذه الخطة الواضحة حتى ضرب الرقم القياسى للمساواة والعدل ، فمن بوادر

عدله أنه ساوى بين سيدة قرشية وبين أمة فى العطاء فغاظ القرشية ذلك وأقبلت إليه وهى محنقة مغيظة تقول بحرارة :

« أتساوى فى العطاء بينى وبين هذه الأمة » .

فرمقها الإمام بطرفه وأخذ بيده قبضة من التراب وجعل يقلبه بيده وهو يقول : « لم يكن بعض هذا التراب أفضل من بعض » .

لقد ثقل على الناس هذه المساواة ، وشق عليهم هذا العدل لأنهم لا يتطلبون إلا مصالحهم الخاصة ، فلذا زهدوا فى حكومته وخضعوا لحكومة معاوية الذى لا هدف له إلا تحقيق رغباته .

٣ – وأعرب ابن عباس فى رسالته عن دراسته الوثيقة لنفسيات الأمويين ومعرفته بما انطوت عليه قلوبهم ، فلقد بيَّن أنهم مجموعة من الملحدين ، فإذا حاربهم الإمام فإنما يحارب من حارب الله ورسوله حينما بزغ نور الإسلام ، فإنه لما كتب الله النصر لدينه ، وقهر سلطان الإسلام العرب دخلت أمية فيه ، لكن لا إيماناً منهم بقضيته بل خوفاً من حر السيف ورهبة الموت ، فكانوا يتظاهرون باعتناق الإسلام فيقرأون آيات الذكر الحكيم ، ولكن قراءة عن غير إيمان واعتقاداً بمبادئه ، وكانوا يقيمون الصلاة ولكنهم يؤدونها وهم كسالى ويقيمون فرائض الإسلام ولكن عن كره ، ولما رأوا أن خطتهم لا تضمن لهم النجاح ولا تكفل لهم السعادة إذ لا يعز فى هذا الدين إلا الأبرار الصلحاء لقوله تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) أظهروا تدليساً ورياءً ، الصلاح والتقى والإيمان ، وأضمروا فى دخائل نفوسهم الشرك والنفاق والحقد على

الإسلام ، وظلوا على هذه الحال يظهرون الطاعة لله والانقياد لأوامره وأحكامه حتى أشركهم المسلمون فى أمورهم وشئونهم ، ولكن المسلمين مع ذلك كانوا مرتابين منهم شاكين فى أمرهم على ريب من صدقهم .

٤ – واحتوت هذه الرسالة على حث الإمام وتحريضه لمحاربة هؤلاء المنافقين والمارقين من الدين ، ومواصلة حربهم حتى النفس الأخير لتستريح الأمة من شرهم ، وتسلم من مكرهم وغوائلهم ، ولا شك أن هذه الرسالة كان لها موقع حسن فى نفس الإمام ، فقد حفزته إلى مناجزة معاوية ومقاومته وإعلان الحرب عليه[١].

رسالة الإمام إلى معاوية :

وأرسل الإمام رسالة أخرى إلى معاوية يدعوه إلى مبايعته وطاعته والدخول فيما دخل فيه المسلمون ، وقد أرسل الرسالة بيدُ شخصين من عيون المؤمنين وثقات الإسلام ، وهما الحارث بن سويد التميمى وجندب الأزدى ، وهذه نص الرسالة[٢]:

« من الحسن بن على أمير المؤمنين ، إلى معاوية بن أبى سفيان – سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد : فإن الله جل جلاله بعث محمداً رحمة للعالمين ، ومنّة

(١) حياة الإمام الحسن بن على ، للأستاذ باقر شريف .

(٢) شرح ابن أبى الحديد .

للمؤمنين ، وكافة للناس أجمعين (لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين) ، فبلغ رسالات الله ، وقام بأمر الله حتى توفاه الله غير مقصر ولا دان ، وبعد أن أظهر الله به الحق ومحق به الشرك ، وخص به قريشاً خاصة فقال له : « وإنه لذكر لك ولقومك » ، فلما توفى تنازعت سلطانه العرب ، فقالت قريش : نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه ولا يحل لكم أن تنازعونا سلطان محمد وحقه ، فرأت العرب أن القول ما قالت قريش ، وأن الحجة فى ذلك لهم على من نازعهم أمر محمد فأنعمت لهم وسلمت إليهم ، ثم حاججنا نحن قريشاً بمثل ما حاججت به العرب فلم تنصفنا قريش إنصاف العرب لها ، إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالإنصاف والاحتجاج ، فلما صرنا أهل بيت محمد وأولياءه إلى محاجتهم وطلب النصف (الإنصاف) منهم باعدونا واستولوا بالاجتماع على ظلمنا ، ومراغمتنا ، والعنت منهم لنا ، فالموعد الله وهو الولى النصير .

ولقد كنا تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا فى حقنا ، وسلطان بيتنا ، وإن كانوا ذوى فضيلة وسابقة فى الإسلام ، وأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب فى ذلك مغمزاً يثلمونه به أن يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا من إفساده ، فاليوم فليتعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله . . لا بفضل فى الدين معروف ، ولا أثر فى الإسلام محمود ، وأنت ابن حزب من الأحزاب ، وابن أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكتابه ، والله حسيبك فسترد وتعلم

لمن عقبى الدار ، وبالله لتلقينّ عن قليل ربك ثم ليجزينك بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد ، إن علياً لما مضى لسبيله ، رحمة الله عليه يوم قبض ، ويوم منَّ الله عليه بالإسلام ، ويوم يبعث حيًّا ، ولّانى المسلمون بعده ، فاسأل الله ألا يؤتينا فى الدنيا الزائلة شيئاً ينقصنا به فى الآخرة مما عنده من كرامة .

إلى أن قال : فدع التمادى فى الباطل ، وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتى فإنك تعلم أنى أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل أواب حفيظ ، ومن له قلب منيب ، واتق الله ودع البغى ، واحقن دماء المسلمين ، فـوالله ما لك خير فى أن تلقى من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه به ، وادخل فى السلم والطاعة ، ولا تنازع الأمر أهله ، ومن هو أحق به منك ، ليطفئ الله النائرة (العداوة والبغضاء) بذلك ويجمع الكلمة ، ويصلح ذات البين ، وإن أنت أبيت إلا التمادى فى غيك سرت إليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين » .

رد معاوية على الإمام الحسن :

« أما بعد ، فقد فهمت ما ذكرت به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله ، وذكرت تنازع المسلمين الأمر بعده فصرحت بتهمة أبى بكر الصديق وعمر ، وأبى عبيدة الأمين ، وصلحاء المهاجرين فكرهت لك ذلك إن الأمة لما تنازعت الأمر بينها ، رأت قريشاً

أخلقها به ، فرأت قريش والأنصار ، وذوو الفضل والدين من المسلمين أن يولوا من قريش أعلمها بالله ، وأخشاها له ، وأقواها على الأمر ، فاختاروا أبا بكر ولم يألوا (لم يقصروا) ولو علموا مكان رجل غير أبي بكر يقوم مقامه ، ويذب عن حرم الإسلام ذَبَّهُ ما عدلوا بالأمر إلى أبي بكر ، والحال اليوم بيني وبينك على ما كانوا عليه ، فلو علمت أنك أضبط لأمر الرعية ، وأحوط على هذه الأمة ، وأحسن سياسة ، وأكيد للعدو ، وأقوى على جمع الفيء لسلمت لك الأمر بعد أبيك ، ولكن قد علمت أني أطول منك ولاية وأقدم بهذه الأمة تجربة وأكبر منك سنًّا ، فأنت أحق أن تجيبني إلى هذه المنزلة التي سألتني ، فادخل في طاعتي ، ولك الأمر من بعدي ، ولك ما في بيت مال العراق من مال بالغاً ما بلغ تحمله إلى حيث أحببت ، ولك خراج من العراق شئت معونة لك على نفقتك يجبيها أمينك ، ويحملها لك في كل سنة ، ولك ألا يستولى عليك بالإساءة ، ولا تقضى دونك الأمور ، ولا تعصى في أمر أردت به طاعة الله ، أعاننا الله وإياك على طاعته ، إنه سميع مجيب الدعاء ، والسلام » .

وكما يقول الدكتور أحمد رفاعي في كتابه « عصر المأمون » إن هذه الرسالة حوت بعض المغالطات ، فقد جاء فيها : « إن هذه الأمة لما اختلفت بينها ، لم تجهل فضلكم ، ولا سابقتكم للإسلام ، ولا قرابتكم من نبيكم..إلخ »

ومن يتتبع الأحداث التي وقعت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم عرف أن العترة الطاهرة واجهت بعد النبي صلى الله عليه وسلم أشق المحن والخطوب فإن

الجرح لما يندمل والرسول عليه الصلاة والسلام لما يقبر استبد القوم بالأمر ، وعقدوا اجتماعهم فى السقيفة ، وتغافلوا عترة نبيهم ، وكان لهذا كله الأثر الذى ظهر بعد خمسين عاماً من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد تتابعت عليهم الخطوب فإذا المسلمون فى موكب جهير يجوب البيداء من بلد إلى بلد وهم يحملون رءوس أبنائه على أطراف الرماح .

رسالة أخرى من معاوية للإمام :

وأرسل معاوية إلى الإمام رسالة يحذر فيها من الخلاف عليه ويمنيه بالخلافة من بعده إن تنازل له عن الأمر .

قال :

أما بعد ، فإن الله يفعل فى عباده ما يشاء لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب ، فاحذر أن تكون منيتك على أيدى رعاع من الناس وأيس من أن تجد فينا غميزة ، وإن أنت أعرضت عما أنت فيه ، وبايعتنى وفيت لك بما وعدت ، وأجريت لك ما شرطت ، وأكون فى ذلك كما قال أعشى بن قيس ابن ثعلبة :

وإن أحد أسدى إليك أمانة فأوف بها تدعى إذا مت وافيا

ولا تحسد المولى إذا كان ذا غنى ولا تجفه إن كان فى المال فانيا

ثم الخلافة لك من بعدى فأنت أولى الناس بها والسلام .

ويقول بعض رجال التاريخ إن هذه الرسالة المشتملة على مثل هذا اللون

من التهديد والتوعيد إنما بعثها معاوية إلى الإمام الحسن بعدما اتصل اتصالا وثيقاً برجال العراق وقادته وضمنوا له تنفيذ خطته فالغالب أنه لم يكتب ذلك إلا بعد الاتصال بزعماء العراق وانقطاع أمله من إجابة الحسن له .

آخر رسالة للإمام الحسن :

لم يكترث الإمام لتهديد معاوية وأجابه بجواب يلمس فيه الحزم :

« أما بعد فقد وصل إلى كتابك تذكر فيه ما ذكرت وتركت جوابك خشية البغى عليك وبالله أعوذ من ذلك ، فاتبع الحق تعلم أنى من أهله ، وعلىّ إثم أن أقول فأكذب والسلام . . »

وكانت هذه الرسالة هى آخر الرسائل التى دارت بين الإمام ومعاوية . وعلى أثرها علم معاوية أنه لا يجديه خداعه وأباطيله ، ولا تنفع مغالطاته السياسية وعرف أن الإمام مصمم على حربه فاتجه إلى هذا الطريق بل استعجل الحرب :

لأنه اتصل اتصالا وثيقاً بزعماء العراق ورؤساء القبائل ومناهم بالوظائف فأجابوه سرًّا إلى تنفيذ أغراضه ويدل على ذلك المذكرة الآتية التى كتبها إلى عماله :

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى فلان ابن فلان ، ومن قبله من المسلمين سلام عليكم فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو – أما بعد – فالحمد لله الذى كفاكم مؤونة عدوكم وقتل خليفتكم : إن الله بلطفه وحسن صنعه أتاح لعلى بن أبى طالب رجلا من عباده فاغتاله فقتله فترك أصحابه متفرقين

مختلفين ، وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم ، فأقبلوا إلى حين يأتيكم كتابى هذا بجهدكم وجندكم وحسن عدتكم فقد أصبتم بحمد الله الصبر وبلغتم الأمل وأحل الله أهل البغى والعدوان والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

والذى يلفت النظر فى هذه الرسالة أن ينسب معاوية البغى والعدوان للإمام على ، مع أن جنود معاوية هم الباغون ، ولقد قتلوا الصحابى الجليل عمار بن ياسر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : (تقتلك الفئة الباغية) كما يلفت النظر شماتة معاوية فى الإمام على رضى الله عنه .

ولما وصلت هذه الرسالة إلى عماله وولاته قاموا بتحريض الناس وحثهم على الخروج والاستعداد لحرب ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبطه ، ولما توافرت له القوة الهائلة من الجند والعسكر وأصحاب المطامع الذين لا يقدسون سوى المادة زحف بهم نحو العراق وتولى بنفسه القيادة العامة للجيش ، وأناب عنه فى عاصمته الضحاك بن قيس الفهرى وطوى معاوية البيداء بجيشه الجرار ، فلما انتهى إلى « جسر منبج »[١] وعلم الإمام الحسن رضى الله عنه بذلك أمر بعض أصحابه أن ينادى فى العاصمة « الصلاة جامعة » ويقصد بذلك جمع الناس فى جامع البلد فنودى بذلك واعتلى الإمام المنبر وقال :

« أما بعد . فإن الله كتب الجهاد على خلقه وسماه كرهاً ، ثم قال لأهل الجهاد : اصبروا إن الله مع الصابرين ، فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون

(١) جسر منبج ، بناه كسرى ، والمسافة بينه وبين حلب يومان .

إلا بالصبر على ما تكرهون ، إنه بلغنى أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه فتحرك لذلك ، اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم فى النخيلة [١] حتى ننظر وتنظرون ونرى وترون » .

ولما أنهى عليه السلام خطابه وجم الحاضرون وأخرست ألسنتهم واصفرت ألوانهم ، كأنهم قد سيقوا إلى الموت ، فلم يجب الإمام أحد منهم كل ذلك لخوفهم من أهل الشام وحبهم للسلم وإيثارهم للعافية ، وكان هذا التخاذل فى بداية الدعوة إلى جهاد العدو ينذر بالخطر ويدعو إلى التشاؤم واليأس .

ولما رأى ذلك عدى بن حاتم الطائى وقف منكراً سكوتهم وتخاذلهم المفضوح قائلا : « أنا عدى بن حاتم ، سبحان الله ما أقبح هذا المقام ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم ، أين خطباء مضر الذين ألسنتهم كالمخاريق فى الدعة ، فإذا جد الجد راوغوا كالثعالب ، أما تخافون مقت الله . . . »

ثم التفت إلى الإمام مظهراً له الطاعة والامتثال قائلا : « أصاب الله بك المراشد وجنبك المكاره ، ووفقك لما يحمد ورده وصدره ، قد سمعنا مقالتك وانتهينا إلى أمرك وسمعنا لك وأطعنا فيما قلت ورأيت » .

ثم [٢] أظهر إلى المجتمعين عزمه على الخروج لحرب معاوية فوراً قائلا : « وهذا وجهى إلى معسكرنا ، فمن أحب أن يوافى فليواف » ثم خرج من المسجد

---

(١) النخيلة موضع قريب من الكوفة وجاء فى معجم البلدان أن معاوية قتل الخوارج به لما ورد إلى الكوفة وفى ذلك يقول ابن الأصم راثياً :

إنى أدين بما دان الشراة به ... يوم النخيلة عند الجوسق الحزب

(٢) ابن ابى الحديد .

وكانت دابته بالباب فركبها وخرج وحده من دون أن يلتحق به أحد وأمر غلامه أن يلحقه بما يصلحه فانتهى إلى النخيلة فعسكر بها وحده ، واضطرب غيظاً وموجدة كل من الزعيم قيس بن سعد بن عبادة ، ومعقل بن قيس الرياحى ، وزيادة بن صعصعة التميمى ، لما رأوا عدم إجابة الجماهير فلاموهم على هذا التخاذل وبعثوا فيهم الروح إلى حرب عدوهم ومناجزته ، ثم التفتوا إلى الإمام وكلموه بمثل كلام عدى فى الانقياد والطاعة والامتثال لأمره ، فشكرهم الإمام على موقفهم وأثنى على شعورهم قائلا : « ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء والنصيحة فجزاكم الله خيراً » .

وخرج الإمام عليه السلام فوراً لرد العدوان الأموى ، واستخلف فى عاصمته المغيرة بن نوفل بن الحرث ، وأمره بحث الناس على الجهاد وإشخاصهم إليه فى النخيلة ، ثم إلى « دير عبد الرحمن » فأقام به ثلاثة أيام ليلتحق به المتخلفون من جنده ، ورأى أن يرسل مقدمة جيشه للاستطلاع على حال العدو واختار فى مقدمة الجيش خلاصة أصحابه من الباسلين وكان عددهم اثنى عشر ألفاً ، وأعطى القيادة العامة إلى ابن عمه عبيد الله بن العباس ، وقبل أن تتحرك هذه الفصيلة من الجيش دعا الإمام قائدها العام عبيد الله فزوده بهذه الوصية .

« يا ابن العم إنى باعث معك اثنى عشر ألفاً من فرسان العرب وقراء المصر ، الرجل منهم يزيد الكتيبة ، فسر بهم ، وألن لهم جانبك وابسط لهم وجهك ، وافرش لهم جناحك وأدنهم من مجلسك فإنهم بقية ثقات أمير

المؤمنين ، وسر بهم على شط الفرات ، ثم امض حتى تستقبل بهم معاوية ، فإن أنت لقيته فاحتبسه حتى آتيك فإنى على أثرك وشيكاً وليكن خبرك عندى كل يوم ، وشاور هذين قيس بن سعد ، وسعيد بن قيس ، وإذا لقيت معاوية فلا تقاتله حتى يقاتلك فإن فعل فقاتله وإن أصبت فقيس بن سعد على الناس ، فإن أصيب فسعد بن قيس على الناس » .

وتدل هذه الرسالة على اطلاع الإمام الحسن الوافر فى تدبير شئون الدولة فإن التوصية بالجيش بهذا اللون المشتمل على العطف والحنان والإطراء عليه بمثل هذا الثناء من أنهم بقية ثقات أمير المؤمنين خير دليل على ذلك .

وكان الإمام الحسن يقصد من ذلك تغذية معنوياتهم وإلهاب حماستهم والتأثير على عواطفهم ، ثم أوصاه بأن يلين لهم جانبه ويبسط لهم وجهه ويفرش لهم جناحه ويدنيهم من مجلسه ، وكان مقصد الإمام من ذلك إيتاء الثقة المتبادلة بين الجيش وقائده ، وهذه الثقة بدون شك ضرورية فى حرب تعوزها النظم العسكرية التى نعرفها اليوم .

على أن رجال التاريخ يتساءلون عن الحيثيات التى آثر بها الإمام الحسن عليه السلام عبيد الله بن عباس للقيادة ، وفى الجيش معه أعلام من سراة الناس ومن ذوى السوابق والذكريات المجيدة الذين لا يهضمون الخلق المزهو ولا الخشونة الآمرة الناهية فى الفتى الهاشمى الذى لا يزيدهم كفاءة ولا يسبقهم جهاداً ولا يفضلهم تقوى ولا يكبرهم سنًّا ، فقد كان عبيد الله بن عباس يوم قيادته لهذا الجيش فى التاسعة والثلاثين من عمره .

ويقول رجال التاريخ أيضاً إنه كان فى الجيش مثل « قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى » الرجل المعترف بكفاءته العسكرية وإخلاصه الصحيح لأهل البيت عليهم السلام وبأمانته .

ويجيب المغفور له الشيخ راضى آل ياسين بقوله : إن الحسن حين أراد عبيد الله للقيادة على المقدمة فرض عليه استشارة كل من قيس بن سعد وسعيد بن قيس ، كما هو صريح عهده إليه ، فخرج بذلك من الإيثار الذى يؤخذ عليه إذا كان هذا الإيثار تبعة يخاف منها على مصلحة الموقف وأصبحت القيادة – على هذا الأسلوب – شورى بين ثلاثة هم أليق رجاله لها ، أما تقديم قيس على صاحبيه وعلى غيرهما من صحابة وزعماء وإيثاره بالقيادة وحده فقد كان فى حينه مظنة لتنافس الأكفاء الآخرين الذين كان يلفهم جناح هذا الجيش وفى هؤلاء الشخصيات المعروفة فى قيادتها الميادين وفى إخلاصها وجهادها وسوابقها أمثال أبى أيوب الأنصارى وحجر بن عدى الكندى وعدى بن حاتم الطائى وأضرابهم ، لذلك كان تقديم ابن عم الإمام بل ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم وتعيينه (اسما) ثم الاستفادة من رأى قيس وصاحبه تخلصاً لبقاً لا ينبغى الخلاف فيه والتنافس عليه .

ثم إنه كان من الاحتياطات الرائعة للوضع العام يوم ذاك ألا يكون القائد فى جبهة الحسن إلا هاشمياً ، وتفسير ذلك أن صورة التخاذل التى دارت مع قضية الحسن فى الكوفة كانت لا تزال نذيرة تشاؤم كثير فى حساب الحسن عليه السلام ، وكان عليه أن يتخذ من التدابير الممكنة كل

ما يدفع عنه ، فى حاضره وفى مستقبله ، لوم الناس وتخطئتهم ونقدهم ، ومن السهل على الناس أن يتسرعوا إلى التخطئة والنقد متى وجدوا موضعاً للضعف أو منفذاً إلى الفشل والحرمان ، وكان من المنتظر أن يقولوا فيما لو فشلت قضية الحسن فى مسكن إنه لو كان القائد من أهله لكان أولى من غيره بالصبر على المكاره وتحمل العظائم ، ولما آل الأمر إلى هذا المآل فكان الاستعداد لغوائل الوضع الراهن بتعيين القائد الهاشمى تدبيراً دقيق الملاحظة .

ثم إنه لن يكون إنسان آخر غير عبيد الله بن عباس ، لا قيس ولا ابن قيس ولا غيرهما ، أشد حنقاً ولا أعنف تألباً على معاوية منه كأب قتل ولداه (الصبيان) صبراً فيما أملته فاجعة بسر بن أرطاة يوم غارته على اليمن ، فكان من الاستغلال المناسب جداً اختيار هذا القائد لقتال قاتل ولديه .

وأخيراً فإن جيش المقدمة الذى ولى قيادته عبيد الله هذا كان أكثره من بقايا الجيش الذى أعده أمير المؤمنين عليه السلام فى الكوفة لحرب أجناد الشام ثم توفى عنه ، وكان قيس بن سعد بن عبادة هو قائد ذلك الجيش فى زمن أمير المؤمنين[١].

ولهذه السوابق أثرها فى توثيق الروابط الشخصية بين القائد والمقود ، وكان من السهل على القائد النافذ فى جنوده أن يجنح ، متى شاء إلى حرية التصرف التى لا تعبر عن اتصال إيجابى بالمركز الأعلى وهو ما كان يجب التحفظ منه كأهم عنصر فى الموقف ، على أننا لا ننسى أن قيساً وقف بين صفوف الجيش

---

(١) تاريخ ابن كثير .

يوم رجعت له قيادته فى مسكن يخيرهم بين الالتحاق بالإمام على الصلح وبين الاستمرار على حرب معاوية بلا إمام ، فأى احتياط كان أحسن من جعل القيادة فى غير هذا الرجل وجعله مع ذلك المستشار العسكرى للاستفادة من كفاءته ودهائه وهو ما فعله الإمام الحسن . أما أمر الإمام الحسن ألا يعتدى عبيد الله على معاوية بالحرب لسد مراوغاته حتى لا يستطيع أن يدعى أنه ما جاء للحرب وإنما جاء للتداول فى إصلاح أمر المسلمين ، كما نصت وصية الإمام على المشاورة .

وقد وقعت بعض أخطاء تاريخية يهمنا أن نبرزها فقد قيل إن الإمام الحسن أسند قيادة مقدمة الجيش إلى ابن عمه عبد الله بن جعفر وضم إليه عشرة آلاف جندى ، وهذا يخالف ما أجمع عليه الرواة من أن قيادة المقدمة كانت لعبيد الله بن العباس بإشراك قيس بن سعد وسعيد بن قيس ، كما أن عدد المقدمة كان اثنى عشر ألفاً ، وإن كان رجال التاريخ قد اختلفوا فى تحديد الجيش الذى نزح مع الإمام ، فابن أبى الحديد يقول : « وخرج الناس فعسكروا ونشطوا للخروج وخرج الحسن إلى المعسكر واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب وأمره باستحثاث الناس وإشخاصهم إليه فجعل يستحثهم ويخرجهم حتى يلتئم المعسكر وسار الحسن فى عسكر عظيم وعدة حسنة حتى نزل دير عبد الرحمن فأقام به ثلاثاً حتى اجتمع الناس ثم دعا عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب فقال له : يا ابن عم إنى باعث معك اثنى عشر ألفاً من فرسان العرب وقراء المصر . . »

وذكر الطبرى وغيره أربعين ألفاً ، وجاء فى شرح النهج فى صدد عتاب المسيب للإمام الحسن على صلحه كما سيأتى ذلك تفصيلا : « فقال المسيب ابن نجية للحسن عليه السلام : ما ينقضى عجبى منك صالحت معاوية ومعك أربعون ألفاً » ويقول ابن الأثير فى الكامل : « كان أمير المؤمنين على قد بايعه أربعون ألفاً من عسكره على الموت لما ظهر ما كان يخبرهم به عن أهل الشام فبينما هو يتجهز للمسير قتل عليه السلام وإذا أراد الله أمراً فلا مرد له . فلما قتل وبايع الناس ولده الحسن بلغه مسير معاوية فى أهل الشام إليه ، فتجهز هو والجيش الذين كانوا بايعوا علياً ، وسار عن الكوفة إلى لقاء معاوية ، وكان قد نزل مسكن ، فوصل الحسن إلى المدائن ، وجعل قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى على مقدمته فى اثنى عشر ألفاً . . . » . ويؤيد هذا أيضاً ابن كثير . وكذلك روى ابن قتيبة أن سليمان بن صرد ذكر للإمام الحسن عند عتابه أيضاً على الصلح : « أما بعد ، فإن تعجبنا لا ينقضى من بيعتك معاوية ومعك مائة ألف مقاتل من أهل الفرق » وإن كان ابن قتيبة ينفرد دون غيره برواية المائة ألف عن سليمان بن صرد ، وهكذا اختلف رجال التاريخ فى عدد الجيش ، والأقرب إلى الصحة أن عدد جيش المقدمة هو اثنا عشر ألفاً ، وعدد المتطوعين بعد ذلك فى الكوفة أربعة آلاف ، ثم الفصائل التى تواردت على الحسن فى دير عبد الرحمن ، وهذه قرابة عشرين ألفاً .

على أن الاختلاف فى عدد الجيش ليس بذى أهمية لأن الجيش مهما كان عدده كثيراً ، إذا كان مختلف الأهواء ، فلا بد أن ينهزم ، ولا يجىء النصر

إلا بالإخلاص والإيمان والعقيدة ووحدة الكلمة ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله بتضامنها وتعاونها .

كما قيل إن الإمام الحسن تجهز لحرب معاوية بعد ثمانية عشر يوماً من وفاة أبيه ، والمرجح أن الإمام لم يستعد للحرب إلا بعد ما فشلت جميع الوسائل التى اتخذها لأجل السلم ، وتقدر هذه المدة بنحو شهرين على الأقل .

ويقول ابن كثير : إنه لم يكن فى نية الحسن أن يحارب ، وهذا فى الأرجح غير صحيح لأنه لو لم يكن من رأيه الحرب لما بعث إلى معاوية تلك الرسائل التى يتهدده فيها ويتوعده بإعلان الحرب إن لم يدخل فى طاعته .

وبعد ما أسند الإمام القيادة العامة فى مقدمة الجيش إلى عبيد الله بن العباس انطلق عبيد الله يطوى البيداء مع الجيش حتى انتهى إلى (مسكن) فاستقام فيها ، وقابل العدو وجهاً لوجه ، وهنا قام معاوية بدوره من نشر المخاوف والأراجيف ، وكانت باكورة تلك الدسائس نشر العيون ليذيعوا الذعر والإرهاب ، وكانت دعايتهم الأولى هى :

« إن الحسن يكاتب معاوية على الصلح ، فلم تقتلون أنفسكم » .

وتمكن بهذه الوسيلة من الاتصال بعبيد الله بن العباس وجذبه إليه ، وقال له فى رسالة بعث بها إليه : إن الحسن قد راسلنى فى الصلح ، وهو مسلم الأمر إلىّ ، فإن دخلت فى طاعتى الآن كنت متبوعاً وإلا دخلت وأنت تابع[١]

---

(١) وذكر ابن أبى الحديد رسالة معاوية ونصها (إن الحسن سيضطر إلى الصلح وخير لك أن تكون متبوعاً ولا تكون تابعاً . . .) .

ولك إن أجبتني الآن أن أعطيك ألف ألف درهم أعجل لك فى هذا الوقت نصفها وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر .

وكان معاوية أحرص بشر على استغلال مآزق أعدائه « وكان إيمان معاوية بالسفالة البشرية إيماناً لا حدّ له ، وهو إيمان يقوم على الاعتقاد بأن أقوم الناس خلقاً ، وأشدهم عزماً ، وأنقاهم فضيلة قد تستغويه الأطماع ويذله الحرص فى ساعة من ساعات الضعف الذى يطرأ على النفوس ، وفترة من فترات الشك الذى لا ينفك عن مطاردة الناس ، ولا يسلم من غوائله أفاضل الناس وأعالى البشرية »[١] .

وكان فيما حذر به أمير المؤمنين عليه السلام زياداً ، كما جاء فى الكامل ، أن قال له : « وإن معاوية يأتى الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فاحذر ثم احذر » .

وهكذا صرع الشعور بالخيبة والاستسلام للطمع الفتى الأصيل ، فإذا هو أبشع صور الخيانة المفضوحة والضعف المخذول .

وفى غلس الليل البهيم تسلل عبيد الله إلى معاوية ومعه بضعة آلاف من الجيش ، دخل دخول المهزوم المخذول الذى يعلم فى نفسه أى إثم عظيم أتاه ، وفى تقديرى أن فى عنق عبيد الله تقع المسئولية الكبرى ، فقد أدى تركه لجيش الإمام إلى زعزعته وتفلل وحداته واضطرابه ، وأصبحت البقية الباقية من الجيش تفتش عن قائدها ليصلى بها صلاة الصبح فلا تجده .

---

(١) مجلة العالم العربى — العدد الثانى — السنة ١١ .

ولما رأى قيس بن سعد ما حدث من الفتنة السوداء ، قام فصلى بهم صلاة الصبح ، وبعد الفراغ منها قام خطيباً ، فهدأ روعهم وأثابهم إلى الصواب والرشاد وقال فى خطابه :

« إن هذا وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خيراً قط ، إن أباه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يقاتله ببدر فأسره أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصارى ، فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ فداءه فقسمه بين المسلمين ، وإن أخاه ولاه علىّ على البصرة ، فسرق ماله ومال المسلمين فاشترى به الجوارى ، وزعم أن ذلك له حلال ، وإن هذا ولاه علىّ على اليمن فهرب من بسر بن أرطاة ، وترك ولده حتى قتلوا ، وصنع الآن ما صنع »[١]. وكان قيس مؤثراً جدًّا ، وكان من تأثيره على سامعيه فيما ثلب به عبيد الله بن العباس أن « تنادى الناس : الحمد لله الذى أخرجه من بيننا » .

ومما لا شك فيه أن خذلان عبيد الله بن العباس كان العامل الأساسى الذى سبب تفكك الجيش وتخاذله ، فقد طعن الجيش العراقى وفتح باب الخيانة والغدر ، ومهد السبيل للالتحاق بمعاوية . وقد وجد ذوو النفوس الضعيفة مجالا واسعاً للغدر بخيانتهم للإمام ، فاتخذوا من غدر عبيد الله وسيلة لذلك فهو ابن عم الإمام ومن أقرب الناس إليه ، وقديماً قد قيل :

إذا فاتك الأدنى الذى أنت حزبه فلا عجب إن أسلمتك الأباعد

وكان لغدر عبيد الله فى نفس الإمام حزن بالغ وأسى مرير ، فإنه لم يرع

---

(١) مقاتل الطالبيين .

الدين ولا الوتر ولا الرحم الماسة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا من قائده الأعلى ، ولا الميثاق الذى واثق الله عليه فى البيعة منذ كان أول من دعا الناس إلى بيعة الحسن فى مسجد الكوفة ، ولا الخوف من حديث الناس ونقمة التاريخ .

هل اكتفى معاوية بخيانة عبيد الله بن عباس ؟ قطعاً لا . فقد تلوّن معاوية تلوناً مخيفاً ، فعمد إلى سلة أكاذيب يختار منها ما يشاء ، ثم يبعث بها إلى معسكرات الحسن . ١٠. فكان يدس إلى عسكر الحسن فى المدائن من يتحدث : إن قيس بن سعد – وهو قائد مسكن بعد فرار عبيد الله بن عباس – قد صالح معاوية وصار معه ، ويوجه إلى عسكر قيس فى مسكن من يتحدث أن الحسن قد صالح معاوية وأجابه . ثم ينشر فى إشاعة أخرى على معسكر المدائن « ألا إن قيس بن سعد قد قتل فانفروا » .

وهكذا بلغ معاوية بفتنته ما أراد .

وما منى الإسلام منذ ضرب بجرانه على جزيرة العرب بأفدح من هذه النكبة التى يترنح بها موقف الخلافة الإسلامية بين تثاقل الجنود ، وتخاذل الزعماء ، وخيانة القائد ، وفتن العدو .

إنها الظروف القاهرة التى بدأت تنذر بأكداس من الخطوب والنكبات والتى ستجر حتماً إلى نهاية تاريخ قصير كان أنصع وأروع صفحات التاريخ الإسلامى وأبعدها ارتفاعاً فى المجد ، وأقربها أسباباً إلى الفخر ، إنها الكارثة التى تؤذن باللحظة المشؤومة فى تاريخ الإسلام ، واللحظة القائمة على عملية

الفصل بين العهدين : عهد الخلافة بمميزاتها ومثالياتها ، وعهد (الملك العضوض) وبلائه المقدر المفروض .

وكان الحسن عليه السلام أعرف الناس بقيم هذه المعنويات المهددة ، وأحرص المسلمين على حفظ الإسلام ، والرجل الحديدى الذى لا تزيده النكبات المحيطة به إلا لمعاناً فى الإخلاص ، واتقاداً فى الرأى ، واستبسالا فى تلبية الواجب وتفادياً للمبدأ .

ولم يكن لتساوره الحيرة على كثرة ما كان فى موقفه من البواعث عليها ، ولا وجد فى صدره حرجاً ولا تلوّماً ولا ندماً ، ولكنه وقف ليختار الرأى ، وليرسم الخطة وليتخذ التدابير .

يقول ابن كثير : « وهو – يعنى الإمام الحسن – فى ذلك الإمام البار الراشد الممدوح ، وليس يجد فى صدره حرجاً ولا تلوّماً ولا ندماً ، بل هو راض بذلك مستبشر به » .

أسباب الصلح

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى الإمام الحسن :

[إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به
بين فئتين من المسلمين عظيمتين] .

إن الحسن كان رجل صدق ، قد كره الفرقة وآثر اجتماع الكلمة ، وخاض غمرات الفتنة على كره منه ، قاوم الفتنة ما وسعته مقاومتها أيام عثمان فلم يخض فيما خاض الناس فيه من حديثها ، ولم يشارك فى المعارضة حين عظم الشر.

ولو استطاع الحسن لاعتزل الفتنة اعتزالا كما فعلت تلك المعتزلة مع أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان من رأى الحسن ألا يرحل الإمام علىّ رضى الله عنه إلى العراق للقاء طلحة والزبير والسيدة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وكان يكره له أن يذهب إلى دار غربة ويتعرض للموت ولم يوائمه الإمام أبداً حتى بكى الحسن ذات يوم حين رأى ركاب أبيه تؤم العراق فقال له أبوه : « إنك لتحن حنين الجارية » .

هذه مقدمة لا بد منها لأسباب الصلح ترينا طبيعة الإمام الحسن رضى الله عنه ، وبعد ذلك نستطيع أن نجمل الأسباب التى أدت إلى صلح الإمام

مع معاوية فيما يأتى :

أولا : عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال فى الإمام الحسن : « إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين عظيمتين » .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ الحسن وهو صبى فأجلسه إلى جانبه على المنبر ، وجعل ينظر إليه مرة ، وينظر إلى الناس مرة أخرى ، يفعل ذلك مراراً ثم قال : « إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين عظيمتين » .

وقد وقع هذا الحديث من نفس الإمام الحسن أى موقع ، وقد ذكره حين ثارت الفتنة ، وقد اجتهد عندما حاول أن يشير على والده أمير المؤمنين فى مواطن وظروف كثيرة أن يصلح بين هاتين الفئتين من المسلمين فيحقق نبوءة جده صلى الله عليه وسلم .

ومن وراء أفق الإمام الحزين رجع إلى الماضى ليرى صورة ممتعة[١] من طفولته المباركة وصباه الباكر الكريم فتطلع منها إلى أيامه البيض الحافلة بالنور فى المدينة المنورة يوم كان يدرج فيها بموقعه الممتاز ومقامه المدلل المرمرق بين أقرانه وأترابه ، ويوم كان يلعب ويمرح فيها ، ولكن بين سواعد أبويه العظيمين ، وعلى صدر جده الأعظم أو على ظهره المقدس أو على أعواد منبره الشريف ، ويوم كان يتلقف الوحى منذ لحظاته الأولى ، ويتعلم كلمات الله من لسان نبى الله صلى الله عليه وسلم ، ويتخرج بعلمه على مصدر العلم ،

(١) صلح الإمام الحسن = الشيخ راضى آل ياسين .

ويضع النقاط على الحروف ليستقبل سيادته على الناس وإمامته المفروضة فى أعناق المسلمين ، وإنه ليستمع إلى جده حين كان يراود الناس فى كل مناسبة على الاعتراف له ، بلسان أشبه بمباهاة ، كلما ذكر ابنه الحسن للسيادة والإمامة ، وطالما ذكره لهما فى حديثه أو ذكرهما له .

كانت عهوداً مفعمة بروح العظمة ، وبعظمة الروح جديرة بأن تهيب بالحسن فيتذكر منها أطيب الذكريات وأحفلها بالغبطة والقوة والمكرمات ، وكانت هذه الذكرى مفتاح ذكريات من حقها أن تؤنسه وأن تنسيه مزعجات لحظته الأخيرة ، ولعل أسطع فترة فى حياة كل إنسان هى فترة طفولته البريئة بما يعمرها من الروابط المقدسة فيتذكر الحسن جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد وضعه على منكبه الأيمن ، ووضع أخاه الحسين على منكبه الأيسر فاستقبله أبو بكر فقال لهما : « نعم المركب ركبتما يا غلامان » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ونعم الراكبان هما ، إن هذين الغلامين ريحانتاى من الدنيا » .

وذكر يوم جثا جده وأركبه على ظهره وأركب معه أخاه الحسين وقال لهما : نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما ، وذكر مرة أخرى يوم جاء ووجده ساجداً فركب رقبته وهو فى صلاته ، ويوم جاء وجده راكع فأفرج له بين رجليه حتى خرج من الجانب الآخر[1] .

وذكر يوم قيل لجده : « يا رسول الله إنك تصنع بهذا – يعنى الحسن –

---

(١) الإصابة .

شيئاً لم تصنعه بأحد » فقال : « إن هذا ريحانتى وإن ابنى هذا سيد سيصلح الله به بين فئتين من المسلمين » ، وذكر يوم كان طفلاً بين يدى أمه فاطمة عليهما السلام ودخل عليها أبوها رسول الله صلى الله عليه وسلم ورآه يلعب فقال لها : « إن الله تعالى سيصلح على يدى ابنك هذا بين فئتين عظيمتين من المسلمين » وفى الموقف الرهيب الذى واجهه الإمام تمثل أمامه ذلك الحديث الذى انطبع بلا شك فى أعماق نفسه ، وفى دخائل ذاته منذ نعومة أظفاره وإنه ليطمئن إلى قول جده كما يطمئن إلى محكم التنزيل ، وها هو ذا جده العظيم يقول له ، وكأن صوته الشريف يرن بعذوبته المحببة فى أذنه ويقول لأمه الطاهرة البتول ويقول على منبره ، ويقول بين أصحابه : « إن ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين » .

ويرجع الحسن إلى نفسه فيقول : ترى هل أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أصالح اليوم أهل الشام ؟ وهل أهل الشام البغاة فئة مسلمة يصح أن يعنيها هذا الحديث ؟ وهل هذه هى الفتنة التى أرادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم لإصلاحها ؟ أو قد فقدنا الكفاية لقمعها من طريق القوة ؟ كل ذلك كان يراود الحسن فيثير فى نفسه تفاعلا عنيفاً ينذر بانقلاب تاريخ وكل هذه الأسئلة كانت تنتظر الجواب من الحسن استعداداً للمصير الأخير .

وبعثت هذه الذكريات بما فيها التوجيه النبوى الذى استشعر منه الحسن حماية جده له فى أحرج ساعاته فكرة الإنقاذ للموقف فيما لو أتيح لهذه الأسئلة أجوبتها المطابقة لمقتضى الحال .

نعم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك يقيناً دون شك ، وإن هذه الفتنة هي الفتنة التي عناها فيما لوح إليه في أحاديثه الشريفة ، ولا فتنة أعظم من فتنة تشق المسلمين انشقاقهم هذا فتلهيهم عما يُراد بهم من أعدائهم الواقفين لهم بالمرصاد ، وعما يراد منهم من إعمار وتنظيم وجهاد ، وأما الحكم على البغاة بحصانة الإسلام ، فهو ما يشير إليه موقف أمير المؤمنين عليه السلام منهم حين منع سبي نسائهم وذراريهم وكفى بسيرة أمير المؤمنين أسوة صالحة وقدوة في الدين راجحة .

ويرى أستاذنا العميد الدكتور طه حسين أن الحسن كان يميل إلى السلم بتأثير حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي ينبئه أن سيصلح بين فئتين كبيرتين من المسلمين وأن هذا الحديث قد وقع في نفس الصبي أي موقع وأنه قد ذكره حين ثارت الفتنة وكأنه حاول بمشورته على أبيه في مواطنه تلك أن يصلح بين هاتين الفئتين من المسلمين فيحقق نبوءة جده ، ويؤيد هذا الرأي الفريق الأكبر من المسلمين فيقول ابن تيمية : « دل الواقع على أن رأي ولده حسن من ترك القتال كان أجدى وأنفع للأمة ويستند إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين كبيرتين من المسلمين) .

ثانياً : إنه في الوقت الذي ظل فيه جيش معاوية محتفظاً بالولاء لحكومته ولم يصب بالرجّات التي أصيب بها جيش الإمام ، فقد مُني جيش الإمام بالانحلال والتفكك والتمرد فقد تضاربت الحزبية فيه كما أن الجنود قد

سئموا من الحروب ، ولا شك أنه مما زاد فى ضعف جيش الإمام حرب الصفين والنهروان فقد طحنت الحرب فيها جمعاً غفيراً منهم حتى أصبحوا يكرهون الحرب ويؤثرون السلم ويحبون العافية ، وكذلك فإن الجيش العراقى لم يربح فى حرب الجمل وصفين والنهروان شيئاً من العتاد والأموال ، ومن الأسباب التى أدت إلى تفلل الجيش العراقى فقده للقوى الواعية من أعلام الإسلام الذين آمنوا بحق أهل البيت وعرفوا فضلهم وتضارب الحزبية فيه .

ثالثاً : والعامل الثالث الذى دعا الإمام إلى المصالحة والمسالمة هو ما يتمتع به خصمه من القوى العسكرية وغيرها التى لا طاقة للإمام على مناجزتها .

رابعاً : ومن العوامل التى دعت الإمام إلى الصلح ما روع به من اغتيال أبيه ، فقد ترك ذلك حزناً مقيماً وأسى شديداً فى نفسه لأنه قد قتل على غير مال احتجبه ولا سنة فى الإسلام غيرها ولاحق اختص به دونهم ، وكان يحيا بينهم حياة الفقراء والضعفاء ويتطلب لهم حياة حافلة بالنعم والخيرات ويسعى جاداً فى إقامة العدل ، فعمدوا إلى اغتياله وتركوه صريعاً فى محرابه لم يحفظوا حرمته ولا حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، وقد رأى الإمام الحسن عليه السلام بعد ارتكابهم لهذه الجريمة النكراء أنه لا يمكن إصلاحهم وإرجاعهم إلى طريق الحق والصواب فزهد فى ولايتهم وقد قال : « وقد زهدنى فيكم اغتيالكم أبى » .

خامساً : ومن دواعى الصلح رغبة الإمام الملحة فى حقن دماء المسلمين وعدم إراقتها ولو فتح باب الحرب مع معاوية لضحى بشيعته وأهل بيته ويجتث

بذلك الإسلام من أصله ، وقد صرح عليه السلام بذلك فى جوابه عن دوافع صلحه فقال : « إنى خشيت أن يجتث المسلمون عن وجه الأرض ، فأردت أن يكون للدين ناعى » ، فقد شهد الحسن مع أبيه مشاهد فى البصرة وصفين والنهروان ، ويقول أستاذنا العميد الدكتور طه حسين إنه يعتقد أن الإمام الحسن وأخاه أبا الشهداء قد شهدا هذه الحروب دون أن يشاركا فيها ، بل إن أباهما كان يضن بهما على الخطر مخافة أن يصيبهما شر فتنقطع ذرية النبى صلى الله عليه وسلم ، كان يقيهما بنفسه وبأخيهما محمد بن الحنفية ، وكان يشتد على محمد هذا ويعنف به إن رأى منه فى الحرب أناة أو تقصيراً حتى كلمه فى ذلك بعض أصحابه . فقد كان الإمام علىٌّ إذاً أشد الناس إيثاراً للحسن والحسين لمكانهما من النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان أصحابه يصنعون صنيعه فى ذلك فيؤثرونهما بالخير والبر ، ويروى أن رجلا أُهدى إلى الحسن والحسين وترك محمداً فلم يُهد إليه شيئاً فلما رأى علىٌّ ذلك من الرجل وضع يده على كتف الرجل وتمثل :

وما شر الثــلاثة أُم عمرو ... بصاحبك الذى لا تصبحينا

فذهب الرجل فأهدى إلى محمد كما أهدى إلى أخويه .

ومن هذا نرى أن الحسن كان كارهاً للفتنة منذ ثارت .

وأجاب عليه السلام بعض الناقمين عليه من شيعته فى الصلح فقال : « ما أردت بمصالحتى معاوية إلا أن أدفع عنكم القتل » ، وأعرب فى خطابه الذى ألقاه فى المدائن عن مدى اهتمامه بدماء المسلمين فقد جاء فيه :

«أيها الناس إن الأمر الذى اختلفت فيه أنا ومعاوية إنما هو حق أتركه لإصلاح أمر الأمة وحقن دمائها» .

ومن حيطته ورعايته لذلك أنه أوصى أخاه الحسين حينما وافاه الأجل المحتوم أن لا يهرق فى أمره ملء محجمة دماً ، إن أحب شىء للإمام عليه السلام الحفاظ على دماء المسلمين ونشر الأمن والوئام فيما بينهم ، وقد بذل فى سبيل ذلك جميع جهوده ومساعيه .

سادساً : لقد علم الإمام الحسن أنه إن حارب معاوية فإن العراقيين قد يسلمونه أسيراً إلى معاوية ، وأغلب الظن أنه لا يقتله بل يخلى عنه ويسجل له بذلك مكرمة وفضيلة ، ويسدى يداً بيضاء على عموم الهاشميين ويغسل عنه العار الذى لحقه من أنه طليق وابن طليق ، وقد صرح الإمام الحسن بهذه الخاطرة فقال : «والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقى حتى يدفعونى إليه سلماً . والله لئن أسالمه وأنا عزيز أحب إلى من أن يقتلنى وأنا أسير أو يمنّ علىّ فتكون سبة على بنى هاشم إلى آخر الدهر ولمعاوية لا يزال يمن بها هو وعقبه على الحى منا والميت» .

سابعاً : انضمام المحنكين والسياسيين إلى معاوية طمعاً فى ماله ودنياه وهم كالمغيرة بن شعبة الذى قيل فى حيلته ودهائه : «لو كان المغيرة فى مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج منها إلا بالمكر والخداع لخرج المغيرة من أبوابها كلها» . وكان من حاشيته عمرو بن العاص وكان فى طليعة من رفع علم الثورة على عثمان لأنه عزله من منصبه ، وهو الذى خدع الجيش العراقى

برفع المصاحف فتركه ممزق الأوصال ، لقد جذب معاوية هؤلاء الدهاة ، ووقف الإمام الحسن معهم فى صلحه أحزم موقف يتخذه المفكرون فقد حفظ ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقن دماء المؤمنين .

ثامناً : ومن جملة الأسباب التى دعت الإمام إلى الصلح الحوادث التى لاقاها فى المدائن وهى :

(ا) خيانة الزعماء والوجوه واتصالهم بمعاوية .

(ب) الحكم عليه بالتكفير من قبل الخوارج .

(جـ) اغتياله - نهب أمتعته .

تاسعاً : قد يكون من المفيد أن أسجل ما لاقاه أنصار الإمام الحسن وأن أعرض نماذج من الذين أوذوا بسبب موقفهم من الإمام :

١ - محمد بن أبى حذيفة :

يعد فى طليعة رجال الإسلام الساهرين على مصلحته والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر وقد قال أمير المؤمنين (ع) فى حقه : « إن المحامدة تأبى أن يعصى الله » ثم عده منهم ، وكان ملازماً لأمير المؤمنين وفى خدمته ، ولما قتل (ع) وانتهى الأمر إلى معاوية أراد قتله ثم بدا له أن يسجنه فسجنه أمداً غير قصير ، والتفت يوماً إلى أصحابه فقال لهم : « ألا نرسل إلى هذا السفيه محمد بن أبى حذيفة فنبكته ونخبره بضلاله ، ونأمره أن يقوم فيسب عليًّا » فقالوا له نعم ، ثم أمر بإحضاره فلما مثل عنده التفت إليه :

« يا محمد ألم يأن لك أن تبصر ما كنت عليه من الضلالة بنصرتك على ابن أبى طالب (ع) ؟ ألم تعلم أن عثمان قتل مظلوماً وأن عائشة وطلحة والزبير خرجوا يطلبون بدمه وأن عليًّا هو الذى رس الناس فى قتله ونحن اليوم نطلب بدمه ؟ » .

فأجابه محمد : « إنك تعلم أنى أمس القوم بك رحماً وأعرفهم بك » .

– أجل .

« فو الله الذى لا إله غيره ما أعلم أحداً شرك فى دم عثمان وألّب الناس عليه غيرك لما استعملك ، ومن كان متلك فسأله المهاجرون والأنصار أن يعزلك فأبى ففعلوا به ما بلغك ، ووالله ما أحد شرك فى قتله بدءاً وأخيراً إلا طلحة والزبير وعائشة ، فهم الذين شهدوا عليه بالعظمة وألبوا عليه الناس ، وشركهم فى ذلك عبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وعمار والانصار جميعاً » .

فارتاع معاوية وقال منكراً عليه :

« قد كان ذلك ؟ ! ! »

– أى والله ، وإنى لأشهد أنك منذ عرفتك فى الجاهلية والإسلام لعلى خلق واحد ، ما زاد الإسلام فيك لا قليلا ولا كثيراً وإن علامة ذلك فيك لبقيةتلومنى على حبي عليًّا ، خرج مع على كل صوام قوام مهاجرى وأنصارى ، وخرج معك أبناء المنافقين والطلقاء والعتقاء خدعتهم عن دينهم وخدعوك عن دنياك ، والله يا معاوية ما خفى عليك ما صنعت وما خفى عليهم ما صنعوا

إذا أحلوا أنفسهم بسخط الله فى طاعتك ، والله لا أزال أحب عليًّا لله ولرسوله وأبغضك فى الله ورسوله أبداً ما بقيت ! ! » .

– « وإنى أراك على ضلالك بعد ردوه إلى السجن » .

فردوه له فمكث مدة من الزمن حتى مات فيه .

لقد لاقى محمد حتفه وهو مروع فى ظلمات السجون لأنه لم يرتض أعمال معاوية ولم يقره على منكراته وأباطيله ، وهكذا كان مصير الأحرار والنبلاء المعارضين لحكومة معاوية يلاقون التعذيب والتنكيل والتخليد فى السجون .

٢ – عبد الله بن هاشم المرقال :

ومن الذين أراعهم معاوية وأدخل الفزع فى نفوسهم الزعيم المثالى عبد الله ابن هاشم المرقال فقد كان معاوية يحمل فى نفسه كمداً وحقداً عليه ، وذلك لولائه وإخلاصه لأمير المؤمنين (ع) ولموقف أبيه هاشم فى يوم صفين ، ذلك الموقف الخالد الذى أخافه وأزعجه حتى صمم على الهزيمة والفرار وللتشفى والانتقام منه ، فقد كتب إلى عامله زياد رسالة يطلب فيها القبض على نجل هاشم عبد الله كى ينكل به وهذا نص ما كتبه :

« أما بعد فانظر عبد الله بن هاشم بن عتبة فشد يده إلى عنقه ثم ابعث به إلىّ » .

ولما وصلت رسالة معاوية إلى زياد قام فى طلبه ولما علم بذلك عبد الله هرب

منه واختفى ، وعلم به بعض الأوغاد فجاء إلى معاوية ليتقرب إليه فاخبره أنه قد اختفى عند امرأة مخزومية فى الوقت دعا معاوية كاتبه فكتب إلى زياد رسالة وها هى ذى :

« أما بعد فإذا أتاك كتابى هذا فاعمد إلى حى بنى مخزوم ففتشه داراً داراً حتى تأتى إلى دار فلانة المخزومية فاستخرج عبد الله بن هاشم المرقال منها ، فاحلق رأسه وألبسه جبة شعر وقيده وغل يده إلى عنقه واحمله على قتب بغير وطاء ولا غطاء وأقدمه إلى » .

فامتثل زياد أمر معاوية ففتش حى بنى مخزوم حتى ظفر بعبد الله فحمله إليه بالكيفية التى أرادها وهو مهان الجانب محطم الكيان ، فوصل إلى دمشق يوم الجمعة وهو يوم القبول الذى أعده معاوية لمقابلة أشراف قريش ووجوه العراقيين فلم يشعر معاوية إلا وابن هاشم قد أدخل عليه ، فصرفه ولم يعرفه مستشاره ابن العاص فالتفت معاوية إليه قائلا :

« يا أبا عبد الله ، هل تعرف هذا الفتى ؟ » قال لا .

هذا الذى يقول أبوه يوم صفين :

إنى شربت النفس لما اعتلا وأكثر اللوم وما أقلا

أعدد يبغى أهله محلا قد عالج الحياة حتى ملا

لا بد أن يفل أو يفلا أسلهم بذى الكعوب سلا

لا خير عندى فى كريم ولى

وظهرت الدهشة على ابن العاص والتفت إلى معاوية وقال :

« دونك يا أمير المؤمنين الضب المضب فاشخب أوداجه على أثباجه ولا ترده إلى أهل العراق ، فإنه لا يصبر على النفاق . وهم أهل غدر وشقاق ، وحزب إبليس ليوم هيجانه وإن له هوى سيوديه ورأياً سيطفيه ، وبطانة ستقويه ، وجزاء سيئة سيئة مثلها » .

فانبرى إليه عبد الله كالأسد الغضبان مسدداً إليه سهاماً من القول غير هياب له قائلا :

« يا عمرو ، إن أقتل فرجل أسلمه قومه ، وأدركه يومه . أفلا كان هذا منك إذ تحيد عن القتال ونحن ندعوك إلى النزال ، وأنت تلوذ بشمال النطاف[١] وعقائق الرصاف[٢] كالأمة السوداء ، والنعجة القوداء لا تدفع يد لامس ؟ »

فاغتاظ ابن العاص ولم يستطع أن يقول شيئاً سوى التهديد والتوعيد وإعلان الظفر والغلبة عليه قائلا : « أما والله لقد وقعت فى لهازم[٣] شدقم للأقران ذى لبد ولا أحسبك منفلتاً من مخالب أمير المؤمنين » .

فأجابه ابن هاشم غير معتن بتهديده وتوعيده :

« أما والله يابن العاص إنك لبطر فى الرفاء جبان عند اللقاء عشوم إذا وليت هياب إذا لقيت تهدر كما يهدر العود المنكوس المقيد بين مجرى الشوك لا يستعمل فى المدة ولا يرتجى فى الشدة ، أفلا كان هذا منك إذ غمرك أقوام

(١) النطاف : الماء القليل

(٢) العقائق : سهام الاعتذار ، والرصاف . الحجارة التى توضع عند مسيل الماء .

(٣) اللهارم = جمع مفرده لهزم وهى الأنياب – والشدقم الأسد .

لم يعنفوا صغاراً ، ولم يمزقوا كباراً لهم أيد شداد ، وألسنة حداد يدعمون العوج ، ويذهبون الحرج ، يكثرون القليل ، ويشفون الغليل ، ويعزون الذليل ؟ »

فلم يطق ابن العاص جواباً وبقى يفتش فى حقيبة مكره عيباً أو سوءاً يوصم به عبد الله فلم يجد شيئاً سوى افتعال الكذب فقال :

« أما والله لقد رأيت أباك يومئذ تخفق أحشاؤه وتبقى أمعاؤه وتضطرب أصلاؤه[١] كأنما انطبق عليه صمد » .

فانبرى إليه عبد الله مجيباً عن بهتانه وكذبه قائلا له :

« يا عمرو إنا قد بلوناك ومقالتك فوجدنا لسانك كذوباً غادراً ، خلوت بأقوام لا يعرفونك وجند لا يساومونك ، ولو رمت المنطق فى غير أهل الشام لجحظ عليك عقلك[٢]، ولتلجلج لسانك ولاضطرب فخذاك اضطراب القعود الذى أثقله حمله » .

والتفت إليهما معاوية قاطعاً حديثهما قائلا : « أيهاً عنكما » ثم أمر بإطلاق سراح عبد الله ، فاستاء ابن العاص لهذا العفو ، وانبرى إلى معاوية محرضاً له على الفتك والبطش به ومذكراً له موقف أبيه هاشم فى صفين .

---

(١) الأصلاء : أواسط الظهر .

(٢) جحظ عقله : أى نظر إلى رأيه فرأى سوء ما ارتأى .

٣ – عبد الله بن خليفة الطائى :

وعبد الله بن خليفة الطائى ممن عرف بالولاء والإخلاص لأهل البيت وللإمام على فقد جاء إليه حينما توجه (ع) إلى البصرة فقال له :

« الحمد لله الذى رد الحق إلى أهله ، ووضعه فى موضعه ، فإن كره ذلك قوم فقد والله كرهوا محمداً صلى الله عليه وسلم ونابذوه وقاتلوه ، فرد الله كيدهم فى نحورهم وجعل دائرة السوء عليهم ، والله لأجاهدن معك فى كل موطنٍ تحفظاً لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقد دل حديثه على إيمانه وعقيدته وطيب عنصره وحسن رأيه ، وكان من المقربين عند الإمام ومن الذين يستشيرهم فى مهام أموره .

وكان عبد الله فى طليعة أصحاب حجر ومن المعارضين للسياسة الأموية ومن المشتركين معه فى ثورته ، ولما قبض زياد على حجر وأصحابه أمر شرطته (وهم أهل الحمراء) أن يأتوه بعبد الله ففتشوا عنه فوجدوه فناجزهم عبد الله وأخيراً استولوا عليه فنادت أخته النوار بقومها وأسرتها محرضة لهم على نجدة أخيها ونصرته قائلة :

« يا معشر طيئ أتسلمون سنانكم ولسانكم عبد الله بن خليفة ؟ »

فثار الطائيون على الشرطة فضربوهم وناجزوهم حتى انتزعوا منهم عبد الله فرجعت الشرطة إلى زياد وأخبرته بالأمر فاستدعى زعيم طيئ وعميدهم عدى بن حاتم فقال له :

« إئتين بعبد الله بن خليفة ؟ »

وبعد حديث جرى بينهما قال ابن حاتم له مقالا يلمس فيه شرفه ونبله وسمو نفسه :

« لا والله لا آتيك به أبداً ، أجيئك بابن عمى تقتله ؟ والله لو كان تحت قدمى ما رفعتهما عنه » .

فالتاع زياد وأمر به إلى السجن ، ولم يبق بالكوفة يمانى ولا ربعى إلا أتوا زياداً فكلموه فى شأن عدى وأخبروه بعظم شأنه وشرفه فاضطر زياد إلى إطلاق سراحه بشرط أن يغيب ابن عمه عن الكوفة فوافق عدى على ذلك وأمر عبد الله أن يغادر الكوفة ويلحق با (لجبلين) فغادر عبد الله الكوفة وقد سرى الألم العاصف فى محياه على بعده عن وطنه وعلى فراقه لأصحابه وأهله وقد أرسل إلى عدى بعد نفيه قصيدة عصماء يرثى بها حجراً وأصحابه ويذكر فيها ما يعانيه من الألم والحزن على بعده عن وطنه فيقول فى رثاء حجر :

ولاقى بها[1] حجر من الله رحمة ... فقد كان أرضى الله حجر وأعذرا
ولا زال تهطال ملث وديمـــــة ... على قبر حجر أو ينادى فيحشرا
فيا حجر من للخيل تدمى نحورها ... وللملك المقرى إذا ما تغشمرا[2]
ومن صادع بالحق بعدك ناطق ... بتقوى ومن إن قيل بالجور غيرا
فنعم أخو الإسلام كنت وإننى ... لأطمع أن تؤتى الخلود وتحبرا

---

(١) الضمير يرجع إلى مرج عذراء

(٢) تغشمرا : أى أخذ قهراً وظلماً .

وقد كنت تعطى السيف فى الحرب حقه وتعرف معروفاً وتنكر منكرا

ثم يسترسل فى رثاء حجر فيذكر صفاته الرفيعة ومواهبه وملكاته ويبكيه أمر البكاء وينتهى فى قصيدته إلى وصف محنته وإلى ما يلاقيه من الألم والأسى فى غربته فيقول :

فها أنا ذا آوى بأجبال طيئ طريداً فلو شاء الإله لغيرا

تعاف عدوى ظالماً عن مهاجرى رضيت بما شاء الإله وقـدرا

وأسلمنى قومى بغير جنـــاية كأن لم يكونوا لى قبيلا ومعشرا

وذكر الطبرى وابن الأثير بقية القصيدة وقد أعرب فيها عن لوعته وحزنه على فراقه لأهله ووطنه ، وقد ظل منفيًّا حتى مات بالجبلين قبل موت زياد[١] .

٤ – صعصعة بن صوحان :

وصعصعة بن صوحان من سادات العرب وفصحائهم النابهين وخطبائهم المفوهين كان من ذوى الفضيلة والدين وقد أسلم على عهد رسول الله (ص) وهو صغير ولم يجتمع به لصغر سنه ووفد على الخليفة الثانى وكان يقسم أموال الغنائم وكان مقدارها ألف ألف درهم نفضها على المسلمين وبقيت منها فضلة فاختلفت الصحابة فى تلك الفضلة أين يضعونها فقام فيهم عمر خطيباً فقال فى خطابه :

« أيها الناس ، قد بقيت لكم فضلة بعد حقوق الناس ، فماتقولون فيها » .

---

(١) الطبرى (ج ٦ ص ١٥٧) الكامل (ج ٣ ص ٢٤١) .

فانبرى إليه صعصعة منكراً عليه تحيره فى هذه المسألة البسيطة قائلا :
« يا أمير المؤمنين ، إنما تشاور الناس فيما لم ينزل الله فيه قرآناً ، وأما ما أنزل الله به القرآن ووضعه مواضعه فضعه فى مواضعه التى وضعه الله تعالى » .

فاستحسن عمر رأيه وقال له : « صدقت أنت منى وأنا منك » ثم قسم المال بين المسلمين »[١].

وكان صعصعة فى طليعة أصحاب أمير المؤمنين (ع) ومن الملازمين له وقال الإمام الصادق عليه السلام فى حقه : « ما كان مع أمير المؤمنين من يعرف حقه إلا صعصعة وأصحابه »[٢] ومرض صعصعة فعاده (ع) فقال له : « يا صعصعة ، لا تتخذ عيادتى لك أبهة على قومك ! ! » .

— بلى والله أعدها منة من الله وفضلا على .

— إنك إن كنت على ما علمتك فأنت خفيف المؤنة حسن المعونة .

— وأنت والله يا أمير المؤمنين بالله علماً وبالمؤمنين رءوفاً رحيماً[٣] .

ولحصافة رأيه وسداد منطقه كان الإمام (ع) يرسله فى مهامه فقد أرسله مرة إلى معاوية ومعه كتاب منه فلما انتهى إليه قال معاوية مشيداً بنفسه ومبرراً لأعماله :

« الأرض لله وأنا خليفة الله فما آخذ من مال الله فهو لى وما تركت منه كان جائزاً لى » .

---

(١) الاستيعاب (ج ٢ ص ١٨٩) .

(٢) التعليقات ص ١٨٣

(٣) نفس المصدر .

وثقل على صعصعة هذا الكلام الملتوى الفارغ من الحق فانبرى إليه مجيبا :

تمنيك نفسك مالا يكون جهلا معاوى لا تأثم

فتألم معاوية وقال منددا به :

« تعلمت الكلام ؟ »

– العلم بالتعلم ومن لا يعلم يجهل .

– ما أحوجك إلى أن أذيقك وبال أمرك .

– ليس ذلك بيدك ، ذلك بيد الذى لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها .

– من يحول بينى وبينك ؟

– الذى يحول بين المرء وقلبه .

– اتسع بطنك للكلام كما اتسع بطن البعير للشعير .

– اتسع بطن من لا يشبع ، ودعا عليه من لا يجمع [١] .

ودل هذا الحديث على قوة جنان صعصعة وأنه ليس بالرعديد الهياب فلقد رد على معاوية مقالته بالمثل وقابله بالاستخفاف والاستهانة وهو غير هياب له ولا خائف من سلطته وسلطانه .

ولما انتقل الإمام أمير المؤمنين (ع) إلى حظيرة القدس وانحسم ظهر الإسلام باستيلاء ابن هند على زمام الحكم لاقى صعصعة من العناء أشده ومن الألم أمره ، فقد أودعه معاوية مع جماعة من أصحابه فى ظلمات

(١) مروج الذهب (ج ٢ ص ٣٤٢)

السجون ، ودخل عليهم وهم فى سجنه فقال لهم :

« نشدتكم بالله إلا ما قلتم حقًّا وصدقاً ، أى الخلفاء رأيتمونى ؟ »

فانبرى إليه عبد الله بن الكواء قائلا :

« لولا أنك عزمت علينا ما قلنا ، لأنك جبار عنيد ، لا تراقب الله فى قتل الأخيار ولكنا نقول : قد علمنا أنك واسع الدنيا ضيق الآخرة قريب الثرى ، بعيد المرعى ، تجعل الظلمات نوراً والنور ظلمات ! ! » .

فقال معاوية له : « إن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام الذابين عن بيضته ، التاركين لمحارمه ، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق المنتهكين لمحارم الله ، والمحلين ما حرم الله ، والمحرمين ما أحل الله » .

فأجابه ابن الكواء : « يا ابن أبى سفيان ، إن لكل كلام جواباً ونحن نخاف جبروتك ، فإن كنت تطلق ألسنتنا ذببنا عن أهل العراق بألسنة حداد لا يأخذها فى الله لومة لائم ، وإلا فإنا صابرون حتى يحكم الله ويضعنا على فرجه » .

فقال له معاوية : « لا والله لا يطلق لك لسان » .

وكان صعصعة من جملة الأشخاص الذين طلب لهم الإمام الحسن (ع) من معاوية الأمن وعدم التعرض لهم بسوء ومكروه ولكن معاوية لم يف بذلك فقد أراعه وأخافه وأودعه فى سجنه كما أراع غيره من الموالين لأهل البيت ، وصرحت بعض المصادر أن المغيرة نفى صعصعة بأمر معاوية من الكوفة إلى الجزيرة أو إلى البحرين أو إلى جزيرة ابن كافان فمات بها معتقلا منفيًّا عن

وطنه وبلاده وفى رثائه يقول المرزبانى[١] :

هلا سألت بنى الجارود أى فتى عند الشفاعة والبان ابن صوحانا

كنا وكانوا كأم أرضعت ولـــداً عقًّا ولم نجز بالإحسان إحسانا[٢]

٥ – عدى بن حاتم :

من أهم الشخصيات الرفيعة الفذة فى العراق فقد كان يتمتع بمجد وشرف ونبل فهو ابن حاتم مضرب المثل فى جوده وسخائه ، وبالإضافة إلى مجده الموروث فقد كان من أبطال العقيدة ومن عيون المؤمنين ومن رجال الإسلام البارزين ، وقد تعرض لكثير من الهوان والعسف من أجل ولائه وإخلاصه لأمير المؤمنين (ع) فقد دخل يوماً على معاوية فقال له متشمتاً به :

« ما فعلت الطرفات ؟ »[٣] .

– قتلوا مع على .

– ما أنصفك على قتل أولادك وأبقى أولاده ! ! .

– ما أنصفك على إذ قتل وبقيت بعده .

---

(١) المرزبانى : بفتح الميم وسكون الراء وضم الزاى وفتح الباء الموحدة وهو جد من انتسب إليه من الأعيان جاء ذلك فى اللباب (ج ٣ ص ١٢٤) وجاء فى وفيات الأعيان (ج ٣ ص ٤٤٣) أن لفظ المرزبان لفظ فارسى معناه صاحب الحسد ، فإن مرز معناه الحسد وبان معناه صاحب ، وهو فى الأصل عندهم اسم لمن كان دون الملك .

(٢) الإصابة (ج ٢ ص ١٩٢) .

(٣) الطرفات : هم أولاد عدى وهم طريف وطارف وطرفة .

فتألم معاوية من مقال عدى وقال مهدداً له :

« أما إنه قد بقى قطرة من دم عثمان ما يمحوها إلا دم شريف من أشراف اليمن — يعنى به عدياً » .

فانبرى إليه عدى وهو غير مكترث بتهديده وتوعيده قائلا له :

« والله إن قلوبنا التى أبغضناك بها لفى صدورنا ، وإن أسيافنا التى قاتلناك بها لعلى عواتقنا ، ولئن أدنيت إلينا من الغدر فتراً لندنين إليك من الشر شبراً ، وإن حز الحلقوم وحشرجة الحيزوم[1] لأهون علينا من أن نسمع المساءة فى على ، فسلم السيف يا معاوية لباعث السيف » .

فراوغ معاوية على عادته وقال :

« هذه كلمات حكم فاكتبوها » .

ثم أقبل عليه يحدثه كأنه لم يخاطبه بشىء[2] ثم قال له :

« صف لى علياً » .

— إن رأيت أن تعفينى .

— لا أعفيك .

فأخذ عدى فى وصف أمير المؤمنين فقال :

« كان والله بعيد المدى ، شديد القوى يقول عدلا ، ويحكم فصلا ، تتفجر الحكمة من جوانبه ، والعلم من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ،

---

(١) الحيزوم : وسط الظهر .

(٢) مروج الذهب (ج ٢ ص ٣٠٩) .

ويستأنس بالليل ووحشته ، وكان والله عزيز الدمعة ، طويل الفكرة ، يحاسب نفسه إذا خلا . ويقلب كفيه على ما مضى يعجبه من اللباس القصير ، ومن المعاش الخشن . وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، ويدنينا إذا أتيناه . ونحن مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه لهيبته ولا نرفع أعيننا إليه لعظمته . فإن تبسم فعن اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويتحبب إلى المساكين لا يخاف القوى ظلمه ، ولا ييأس الضعيف من عدله فأقسم لقد رأيته ليلة وقد مثل فى محرابه وأرخى الليل سرباله ، وغارت نجومه ، ودموعه تتحاور على لحيته ، وهو يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، فكأنى الآن أسمعه وهو يقول :

« يا دنيا ألى تعرضت أم إلى أقبلت ؟ غرِّى غيرى لاحان حينك ، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لى فيك ، فعيشك حقير ، وخطرك يسير ، آه من قلة الزاد وبعد السفر وقلة الأنيس » .

فوكفت عينا معاوية ، وجعل ينشفهما بكمه ثم قال :

« يرحم الله أبا الحسن كان كذلك . فكيف صبرك عنه ؟ »

— كصبر من ذبح ولدها فى حجرها فهى لا ترقأ دمعتها ، ولا تسكن عبرتها .

— فكيف ذكرك له ؟

— وهل يتركن الدهر أن أنساه ؟ .

وقد دل هذا الحديث على ولاء عدى لأمير المؤمنين ومن أجل ولائه وإخلاصه فقد روع وأفزع وقد تقدم أن زياداً أودعه فى السجن حقبة من

الأيام من أجل عبد الله بن خليفة الطائى ولم يراع شخصيته الكريمة ومكانته الاجتماعية وعظم منزلته وإنما فعل ذلك به ليقضى على أنصار أمير المؤمنين عليه السلام .

سياسة أهل البيت :

لكى يكون لدينا إيضاح كاف عن صلح الإمام الحسن رضى الله عنه فلا بد أن نعرض بعض الجوانب من سياسة أهل البيت لنبين مدى أصالة سياستهم البناءة ، ثم نقف على الأهداف الرفيعة التى ينشدون تحقيقها فى ظلال الحكم .

إن السياسة التى يجب أن تسود البلاد عند أهل البيت هى السياسة البناءة التى تضمن مصالح المجتمع وتحقيق المساواة والعدالة والفرص المتكافئة بين أبنائه .

إن سياسة أهل البيت قد تبنت العدل الخالص وهى سياسة لا تعتمد على المكر والمواربة .

أما الأهداف السليمة والمثل العليا التى رفع شعارها أهل البيت وتبنوها فهى :

أولا : العدل والمساواة لأن الإسلام أسبغ نعمة المساواة على الإنسانية بصورة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ المجتمع العالمى ، فقد أعلن المساواة العادلة ما بين الأفراد والجماعات وما بين الأجناس فلا فضل لأبيض على أسود

ولا لعربي على أعجمي ، فالناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لبعضهم على بعض إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وقد قيل إن من أهم الأسباب فى تخاذل العرب عن على بن أبى طالب كان اتباعه لمبدأ المساواة بين الناس حيث كان لا يفضل شريفاً على مشروف ولا عربيًّا على عجمى ولا يصانع الرؤساء والقبائل .

ثانياً : الحرية والصراحة والصدق ، وهم يتمثلون بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالصدق – فإن الصدق يهدى إلى البر – وإن البر يهدى إلى الجنة – وما زال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » (١)

إن أهل البيت قد ركزوا سياستهم على الصدق والصراحة وجنبوها المكر والخداع .

يقول الإمام على : « لولا أن المكر والخداع فى النار لكنت أمكر الناس ».
ويقول فى الغدر : « لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة » .

إن سياسة أئمة أهل البيت فى جميع الشئون قد عبرت عن جميع القيم الإنسانية الخيرة التى أعلنها الإسلام ، فهى لا تقر الغدر ولا المكر ولا الخداع

---

(١) رواه مسلم .

ولا تؤمن بأى وسيلة من وسائل النفاق الاجتماعى وإن توقف عليها النجاح السياسى المؤقت .

وسار الإمام الحسن على مخططات أبيه ومقرراته فى عالم السياسة والحكم فلم يعتمد على أى وسيلة لا يقرها الدين .

وكذلك يرى أهل البيت أن الموظفين فى جهاز الحكم لا بد أن يكونوا من خيرة الرجال فى الجدارة والنزاهة والكفاءة والقدرة على إدارة شئون البلاد ، ليضعوا المصلحة العامة نصب أعينهم ويسيروا بين الناس سيرة قوامها العدل الخالص والحق المحض ، ويكونوا أمناء فيما يجبونه من الناس وما ينفقونه على المرافق العامة وقد نظر أهل البيت إلى ما هو أبعد من ذلك وأعمق بكثير فقد فرضوا على ولاتهم أن يبتعدوا عن الناس بكل نحو من أنحاء الصلة لما عسى أن يكون لذلك من أثر على مجرى العدل ، ولذلك فإن أمير المؤمنين رضى الله عنه لما بلغه أن عامله بالبصرة سهل بن حنيف قد دُعى إلى مأدبة فأجاب إليها فكتب إليه يستنكر منه ذلك وقال : « أما بعد : يابن حنيف فقد بلغنى أن رجلا من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها ، تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان ، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو [١] وغنيهم مدعو ، فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم [٢] فما اشتبه

---

(١) مجفو : أى مطرود من البؤس والجفاء .

(٢) المقضم : المأكل .

عليك علمه فألقه وما أيقنت بطيب وجوهه[١] فنل منه » .

وأراد الأشعث بن قيس أن يتقرب إلى أمير المؤمنين ويتصل به فصنع له حلوى جيدة فقدمها إليه وقد وصف عليه السلام موقفه تجاه هذا الأمر فقال :

« وأعجب من ذلك طارق طرقنا بملفوفة فى وعائها ومعجونة . . .

فقلت : أصلة أم زكاة أم صدقة فذلك محرم علينا أهل البيت .

فقال : لاذا ولا ذاك ولكنها هدية .

فقلت : هبلتك[٢] الهبول ، أعن دين الله أتيتنى لتخدعنى ؟

أمختبط أم ذو جنة أم تهجر[٣] .

والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصى الله فى نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت ، وإن دنياكم عندى لأهون من ورقة فى فم جرادة تقضمها ، ما لعلى ولنعيم يفنى ولذة لا تبقى ، نعوذ بالله من سبات العقل[٤] وقبح الزلل وبه نستعين » .

هذه بعض المثل العليا التى ينشدها أهل البيت فى ظلال الحكم ولو أن الإمام الحسن انحرف عنها ونهج فى سياسته منهج من يعمل للدنيا وسلك مسلك من يبغى الملك والسلطان فراوغ وداهن وأنفق المال فى غير محله لما آل الأمر لمعاوية .

---

(١) بطيب وجوهه : أى بالحل فى طرق كسبه .

(٢) هبلتك بكسر الباء : ثكلتك – الهبول : المرأة التى لا يعيش لها ولد .

(٣) تهجر : تهذى بما لا معنى له .

(٤) نومه

كيف تم الصلح :

يرى فريق من المؤرخين ومنهم الطبرى وابن الأثير أن معاوية أرسل إلى الحسن صحيفة بيضاء مختوماً على أسفلها بختمه وكتب إليه « أن اشترط فى هذه الصحيفة التى ختمت أسفلها ما شئت فهو لك » ، واختلف المؤرخون اختلافاً كثيراً فيمن بادر لطلب الصلح وسنوفى هذه النقطة حقها بعد قليل .

وروى ابن عبد البر : « أن الإمام كتب إلى معاوية يخبره أنه يصير الأمر إليه على أن يشترط عليه ألا يطلب أحداً من أهل المدينة والحجاز ولا أهل العراق بشىء كان فى أيام أبيه ، فأجابه معاوية وكاد يطير فرحاً إلا أنه قال : أما عشرة أنفس فلا أؤمنهم فراجعه الحسن فيهم فكتب إليه يقول : إنى قد آليت متى ظفرت بقيس بن سعد أن أقطع لسانه ويده . فراجعه الحسن إنى لا أبايعك أبداً وأنت تطلب قيساً أو غيره بتبعة ، قلّت أو كثرت . فبعث إليه معاوية حينئذ برق أبيض وقال : اكتب ما شئت فيه وأنا ألتزمه فاصطلحا على ذلك واشترط عليه الحسن أن يكون له الأمر بعده فالتزم ذلك كله معاوية » .

والبعض يذكر أن الإمام أرسل سفيرين إلى معاوية هما عمرو بن سلمة الهمدانى ومحمد بن الأشعث الكندى ليستوثقا من معاوية ويعلما ما عنده .

وذكر جماعة من المؤرخين أن الإمام ومعاوية اصطلحا وارتضيا بما احتوته الوثيقة الآتية وهى « هذا ما صالح عليه الحسن بن على بن أبى طالب

ومعاوية بن أبى سفيان ، صالحه على أن يسلم إليه ولاية أمر المسلمين على أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الصالحين ، وليس لمعاوية ابن أبى سفيان أن يعهد إلى أحد من بعده عهداً بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين وعلى أن الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله فى شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم ، وعلى أن أصحاب علىٍّ وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم ، وعلى معاوية بن أبى سفيان بذلك عهد الله وميثاقه وما أخذ الله على أحد من خلقه بالوفاء و بما أعطى الله على نفسه ، وعلى ألا يبغى للحسن بن على ، ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم غائلة سرًّا ولا جهراً ، ولا يخيف أحداً منهم فى أفق من الآفاق شهد عليه فلان ابن فلان بذلك ، وكفى بالله شهيدا »[1] .

ويشك كثير من المؤرخين فى أن ما احتوت عليه هذه الوثيقة هو مجموع ما طلبه الإمام وإنما هى جزء من كل .

وأهم شروط الصلح التى ذكرتها بعض المصادر :

١ – تسليم الأمر إلى معاوية على أن يعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وسيرة الخلفاء الصالحين[2].

٢ – ليس لمعاوية أن يعهد بالأمر إلى أحد من بعده والأمر بعده للحسن فإن حدث به حدث فالأمر للحسين[3].

---

(١) كشف الغمة : الصواعق .

(٢) ابن أبى الحديد .

(٣) الإصابة : الإمامة والسياسة ، ينابيع المودة .

٣ – الأمن العام لعموم الناس الأسود والأحمر منهم سواء فيه وأن يحتمل عنهم معاوية ما يكون من هفواتهم ، وألا يتبع أحداً بما مضى وألا يأخذ أهل العراق بإحنة .

٤ – ألا يسميه أمير المؤمنين .

٥ – أن يترك سب أمير المؤمنين علىّ وألا يذكره إلا بخير .

٦ – ألا يقيم عنده الشهادة .

٧ – أن يوصل إلى كل ذى حق حقه .

٨ – الأمن لشيعة أمير المؤمنين وعدم التعرض لهم بمكروه .

٩ – يفرق فى أولاد من قتل مع أبيه فى يوم الجمل وصفين ألف ألف درهم ويجعل ذلك من خراج دار يجرد .

١٠ – أن يعطيه ما فى بيت مال الكوفة ويقضى عنه ديونه ويدفع إليه فى كل عام مائة ألف .

١١ – ألا يبغى للحسن بن على ولا لأخيه الحسين ولا لأهل البيت غائلة سرًّا ولا جهراً ولا يخيف أحداً منهم فى أفق من الآفاق .

مكان الصلح وزمانه :

تم الصلح فى « مسكن » حسب ما ذكرته أوثق المصادر ، ويذهب بعض رجال التاريخ إلى أن الصلح وقع فى بيت المقدس ، وذهب البعض الآخر إلى أنه وقع بأذرح من أرض الشام .

وكما اختلف المؤرخون فى المكان الذى وقع فيه الصلح فقد اختلفوا فى الزمان أيضاً فقد قيل إنه كان سنة ٤١ هجرية فى ربيع الأول وقيل فى ربيع الآخر ، واصطلح بعض المؤرخين على تسمية عام الصلح بعام الجماعة ولكن الجاحظ يقول : « فعندها استوى معاوية على الملك واستبد على بقية الشورى وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين فى العام الذى سموه (عام الجماعة) ، وما كان عام جماعة بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة ، والعام الذى تحولت فيه الإمامة ملكاً كسرويًّا والخلافة منصباً قيصريًّا » .

على أنه كان من الطبيعى أن يتفق الفريقان بعد توقيعهما الصلح على مكان يلتقيان فيه فاختارا الكوفة ، ونودى فى الناس إلى المسجد الجامع ليستمعوا هناك إلى الخطيبين الموقعين على معاهدة الصلح ، وكان لا بد لمعاوية أن يستبق إلى المنبر فسبق إليه وجلس عليه وجاء فى خطابه كما رواه المدائنى ، « يا أهل الكوفة أترونى قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجون ، ولكنى قاتلتكم لأتأمر عليكم وألى رقابكم ، وقد آتانى الله ذلك وأنتم كارهون ، ألا إن كل دم أصيب فى هذه الفتنة مطلول ، وكل شرط شرطته فتحت قدمىّ هاتين ، ولا يصلح الناس إلا ثلاث ، إخراج العطاء عند محله ، وإقفال الجنود لوقتها ، وغزو العدو فى داره فإن لم تغزوهم غزوكم » .

وروى أبو الفرج الأصفهانى عن حبيب بن أبى ثابت مسنداً أنه ذكر فى هذه الخطبة عليًّا فنال منه ثم نال من الحسن .

ثم طلب معاوية من الإمام الحسن أن يعتلى منصة الخطابة ليبين للناس تنازله عن الأمر ، فانبرى الإمام إلى أعواد المنبر والناس كلهم أذن صاغية وهم ما بين راغب وراغم ، فخطبهم خطبة طويلة كانت فى منتهى الروعة والبلاغة ، وعظ فيها الناس ودعاهم إلى الألفة والمحبة وصور فيها الأحداث الرهيبة التى جرت على أهل البيت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعزا ما جرى عليهم من المحن والخطوب إلى الصدر الأول الذين تزعموا الخلافة منهم وقد جاء فى خطابه : « أما بعد فوالله إنى لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنه وأنا أنصح خلق الله لخلقه ، وما أصبحت محتملاً على مسلم ضغينة ولا مريداً له سوءًا ولا غائلة ، ألا وإن ما تكرهون فى الجماعة خير لكم مما تحبون فى الفرقة ، ألا وإنى ناظر لكم خيراً من نظركم لأنفسكم فلا تخالفوا أمرى ولا تردوا علىّ رأيى ، غفر الله لى ولكم وأرشدنى وإياكم لما فيه المحبة والرضا . وقال : قد علمتم أن الله هداكم بجدى محمد صلى الله عليه وسلم ، فأنقذكم به من الضلالة ، ورفعكم به من الجهالة وأعزكم به بعد الذلة ، وكثركم به بعد القلة ، إن معاوية نازعنى حقًّا هو لى دونه فنظرت لصلاح الأمة وقطع الفتنة ، وقد كنتم بايعتمونى على أن تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت فرأيت أن أسالم معاوية وأضع الحرب بينى وبينه ، وقد بايعته ، وقد رأيت أن حقن الدماء خير من سفكها ولم أرد بذلك إلا صلاحكم وبقاءكم وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين » .

وأخذ الإمام الحسن يبين ظلامة أهل البيت فقال :

« إن معاوية زعم لكم أنى رأيته للخلافة أهلا ولم أر نفسى لها أهلا ، نحن أولى الناس بالناس فى كتاب الله عز وجل وعلى لسان نبيه ، ولم نزل – أهل البيت – مظلومين منذ قبض الله نبيه فالله بيننا وبين من ظلمنا » . ثم قال :

« فوالذى بعث محمداً بالحق لا ينقص من حقنا أهل البيت أحد إلا نقصه الله من عمله ، ولا تكون علينا دولة إلا وتكون لنا العافية ، ولتعلمن نبأه بعد حين » .

والتفت عليه السلام إلى معاوية فرد عليه سبه لأبيه فقال له : « أنا الحسن وأبى علىّ ، وأنت معاوية وأبوك صخر وأمى فاطمة وأمك هند وجدى رسول الله ، وجدك عتبة بن ربيعة ، وجدتى خديجة وجدتك قتيلة : فلعن الله أخملنا ذكراً وألأمنا حسباً وشرنا قديماً وحديثاً وأقدمنا كفراً ونفاقاً » .

بين الإمام الحسن ورجال معاوية :

فى شرح النهج لابن أبى الحديد يقول أهل السير .

لما سلم الحسن الأمر إلى معاوية اجتمع إلى معاوية رهط من شيعته وهم عمرو بن العاص والوليد بن عقبة بن أبى معيط وعتبة بن أبى سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ، وقد كان أبلغهم عن الحسن بن على قوارض وبلغه عنهم مثل ذلك ، فقالوا لمعاوية : إن الحسن قد أحيا أباه وذكره ، قال فصدق وأمر فأطيع وخفقت له النعال ، وإن ذلك لرافعه إلى ما هو أعظم منه ولا يزال يبلغنا عنه ما يسىء إلينا ، فابعث إليه فليحضر لنسبه ونسب أباه ونعيره ونوبخه

ونخبره أن أباه قتل عثمان ونقرره بذلك .

قال معاوية : إنى لا أرى ذلك ولا أفعله .

فعزموا عليه ، فقال : لا تفعلوا فوالله ما رأيته قط جالساً عندى إلا خفت مقامه وعيبه لى .

وقال : إنه ألسن بنى هاشم .

قالوا : ابعث إليه على كل حال .

قال : إن بعثت إليه لأنصفنه منكم .

فقال عمرو بن العاص : أتخشى أن يأتى باطله على حقنا .

قال معاوية : أما أنى لو بعثت إليه لآمرنه أن يتكلم بلسانه كله واعلموا أنهم أهل بيت لا يعيبهم العائب ولا يلصق بهم العار ، ولكن اقذفوه بحجره ، تقولون له إن أباك قتل عثمان وكره خلافة الخلفاء قبله .

جاء إلى الإمام الحسن الرسول ، فقال : يا جارية إيتينى ثيابى ، اللهم إنى أعوذ بك من شرورهم وأدرأ بك فى نحورهم وأستعين بك عليهم فاكفنيهم كيف شئت وأنى شئت بحول منك وقوة يا أرحم الراحمين .

ثم قام ، فلما دخل على معاوية أعظمه وأكرمه وأجلسه إلى جانبه ، وقد ارتاد القوم وخطروا خطران الفحول بغياً فى أنفسهم وعلوًّا .

ثم قال معاوية : يا أبا محمد إن هؤلاء بعثوا إليك وعصونى .

فقال الحسن : سبحان الله الدار دارك والإذن فيها إليك إن كنت أجبتهم إلى ما أرادوا وما فى أنفسهم إنى لأستحى لك من الفحش ، وإن كانوا

غلبوك على رأيك إنى لأستحى لك من الضعف ، أما إنى لو علمت بمكانهم جئت بمثلهم من بنى عبد المطلب ومالى أن أكون مستوحشاً منك ولا منهم إن ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين .

معاوية : إنى كرهت أن أدعوك ، ولكن هؤلاء حملونى على ذلك ، وإن لك منهم النصف ومنى ، وإنما دعوناك لنقررك أن عثمان قتل مظلوماً وأن أباك قتله ، فأجبهم ولاتمنعك وحدتك واجتماعهم أن تتكلم بكل لسانك .

عمرو بن العاص : ذكر الإمام علىّ فلم يدع شيئاً يعيبه به إلا قاله ، وقال إنه شتم أبا بكر وكره خلافته وبايعه مكرهاً [١] وشرك فى دم عمر وقتل عثمان

---

(١) يقول الأستاذ حسن كامل الملطاوى فى كتابه (الإمام الحسن) : إن الإمام علياً لم يكرهه أحد على بيعة أبى بكر كما ادعى عمرو بن العاص وكان تأخره عن بيعته بعض الوقت فى أرجح الأوقات لسببين :

ا - أنه لم يشترك فى اجتماع السقيفة وكان مشغولا بتجهيز مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان يرجو أن يدعى للاجتماع باعتباره من السابقين الأولين .

ب - أن السيدة الزهراء زوجته كانت تطالب سيدنا أبا بكر رضى الله عنه بميراثها من أبيها فى أرض فدك ولم يجبها وأخبرها أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة] ، وقد بينا ذلك تفصيلا فى الفصل الثانى .

على أن الخليفة الأول استمر يرضيها وهدد بترك الخلافة إن لم تكن الزهراء عنه راضية ، ومما قاله فى استرضائها : [ياحبيبة رسول الله - والله إن قرابة رسول الله أحب إلى من قرابتى وإنك لأحب إلى من عائشة ابنتى] .

فالإمام على فى تأخره عن البيعة كان يطيب خاطر زوجته حتى إذا رضيت بايع ، وقد قال تعالى فى نية رسول الله صلى الله عليه وسلم الطيبة : [لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك] ، وفى ذلك ثناء على نية علمها الله ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبتغى تطييب خواطرهن ، ثم عاتب =

. . . .

= تعالى زوجتى الرسول فقال . [إن تتوباً إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه .] ويضاف إلى ذلك أن الإمام وإن تأخر فى البيعة فإنه لم يخرج على الخليفة الأول ولم يحاربه كما فعل معاوية وغيره حين خرجوا على الإمام على وحاربوه دون وجه حق .

حـ - أما أن سيدنا عليا شارك فى دم عمر فلم يقل أحد ذلك وكيف - وهو يخاف الله خوف السابقين بقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وسيدنا عمر صهره وحبيبه وقد حرص على مصاهرة الإمام على ليكون له نسب بالرسول عليه الصلاة والسلام حيث وقف على ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم [كل نسب ينقطع يوم القيامة إلا نسبى] وكان سيدنا عمر يقول . لا أبقانى الله فى بلد لست بها يا أبا الحسن . فهل كان يشك فى عداوته ويقول ذلك أو يصاهره .

د - أن سيدنا عمر حين استخلف أشار بواحد من الستة الذين انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض وكان فى المقدمة الإمام على ومنزلته من الرسول صلى الله عليه وسلم معروفة وقد بينت فى الفصل السابق أنه كان أحب شخصية إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .

هـ - أن سيدنا عمر قال لبعض جلسائه مشيراً إلى فضل الإمام على : [لو ولوها الأجلح لحملهم على الجادة ، فقالوا ما يمنعك أن تستخلفه قال لا أحملها حيًّا وميتاً فليختاروا لأنفسهم] .

و - أما دم عثمان فإن الإمام عليا وابنيه الإمامين الحسن والحسين دفعوا عنه مما لم يدفع عنه متهموه ، وكان عمرو بن العاص أول الناصحين لعثمان باعتزال الخلافة ، وكان يقاطع عثمان وهو يخطب ليسترضى الثائرين ، وكان يقول إنى لألقى الراعى فأحرضه على عثمان ، وكانت شماتته ظاهرة حين قتل ، وأما معاوية فلم يدفع عنه بشىء كما أنه لم يقتص من قتلته كما كان يطلب من أمير المؤمنين على ، وقد روى أن معاوية زار المدينة فسمع ابنة عثمان تقول على مسمع منه [وا أبتاه] ، فقال لها متهرباً من القصاص وهو فى سلطانه .

[يا ابنة أخى إن الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أماناً وأظهرنا لهم حلماً تحته غضب وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، ومع كل إنسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره ، فإذا نكثنا بهم نكثوا بنا ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا ، ولأن تكونى بنت عم أمير المؤمنين خير من أن تكونى امرأة من عرض المسلمين] .

وهذا الذى علمته من قول معاوية يريك بدليل واضح أن دم عثمان كان تكأة يخدعون بها الجهال - =

وادعى من الخلافة ما ليس له ، ثم ذكر الفتنة يعيره بها .

ثم قال : إنكم يا بنى عبد المطلب لم يكن الله ليعطيكم الملك على قتلكم الخلفاء واستحلالكم ما حرم الله من الدماء وحرصكم على الملك وإتيانكم ما لا يحل ثم إنك يا حسن تحدث نفسك أن الخلافة صائرة إليك ، وليس عندك عقل ذلك ولا لبه ، وإنما دعوناك لنسبُّك وأباك . فأما أبوك فقد تفرد الله به وكفانا أمره ، وأما أنت فلو قتلناك ما كان علينا إثم من الله ولا عيب من الناس .

الوليد بن عقبة : يا بنى هاشم ، كنتم أخوال عثمان فنعم الولد كان لكم فعرف حقكم وكنتم أصهاره فنعم الصهر كان لكم فكنتم أول من حسده فقتله أبوك ظلماً فكيف ترون الله طلب بدمه ، والله إن بنى أمية خير لبنى هاشم من

= ويحرصون بها أهل الشام الذين انقادوا انقياد الأعمى لقائده بدافع من المال الذى أغدقه عليهم معاوية بلا حساب

وإذا كان معاوية قد نجح فى استمالة أنصار أهل البيت عماله فاستمالة أهل الشام كانت عليه أهون وأرخص ، أو ليس هو الذى قال لأستميلن بالدنيا ثقات على ، ولأقسمن فيهم الأموال حتى تغلب دنياى آخرته .

وقد غلبت على الناس الدنيا وصدق أمير المؤمنين على حين قال لأتباعه : [والله ما معاوية بأدهى منى ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس] .

وحين قال لهم : ولكنه لا رأى لمن لا يطاع .

وحين قال لهم : لم تكن بيعتكم إياى فلتة ، وليس أمرى وأمركم واحداً إنى أريدكم لله وأنتم تريدوننى لأنفسكم .

وصدق الإمام الحسن رضى الله عنه حين قال : [الناس عبيد الدنيا ، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه مادرت به معايشهم فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون]

بنى هاشم لبنى أمية .

عتبة بن أبى سفيان : يا حسن ، كان أبوك شر قريش لقريش ، أسفكه لدمائها وأقطعه لأرحامها طويل السيف واللسان يقتل الحىّ ويعيب الميت ، وأما رجاؤك الخلافة فلست فى زندها قادحاً ولا فى ميزانها راجحاً ، وإنكم يا بنى هاشم قتلتم عثمان وإن فى الحق أن نقتلك وأخاك به ، فأما أبوك فقد كفانا الله أمره .

المغيرة بن شعبة : تكلم فشتم عليًّا ، وقال والله ما أعيبه فى قضية يخون ولا فى حكم يميل ولكنه قتل عثمان .

رد الإمام الحسن :

تكلم ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

أما بعد ، يا معاوية فما هؤلاء شتمونى ولكنك شتمتنى فحشاً ألفته ، وسوء رأى عرفت به ، وخلقاً سيئاً ثبت عليه ، وبغياً علينا عداوة منك لمحمد وأهله ، ولكن اسمع يا معاوية واسمعوا فلأقولن فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم ، أنشدكم الله أيها الرهط هل تعلمون أن الذى شتمتوه منذ اليوم صلى القبلتين كليهما وأنت يا معاوية بهما كافر تراها ضلالة وتعبد اللات والعزى غواية ، وبايع البيعتين بيعة الفتح وبيعة الرضوان ، وأنت بإحداهما كافر وبالأخرى ناكث ، وأنشدكم الله هل تعلمون أنه أول الناس إيماناً وأنك يا معاوية وأباك من المؤلفة قلوبهم

تسرون الكفر وتظهرون الإسلام وتستميلون بالأموال ، وأنه كان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، وأن راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه ، ثم لقيكم يوم أُحد ويوم الأحزاب ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعك ومع أبيك راية الشرك ، وفى كل ذلك يفتح الله له ويفلج حجته وينصر دعوته ويصدق حديثه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك المواطن كلها عنه راض وعليك وعلى أبيك ساخط ، وبات يحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين ، وفداه بنفسه ليلة الهجرة حتى أنزل الله فيه ، (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) ، وأنزل فيه (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى وأنت أخى فى الدنيا والآخرة » .

وجاء أبوك على جمل أحمر يوم الأحزاب يحرض الناس ، وأنت تسوقه وأخوك عتبة هذا يقوده ، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلعن الراكب والقائد والسائق ، أتنسى يا معاوية الشعر الذى كتبته إلى أبيك لما هم أن يسلم تنهاه عن الإسلام :

يا صخر لا تسلمن يوماً فتفضحنا	بعد الذين ببدر أصبحوا مزقا
خالى وعمى وعم الأم نالتهم	وحنظل الخير قد أهدى لنا الأرقا
لأتركن إلى أمـــر تقـــلدنا	والراقصات بنعمان به الخرقا
فالموت أهون من قول العـــداة لقد	حاد ابن حرب عن العزى إذا فرقا

والله لما أخفيت من أمرك أكبر مما أبديت وأنشدكم الله أتعلمون أن علياً حرم الشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل فيه : (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) ، وأنت يا معاوية دعا عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يكتب كتاباً إلى بنى خزيمة ، فبعث إليك فنهمك إلى يوم القيامة فقال : اللهم لا تشبعه ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أكابر أصحابه إلى بنى قريظة ، فنزلوا من حصنهم فهزموا ، فبعث علياً بالراية فاستنزلهم على حكم الله وحكم رسوله وفعل فى خيبر مثلها ، وأنتم أيها الرهط نشدتكم الله ألا تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أبا سفيان فى سبعة مواطن لا تستطيعون ردها :

أولها : يوم لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم خارجاً من مكة إلى الطائف يدعو ثقيفاً إلى الدين فوقع به وسبه وسفهه وشتمه وكذبه وتوعده وهم أن يبطش به .

والثانية : يوم العير إذ عرض لها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى جائية من الشام فطردها أبو سفيان وساحل بها ولم يظفر المسلمون بها ، ولعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا عليه فكانت وقعة بدر لأجلها .

والثالثة : يوم أُحد حيث وقف تحت الجبل ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى أعلاه وهو ينادى اعل هبل مراراً فلعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر مرات ولعنه المسلمون .

والرابعة : يوم جاء الأحزاب وغطفان واليهود فلعنه رسول الله وابتهل .

والخامسة : يوم الحديبية ، يوم جاء أبو سفيان فى قريش فصدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام (والهدى معكوفاً أن يبلغ محله) ولعن القادة والأتباع ، فقيل يا رسول الله أفما يرجى الإسلام لأحد منهم ، فقال : لا تصيب اللعنة أحداً من الأتباع يسلم ، وأما القادة فلا يفلح منهم أحد .

والسادسة : يوم الجمل الأحمر .

والسابعة : يوم وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى العقبة ليستنفروا ناقته وكانوا اثنى عشر رجلا منهم أبو سفيان .

هذا لك يا معاوية .

وأما أنت يا ابن النابغة فادعاك خمسة من قريش غلب عليك ألأمهم حسباً وأخبثهم منصباً وولدت على فراش مشترك ثم قام أبوك فقال أنا شانئ محمد الأبتر فأنزل الله فيه (إن شانئك هو الأبتر) ، وقاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع المشاهد وهجوته وآذيته بمكة وكدته وكنت من أشد الناس له تكذيباً وعداوة ، ثم خرجت تريد النجاشى لتأتى بجعفر وأصحابه ، فلما أخطأك ما رجوت ورجعك الله خائباً وأكذبك واشياً جعلت جدك على صاحبك عمارة بن الوليد ، فوشيت به إلى النجاشى ففضحك الله وفضح صاحبك ، فأنت عدو بنى هاشم فى الجاهلية والإسلام ، وهجوت رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعين بيتاً من الشعر فقال اللهم إنى لا أقول الشعر ولا ينبغى لى ، اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة فعليك إذاً من الله

ما لا يحصى من اللعن ، وأما ما ذكرت من أمر عثمان فأنت سعرت عليه الدنيا ناراً ، ثم لحقت بفلسطين فلما أتاك قتله قلت : « أنا أبو عبد الله إذا نكأت قرحة أدميتها » ثم حبست نفسك إلى معاوية وبعت دينك بدنياه فلسنا نلومك على بغض ولا نعاتبك على ود ، وبالله ما نصرت عثمان حياً ولا غضبت له مقتولا ، ويحك يا ابن العاص ألست القائل لما خرجت إلى النجاشي :

تقول ابنتي أين هـذا الرحيل — وما السـير منى بمستنكر
فقلت ذريني فإنى امـرؤ — أريد النجـاشي فى جعفر
لأكويه عنـده كيـة — أقيم بهـا نخـوة الأصعر
وشـانى وأحمد من بينهم — وأقولهم فيـه بالمنـكر
وأجرى إلى عيبـه جاهداً — ولو كان كالذهب الأحمر
ولا أنثنى عن بنى هاشم — بما اسطعت فى الغيب والمحضر
فإن قبل العيب منى له — وإلا لويت له مشفرى

وأما أنت يا وليد فوالله ما ألومك على بغض علىّ وقد قتل أباك بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبراً ، وجلدك ثمانين فى الخمر لما صليت بالمسلمين الفجر سكران .

وفيك يقول الحطيئة :

شهد الحطيئة حين يلقى ربه — أن الوليد أحق بالعذر
نـادى وقـد تمت صـلاتهم — أأزيدكم سكراً وما يدرى

ليزيدهم أخرى ولو قبلوا   لأتت صلاتهم على العشر
فأبوا أبا وهب ولو قبلوا   لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك إذ جريت ولو   تركوا عنانك لم تزل تجرى

وسماك الله فى كتابه فاسقاً وسمى أمير المؤمنين مؤمناً حيث تحاجرتما فقلت له اسكت يا علىّ فأنا أشجع منك جناناً وأطول منك لساناً ، فقال لك على اسكت يا وليد فأنا مؤمن وأنت فاسق ، فأنزل الله تعالى فى موافقته قوله : (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون) ثم أنزل فيك على موافقته قوله : (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) ومهما نسيت فلا تنس قول الشاعر فيك وفيه :

أنزل الله والكتاب عزيز   فى على وفى الوليد قرانا
فتبّوا الوليد إذ ذاك فسقاً   وعلىّ مبوأ إيمانا
ليس من كان مؤمناً عمرك الله   كمن كان فاسقاً خوانا
سوف يدعى الوليد بعد قليل   وعلىّ إلى الحساب عيانا
فعلى يجزى بذاك جناناً   ووليد يجزى بذاك هوانا
رب جد لعقبة بن إبان   لابس فى بلادنا ثبانا

وما أنت وقريش إنما أنت علج من أهل صفورية ، وأقسم بالله لأنت أكبر فى الميلاد وأسن مما تدعى إليه .

وأما أنت يا عتبة فو الله ما أنت بحصيف فأجيبك ، ولا عاقل فأحاورك وأعاتبك ، وما عندك خير يرجى ، ولا شر يتقى ، وما عقلك وعقل أمتك

إلا سواء ، وما يضر عليًّا لو سببته على رءوس الأشهاد ، وأما وعيدك إياى بالقتل فهلا قتلت اللحيانى إذ وجدته على فراشك ، فقال فيك نصربن حجاج :

يا للرجال وحادث الأزمان ولسبة تخزى أبا سفيان
نبئت عتبة خانه فى عرسه جبس لئيم الأصل فى لحيان

وكيف ألومك على بغض علىّ وقد قتل خالك الوليد مبارزة يوم بدر وشرك حمزة فى قتل جدك عتبة وأوحدك من أخيك حنظلة فى مقام واحد .

وأما أنت يا مغيرة فلم تكن بخليق أن تقع فى هذا وشبهه وإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنخلة استمسكى فإنى طائرة عنك ، فقالت النخلة هل علمت بك واقعة على فأعلم بك طائرة عنى ، والله ما نشعر بعداوتك إيانا ولا اغتممنا إذ علمنا بها ، ولا يشق علينا كلامك ، وإن حد الله عليك فى الزنا لثابت ، ولقد درأ عمر عنك حقًّا الله سائله عنه ، ولقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها ؟ فقال لا بأس بذلك يا مغيرة ما لم ينو الزنا لعلمه بأنك زان .

وأما فخركم علينا بالإمارة فإن الله تعالى يقول : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) .

ثم قام الحسن فنفض ثوبه وانصرف ، فتعلق عمرو بثوبه وقال يا أمير المؤمنين قد شهدت قوله فى قذف أمى بالزنا ، وأنا مطالب له بحد القذف ، فقال معاوية خل عنه لا جزاك الله خيراً ، فتركه وانصرف الحسن وتركهم يحسون كمداً . فقال معاوية : قد أنبأتكم أنه ممن لا تطاق عارضته ونهيتكم أن

تسبوه فعصيتمونى ، والله ما قام حتى أظلم على البيت ، قوموا عنى فلقد فضحكم الله وأخزاكم بترككم الحزم وعدولكم عن رأى الناصح المشفق وقال :

أمرتكم أمراً فلم تسمعوا لـه	وقلت لكم لا تبعثن إلى الحسن
فجاء ورب الرافضات عشية	بركبانها يهوين عن سرة اليمن
أخاف عليكم منه طول لسانه	وبعد مداه حين إجراره الرسن
فلما أبيتم كنت فيكم كبعضكم	وكان خطابى فيه غبنا من الغبن
فحسبكم ما قال مما علمتم	وحسبى بما ألقاه فى القبر والكفن

فلسفة صلح الحسن

يتوهم الكثيرون أن الإمام الحسن لم ينجح فى سياسته ولم يمثل دوره بنجاح ، ويجيب على ذلك الأستاذ الكبير كامل سليمان[1] ويقول إنه من المشهور المتوهم أن الحسن لم يمثل دوره بنجاح — ولكن الشهرة لا تكسب الرأى صحة ولا القول صدقاً لأنها تقوم دائماً على الحق الخالص والواقع الذى لا ريب فيه . فربما قامت الشهرة على عوامل مذهبية أو سياسية أو علمية لا سبيل إلى البرهان على عكسها — بل ربما قامت على أسباب شخصية بحتة ، فشهرة هذا الرأى بالحسن لا تتسم بالصحة والصدق .

إن الحسن قد فكر وقدر وزاد على ما نفكر به ونقدره فأدرك كل ما يُرافق حركته من الألف والياء ، وليس من السهل تحديد سياسته من الألف إلى الياء دون التواء ، لأن عصره كان عصر اختلاف فى الهوى كأشد ما يكون الاختلاف — ومعارضة فى الرغائب كأقوى ما تكون المعارضة مما صعّب التحديد وجعل تحسس حركته غير ممكن وسط هيجان تلك الزوبعة التى عَنُفت جداً فاستعمرت قلوب جميع من كان يرزح تحت عبثها قسراً أو اختياراً — فالجو كله قاتم ، والعوامل تتضافر على إخماد كل دعوة بأقسى وسائل الكبت والإخماد ، إذ خوى يومئذ نجم الخير وكسدت سوق البر وصار

(١) الحسن بن على [دراسة وتحليل] للأستاذ كامل سليمان .

النبل عاراً على صاحبه والفضل نقصا وصارت أموال الملوك وقفا على شهوات النفوس – وجهل الناس قدر المعروف ، فى هذا الحلك أرانا لا نملك قوة تخولنا الجزم لأن أستاراً كثيفة تكتنف العصر وتقف دون الاطلاع على جميع المفارقات والملابسات ولا تسمح لنا بأن نستوضح من حياة الحسن السياسية إلا ناحية الدعة والصدق والبر – وماله من سياسة غير هذه فى عصر تحوّل شكلى فى الحكم وتحوّل فعلى فى النفوس التى لم يتمكن منها الدين ولم يتركز فيها ليَكسبها المناعة المتوخاة التى تخولها إعطاء الصورة على حقيقتها – فهناك أناس يهتبلون الفرص ليرهبوا الله فى ملكوته – لعدم تمرسهم بالدين الجديد – إرهاباً فيه تطرّف وخروجٌ عن الدين وجادة الصواب – وفيه مروقٌ واستهتارٌ بسنن التكوين – بل فيه استسلام لكل همازٍ مشاء بنميم .

وليس أصعب من أن تقوم الدولة التى تتركز على مبادئ الصلاح إذا لم يكن عدد المقتنعين بتلك المبادئ متكاثراً يسمح بإقامة جهاز للحكم وبإنشاء قوة منفذة تسهر على حفظ كيان الدولة ومبادئها ! فكم وكم يتطلب الانقلاب من جهاد عنيف وتضحيات عملية حتى يتم وفق رغبة الراغبين وبُلغة المؤمنين .

أولاً : من المؤسف أن المؤرخين قد أنحوا باللائمة على الحسن الذى سالم ولم يطعنوا بمعاوية الذى ابتدع بدعاً ما أنزل الله بها من سلطان ولا أقرها عرف ولا تقليد ، حتى إن بعض المؤرخين كان كلفاً بالقذع عن من ذاب بغيريته دون الإسلام والإنسانية – ومشغوفاً بتمدّحَ من شحن الدين وأهله

لملك زائل ومنشأ ذلك هو الرهبة من الوقيعة أو الرغبة فى البعد عن القطيعة لدى الملك الزائل مع العلم بأن الحسن صديق رفيق سياسته كانت مُلجمة حقًّا بمعنى أنه كان يراود أمره تحت تأثير عاملين : الله والدين فى الدرجة الأولى والأحقاد المدخرة للقضاء على الدين فى الدرجة الثانية وهو لا يتمكن من إخضاع الطبيعة يومها لأنه ليس سيدها المطلق بل لا بد له من تكييف نفسه حسب نواميسها – مع الاحتفاظ برأيه ليقدّر له البقاء .

ثانياً : والتقى يُلجمه ورعه ويردعه عن الزيغ على حين نرى أن أمور السياسة بمفهومها العامى لا تستقيم إلا بالمداهنة وهذا شىء مفقود فى حياة الحسن لأن تقاه قد فطمه عن المكر السيئ وثناه عن التطلع إلى المرتع الوخيم ، فهو على دين أبيه الذى قال : (والله لو علمت أن المداهنة تَسعَى فى دين الله لفعلت ولكان أهون علىّ فى المؤنة) .

ومهما كانت معانى السياسة عنده فهو كان يفصل السياسة عن الدين فى حين أن خصمه قد خلط الدين والسياسة والعلم وسائر المظاهر الفكرية خلطاً عجيباً .

وبالحقيقة أن الدين والسياسة مقترنان – فهى المدبّرة وهو المنفّذ وقد كانت – فعلا – فى يد الأول ألعوبة بيد الدين – وأما فى يد الثانى فكان الدين ألعوبة بيدها خصوصاً وهى طيّعة والدين صلب – بمعنى أنها يمكن أن تسايره فى حين أنه لا يمكن أن يكون تحت سلطتها بوجه من الوجوه فهو يتعارض معها كلما قابلته ، أما هى فلا تتعارض معه إذا قابلها باعتبار

أنها أقرب منه لمظاهر الحياة الدنيا .

ثالثاً : وأكاد أجزم أنه لم يكن الإخفاق حليف الحسن كما يخمن المخمنون – وكم من نهزة كان يغتنمها لو شاء – ولكنه كفكف أردانه لأن قوة الإيمان تَنَزَعُ عن التدهور والسقوط – وتربأ بصاحبها أن يقبل الرفعةَ بالدنية والمجد بالضعة وخصوصاً إذا أنشئ صحيح البنية نقىّ السريرة صافى النفس لا يندار لسانه بشيء فيه ختلٌ أو تغرير وليس من المعقول أن تكون تصرفات الإمام الحسن ممن تضعهم هذه التصرفات فى درج البسطاء لأنه لا يصح عمن غُذّى العلا من محمد ورضع أثداء الحق من فاطمة وورث العلم عن على أن تسفّ به نفسه أو تفقد به عزيمته ، لأن ثبات عقيدته يفرش طريقه بالاطمئنان كائناً ما كانت الحال .

رابعاً : لقد كان محيط السبط الحسن معقداً لا يكفل له النجاح لدرجة يكون معها قميناً بالوصول إلى ما ينشده ؛ إذ اضمحلت فى محيطه الروحيةُ والمثالية وفنيت الاجتماعيةُ ، ومن ثم طغت الفردية فرأى أن يفسح المجال أمام جموح الخصم ليجيء يوم يرى فيه الناس أنفسهم مشروعية حربه على مروقه كما حورب أبوه على عناده لرسالة محمد ، ولم ينس أبو محمد الأحزاب السياسية التى كانت تعمل فى الخفاء للحد من فكرة الهاشمية والسلالية فخشيها فيما يخشى ، لأنها كانت أحزاباً فيها أخلاط من حيث الدم والعنصر وهذا ما يُخاف شرّه .

وإن المفارقة بين معاصريه وبين الله كانت لا تخوله أن يقيم الدين

بالسيف فى وجه دنيا محشودة لصراعه من جانب العدو ومن جانب أنصاره ، الذين كانوا سيفاً بيمينه فضلا عمن يهدد الجموع من الخارج .

سياسة الحسن كانت ممتزجة بالدين :

لقد غاص الإمام الحسن فى ذلك كله وفهم منه السر والإعلان وانتهى إلى الاقتناع بصواب ما فعل ، ففعله مرتاح البال ليتاح له الخروج من البلبلة بحل موفق له آثاره القريبة والبعيدة ، وفى تقدير الكثيرين أنه انتزع هذا الحل بطريقة تجريبية مدهشة ، لأن دعوته لا يحفظها من الفناء إلا صلحه الميمون مهما تعرض للنقد اللاذع ، إذ يشترط لقيام الحكومة أن تكون الرعية موالية للسلطان ومريدة له لتمده بالقوة التى تنعدم فى غير الجمهور ، فهل كان الولاء الجماعى ميسوراً له ؟ وهل توفر له المدد القوى ؟ كلا — لأن سياسته كانت ممتزجة بالدين بل هى الدين قهراً أو اختياراً ، فى حين أن الميل العام كان يرمى إلى إلغاء الوحدة بين الدين والسياسة ويحصر الدين فى المسجد مجسداً فى الأذان والصلاة وغيرهما من الأعمال التعبدية .

وقد حسب معاوية ومن يزعم زعمه أن ذلك التنازل عن أمور الدنيا قد أتى على الدعوة الهاشمية ونصر الدعاوة الأموية إلى الأبد ، وقد اعتقد الحسن ومن يرى رأيه أن الصلح يزلزل الأموية عاجلاً أو آجلاً وإلى الأبد ، وقد صدق حدسهما فى نطاقين متدابرين : نطاق لدولة الأمويين ضيق ونطاق لقضية الهاشميين واسع ، فأصاب عاقل أو كاد وأخطأ زاعم أو كاد

فقد تعرضت الأموية لأزمات شديدة فيما بعد زنة ما ذهب ملوكها فى تماديهم وانطلاقهم ، ومنذ أن انسحب الحسن من الساح ونقى لهم الجو إلى أن غادر الشام آخر أموى ، وحتى فى نقاء الجو كانت تشيع همهمة يقطعها السيف مرة والدرهم مرة أخرى ثم لا يعتم أن تنتشر فى المجتمع وتلاقى القبول إلى أن حصل الانقلاب فى أقل من قرن ، وما نفع حياة دولة لا تعيش فى أمانيها مدى القرن ؟ — ولم يخف ذلك على معاوية فإنه لم ينفلت كالمتمرد تماماً بل سار سيرة المغتصب المعترف بالاغتصاب الذى تغلغلت فى عروقه نظرية (الملك عقيم) فلم يغفل عن صلة الحسن بالمال بشكل كان فيه إيثار ولكن كان فيه مدّ وجزر ، فعمل الاثنين إذن طبيعى لأن الأمة كانت يومذاك لا تتماثل ولا تنصبّ فى قالب واحد لتسير فى جانب أحدهما ، إذ عُنى الأول بتجنب سقوط الأمة وانصرف الثانى إلى طلب الملك فوجده . وعملُ الأول كان محاكاة لما يختلج فى نفوس جماعة انعكست فى باصرته نياتها ، فعرف أن حماسها لم يكن الذخر الذى يدخر ليوم النهضة المباركة ، وعمل صاحبه كان استجابة لما فى نفوس أقلية بايعت الدنيا على الموت فى سبيلها ولو جمعت ثورات أصحاب الحسن وضرب بعضها ببعض لكانت نتيجتها صفراً ، الأمر الذى جعله يتمشى على مبدأ العناية بالمجموع ليكفل للفرد حياة لا عنعنة فيها ولا تهويش ، حتى يتسنى للدين أن ينتفض من حجره بعد فترة تضمخت بالدماء ، فحين خاف أن تطغى المادة على الفرد عمد إلى حل قسم الناس فئتين فئة رجعت إلى المعبد تتبتل وتتصوف وتناضل صامتة ، وفئة تستجيب

لكل ناعق وتسلك كل طريق – وقد انتظرت الفئتان يوماً تُفيقان فيه على كلمتى الحق والخير ، لذا كان هم الحسن الأول تهدئة العاصفة ليتاح للفرد أن يروض نفسه على الدين ، ويمارس حياة فيها استعداد مطبوع على الثورة ضد الباطل فتزل له مهلة التفكير بخطورة الأوضاع . فأعد الكثيرين على هذا النحو إعداداً ممتازاً ومعنى ذلك أن تنازله قد أوجد حالة منكرة ما فتئ الأمويون يعالجونها هذا باللين وذاك بالقسوة إلى أن عاونه أخوه ببذل نفسه بعد أن سفح هو أنانيته ، فسالت جميع الجراح وأصبحت الأموية كرة يتقاذفها الناس جميعاً – وكان الأمويون من جملة اللاعبين – وما عتم أن جدّ الجد وتحطمت الكرة فانطوت نفوس على حقد مضطرم ولم تنم عن مهمتها قط وانطوت أخرى على نشوة دفعتها إلى العبث بمقدسات الدين وضلت عما يكفل خلودها ضلالاً – ومن ثم ظهر حد فاصل كان يزداد عمقاً وامتداداً عانى الحزبان منه تحاجزاً فيه ويل ، وتناحراً فيه مرارة .

فتنازل الإمام الحسن قد فسح المجال للانتخاب إذ أطلق الحرية للفكر ، فلا بدع أن يضع الشروط على ضوء استنتاجه واجتهاده دون أن يعمد إلى رقع الثوب البالى فلا يتحقق التماسك بين الثوب والراقع – وإن كثيرين من ذوى المواهب يخنق مواهبهم ضيق المجال فى بيئتهم – لأن روحيتهم تكون غير روحية المجموع – فالمصلحون المصلحون هم الذين يبذلون الجهد فى تأييد إرادة المجتمع ثم يضحون ليقربوا بين وجهات النظر فيحصلوا على سلامة المجتمع وتوحيد الكلمة ثم يعودوا إلى البذر والاستنبات .

وقد ذهب الجميع مع العاطفة والإمام الحسن بمفرده ذهب مع العقل فانتحى المدينة وغاب فى طىّ بضع عشرة سنة يستكمل فيها منهجه فمن يلومه بعد ذلك وهو يعلم أن مبدأه لا يملك أن ينشر على أى كان وأينما كان وفى أى زمان ، لذا توخى فرصةً تسمح بإذاعته لئلا يعبث مع من يريد له أن يعبث فيفرض نظرياته على من لا يُقدر فيه اعتناقها ولا يمكن أن يستجيب لملازماتها ، فلينتظر حتى تتوفر الإمكانيات من غير أن يلجأ إلى الفرض الجبرى الذى لا دوام له فى جانب تزمت المتزمّتين ومروق المارقين .

ويقولون إن الحسن هادئ لا تحس فيه الحماس ولا تشعر فى تجييشه الحرارة ، والحقيقة أن أخلص أنواع الحماسة ، الحماسة التى تحترم الحقوق والواجبات بين الناس فتحول دون وقوع الخلاف — ومن غير الإمام الحسن يقوم بعمل جدير بالأهمية مجرد عن الغاية غير مشوب بشائبة فى زمانه ، وهل نحسب عمله حماساً بهذا المفهوم إذ لم يكن عملا هادئاً متزناً وعقلائياً ، كلا لأن ثمار هدوئه أينع منها فيما لو كان ثائراً متهوراً — أو ليس من الحمق أن يزج بالألوف فى أتون قد يلتهم ثلّةً من الأولين وثلّة من الآخرين ؟ نعم — وإن سكينته أبلغ أثراً من حركات الطيش التى نتمناها عليه ونظن فاعليتها فى ذلك اليوم الذى كان كادية فيه السيد المطاع ، فلو حاول أن يجدع مارقاً بسيفه أو أن يعترض خارجاً بلسانه لضرب الأمة فى صلبها فما تستطيع قياماً ولا نهوضاً .

بعد هذه النظرة الفلسفية هل وهن الإمام وتهاون أم اتبع السياسة

الحكيمة الرشيدة إذا صالح وهادن ؟ فما كان أحب إليه من أن يرى السمو المثالى فى نفوسهم فيبث فيها قبساً من نورانيته وشعاعاً من روحانيته ، هو زعيم أهل البيت وهو الذى قال فى وصف أهل البيت (اعلموا أنهم أهل بيت لا يعيبهم عائب ولا يلصق بهم العار)

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(والذى نفسى بيده لا ينفع عبداً عمله إلا بمعرفة حقنا – ألا من آذى قرابتى فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله فاستوصوا بأهل بيتى خيراً فإنى أخاصمكم عنهم غداً ، ومن أكن خصيمه أخصمه ومن أخصمه دخل النار ، ومن حفظنى فى أهل بيتى فقد اتخذ عند الله عهداً) .

ولقد برز الإمام الحسن وارتفع فى الجوزاء ولكن محيطه ومنطقه كانا غير محيطنا ومنطقنا وهذا من الصعب تفسيره لأن الاختلاف كان فى الجوهر لا فى القشور .

من الذى طلب الصلح

وما لاقاه الإمام الحسن بسببه

اختلف المؤرخون اختلافاً كثيراً فيمن بادر لطلب الصلح ، فابن خلدون ذكر أن الذى طلب الصلح الإمام الحسن ، ويقول ابن أبى الحديد إنه لما رأى الإمام تفرق الكلمة عنه كتب إلى معاوية ، بينما يذهب فريق كبير من المؤرخين إلى القول بأن معاوية هو البادئ فى طلب الصلح كما يدل عليه خطاب الحسن الذى بعثه إلى أصحابه فى المدائن وقال فيه : « ألا إن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة » ، وإن كان بعض رجال التاريخ يقول خلاف ذلك ، وما ضرر معاوية أن يعطى الحسن كل شرط ليأخذ عليه شرطاً واحداً هو الملك .

وقرر معاوية خطته هذه فى نجران نشاط الفريقين للحرب ، وكان فى توفره على تنفيذ هذه الخطة أعنف منه فى عمله لتنظيم المعسكرات وتدبير شئون الحرب .

ورأى أن يبادئ الحسن بطلب الصلح ، فإن أجيب إليه فذاك ، وإلا فلينتزعه انتزاعاً دون أن يلتحم والحسن فى قتال . ومن هنا كانت سياسة معاوية التى تقوم على استمالة الناس والجنود بالأراجيف والرشوة ، وقيل إنه جاءت فى قائمة وعوده التى خلب بها ألباب كثير من الزعماء أو المتزعمين :

رئاسة الجيش – ولاية قطر – مصاهرة على أميرة أموية ، وغير ذلك حتى إنه جاء فى أرقام رشواته النقدية ألف ألف مليون .

واستعمل فى سبيل هذه الفكرة كل قواه وكل مواهبه وكل تجاربه واستجاب له فعلا كثير من باعة الضمائر الذين كانوا لا يفارقون الحسن ظاهراً ، فإذا هم عيون معاوية التى ترى وأصابعه التى تعمل وعملاؤه الذين لا يدخرون وسعاً فى ترويج أهدافه . هذا هو الجو الذى كان يعيش فيه الإمام الحسن .

وأصبح هو نفسه لا يتسنى له تنفيذ أوامره فى جيشه بما فعلته الأراجيف من حوله بل لا يستطيع الظهور بشخصه أمام الكثرة من جنوده إلا ليغتال بين مضاربه وعلى سواعد أصحابه .

ولم يكن هناك إلا الصلح ، ولم يكن أمامه إلا أن يلبى طلب معاوية للصلح ، ولكنه لم يلبه إلا ليركسه فى شروط لا يسع رجلا كمعاوية إلا أن يجهر فى غده القريب بنقضها شرطاً شرطاً ، ثم لا يسع الناس – إذا هو فعل ذلك – إلا أن يجاهروه السخط والإنكار – فإذا بالصلح نواة السخط الممتد مع الأجيال ، وإذا بهذا السخط نواة الثورات التى تعاونت على تصفية السيطرة الاغتصابية فى التاريخ ، وليكن هذا هو التصميم السياسى الذى نزل الحسن من طريقه إلى قبول الصلح ، ولتكن هذه هى السياسة التى استغل بها معاوية فكانت من أبرز معانى العبقرية المظلومة فى الإمام المظلوم ، ولكن لماذا طلب معاوية الصلح ؟

إن دوافع معاوية لطلب الصلح من نوع آخر لا يرجع فى جوهره إلا العجز

عن القتال ، ولا ينظر فى واقعه إلى وجهة نظر دين أو إصلاح أو حقن دماء ، فلا الإصلاح ولا حقن الدماء بالذى يعنى به معاوية فينزل له عن مطامعه فى الفتح .

ولقد خيل إليه بأن تنازل الحسن له عن الحكم سيكون معناه فى الرأى العام تنازله عن (الخلافة) وظن أنه سيصبح على هذا (الخليفة الشرعى فى المسلمين) ، وللحسن البصرى كلمته فى هذا الموضوع رواها الطبرى ، وسبق أن ذكرتها فى موضع سابق ولا مانع من الإشارة إليها هنا أيضاً ، فقد قال : « أربع خصال كن فى معاوية لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة : انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها (يعنى الخلافة) بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ، واستخلافه ابنه بعده سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير ، وادعاؤه زياداً ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » وقتله حجراً ويل له من حجر وأصحاب حجر .

هذا ولا ينكر أن يكون لمعاوية بواعث أخرى جعلت منه إنساناً آخر ينكر الحرب ويمد يده إلى الصلح ويوقع الشروط ويحلف الإيمان ويؤكد المواثيق .

أما أهم الأسباب التى دعته لأن تكون بعض دوافعه إلى الصلح فهى :

أولا : إنه كان يرى أن الحسن بن على عليهما السلام – هو صاحب الحق فى الأمر – ولا سبيل إلى اقتناص الأمر إلا من طريق إسكات الحسن

– ولو ظاهراً – ولا سبيل إلى إسكاته إلا بالصلح ، أما رأيه بأولوية الحسن بالأمر – فقد جاء صريحاً فى كتابه إليه قبيل زحفهما للصراع بقوله : « إنك أولى بهذا الأمر وأحق به » وجاء صريحاً فيما قاله لابنه على ذكر أهل البيت « يا بنى إن الحق حقهم » كما جاء فى ابن أبى الحديد ، وفيما كتبه إلى زياد ابن أبيه حيث يقول له على ذكر الحسن عليه السلام : « وأما تسلطه عليك بالأمر فحق للحسن أن يتسلط » ، كما كان يعترف للحسن بأنه (سيد المسلمين) وهل سيد المسلمين إلا إمامهم .

ثانياً : أنه كان على كثرة الوسائل الطيعة لأمره شديد التوجس من نتائج حربه مع الحسن ، ولم يكن كتوماً يوم قال فى وصف خصومه العراقيين « فوالله ما ذكرت عيونهم تحت المغافر بصفين إلا لُبس على عقلى » ، ويوم قال فيهم « ما لهم غضبهم الله بشر ما قلوبهم إلا كقلب رجل واحد » فكان يرى فى الجنوح إلى الصلح مفرًّا من منازلة هؤلاء ومواجهة عيونهم تحت المغافر .

ثالثاً : أنه كان يهاب موقع الحسن ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس ومقامه الروحى الفريد فى العقيدة الإسلامية فيتقى حربه بالصلح .

كذلك كان يرى أنه من الجائز أن يقيض الله لمعسكر الشام من يتطوع لتنبيه الناس فيه إلى حقيقة أمر الحسن وفظاعة موقفهم منه الأمر الذى من شأنه أن لا يتأخر بمسلمة الجيش فى جبهة معاوية على الانتقاض عليه والنكول عنه وبالجيش كله عن الانهيار أخيراً .

وكان معاوية يتذكر ما قاله النعمان بن جبلة فى (صفين) حيث قال :

« والله لقد نصحتك على نفسى وآثرت ملكك على دينى وتركت لهواك الرشد وأنا أعرفه وحدت عن الحق وأنا أبصره ، وما وفقت لرشد وأنا أقاتل عن ملكك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأول مؤمن به ومهاجر معه ، ولو أعطيناه ما أعطيناك لكان أرأف بالرعية وأجزل فى العطية ، ولكن قد بذلنا لك الأمر ولا بد من إتمامه كان غيًّا أو رشداً وحاشا أن يكون رشداً ، وسنقاتل عن تين الغوطة وزيتونها إذ حرمنا أثمار الجنة وأنهارها . . .[1] » .

وكان من سياسة معاوية حبس أهل الشام على التعرف على أحد من كبراء المسلمين – خارج الشام – لئلا يكون لهم من ذلك منفذ إلى إنكاره أو الانقسام عليه ، ولذلك كان من المستغرب لهذا الشامى معرفة ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعرفة سبقه إلى الإيمان ورأفته بالناس وكرمه فى العطاء وأولويته بالأمر .

وكانت سياسة معاوية تجهيل أهل الشام بأعلام الإسلام إلى آخر عهده ، وكانت سياسته هذه هى أداته فى التجمعات التى ساقها لحروب صفين أولا ولحرب الحسن بن على أخيراً .

وتجد ظاهر هذه السياسة – بما فيها من إعلان عن ضعف صاحبها – فيما قاله معاوية ذات يوم لعمرو بن العاص ، وقد تحدى الإمام الحسن فرد عليه الإمام بحدّياه التى لم يسلم منها المحرض عليها أيضاً . فقال معاوية لعمرو :

---

(١) المسعودى (هامش ابن الأثير) .

« والله ما أردت إلا هتكى ما كان أهل الشام يرون أن أحداً مثلى حتى سمعوا من الحسن ما سمعوا » .

رابعاً : كان معاوية يقصد من وراء هذه الدعوة على ظاهرها التمهيد لغده القريب الذى ستنكشف عنه نتائج الحرب بينه وبين الحسن ، وكان أحد الوجهين المحتملين أن يدال للشام من الكوفة ، وأن تقضى الحرب وذيولها على الحسن والحسين وعلى من إليهما من أهل بيتهما وشيعتهما – ولا تدبير – يومئذ للعذر من هذه البائقة الكبرى أروع من أن يلقى معاوية مسئوليتها على الحسن نفسه ، ويقول للناس : « إنى دعوت الحسن للصلح ولكن الحسن أبى إلا الحرب ، وكنت أريد له الحياة ، ولكنه أراد لى القتل ، وأردت حقن الدماء ولكنه أراد هلاك الناس بينى وبينه » .

أنتقل بعد ذلك إلى ما لاقاه الإمام الحسن بسبب الصلح فأقول إن صلح الحسن عليه السلام مع معاوية كان من أشد ما لقيه أئمة أهل البيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا قوة لأحد عليها إلا بالله عز وجل ، ولكنه كما سنرى رضخ لها صابراً محتسباً وخرج منها ظافراً بما يبتغيه من النصح لله تعالى ولكتابه عز وجل ولرسوله ولخاصة المسلمين وعامتهم ، ولا وزن لمن اتهمه بأنه أخلد بصلحه إلى الدعة وآثر العافية والراحة إلا لمن طوحت بهم الحماسة من أنصاره فتمنوا عليه لو وقف فى جهاد معاوية لوصل إلى الحياة من طريق الموت وفاز بالنصر والفتح من الجهة التى انطلق منها صنوه يوم الطف إلى نصره العزيز وفتحه المبين .

ومما لا شك فيه ان صلح الحسن لم يقابل بالارتياح من كثير من المسلمين كما سأبينه تفصيلا . وكما قلت تحمل الإمام الحسن كثيراً فى مقابل هذا ، والإمام كما سبق أن بينا لم يقبل الصلح إلا لحقن دماء المسلمين وتوحيد كلمتهم غير مفتر بما كان حوله من رجال أشداء وقال عنهم كانت جماجم العرب بيدى يسالمون من سالمت ويحاربون من حاربت فتركتها ابتغاء وجه الله تعالى وحقن دماء المسلمين وغير آبه بما قاله له أصحابه وما نعتوه به من الشتائم والقذائف ، كان إذا مر بجماعة من أشد أصحابه حماسة فى نصرته ونصرة أبيه من قبله يتلقونه قائلين « يا عار المؤمنين » فيجيبهم فى هدوء ووقار ويقول العار خير من النار .

ويروى أبا روق الهمدانى حدث عن أبى الغريف أحد أصحاب الحسن قال : « كنا فى مقدمة الحسن بن على اثنى عشر ألفاً بمسكن مستميتين تقطر أسيافنا من الحرد والحرص على قتال أهل الشام وعلينا أبوالعمير طه ، فلما جاءنا صلح الحسن بن على كأنما كسرت ظهورنا من الغيظ والحزن ، فلما جاء الحسن الكوفة أتاه شيخ منايكنى أبا عامر شعبان بن أبى ليلى .

فقال : السلام عليك يا مذل المؤمنين .

فقال : لا تقل يا أبا عامر فإنى لم أذل المؤمنين ، ولكن كرهت أن أقتلهم فى طلب الملك .

ويقول المغفور له الدكتور طه حسين إن الصلح أسخط على الحسن جماعة من أصحابه الذين أخلصوا له ولأبيه وأخلصوا فى بغض معاوية وأهل

الشام ورأوا فى هذا الصلح نوعاً من التسليم لم يكن يلائم ما بذلوا أيام على من جهد ، ولم يكن يلائم كذلك ما كان فى أيديهم من قوة ، فنهم من كان يقول للحسن يا مذل المؤمنين ومنهم من كان يقول يا مذل العرب ، ومنهم من قال له يا مسود وجوه العرب .

وفى الواقع أنه إذا كانت محنة الأيام قاسية فقد تجاوز بلاؤه إلى ما هو أعظم وأشد أثراً فى نفسه وهو كلام المنددين بصلحه من أصحابه وغيرهم ، فقد جابهوه بكلام أشد عليه من وقع الحسام المهند ، فقد رأى منهم غلظة فى القول وقسوة فى الحديث وجفاء أى جفاء ، فاستاء من أنصاره أكثر مما استاء من أعدائه لأنهم على علم بالظروف والعوامل القاسية التى ألجأته إلى الصلح والهدنة .

وقد أقبل بطل العقيدة ومثال لإيمان « حجر بن عدى » إلى الإمام وقد مشت الرعدة بأوصاله واستولى عليه الحزن قائلا :

« أما والله لوددت أنك مت فى ذلك اليوم ومتنا معك ولم نر هذا اليوم فإنا رجعنا راغمين بما كرهنا ورجعوا مسرورين بما أحبوا » .

ويعلق الأستاذ باقر القرشي على هذا القول ويقول : « لا أدرى كيف فاه حجر بهذا الكلام القاسى وهو أعلم بمركز الإمام من غيره ، وأدرى بالظروف العصيبة والمصاعب الشديدة التى أحاطت بالإمام حتى اضطرته إلى الصلح ، ولكنه يعذر ، لأن لوعة المصاب وذهول النفس تخرج الإنسان عن موازين الاعتدال والاستقامة » .

وقام الإمام الحسن فأخذ بيد حجر واختلى به فى زاوية من زوايا البيت فبين له الحكمة التى من أجلها صالح معاوية قائلا : « يا حجر قد سمعت كلامك فى مجلس معاوية ، وليس كل إنسان يحب ما تحب ولا رأيه كرأيك ، وإنى لم أفعل إلا إبقاءً عليكم ، والله تعالى يقول « كل يوم هو فى شأن » ، ثم أبان الإمام عدم وجود المخلصين له فى الجيش العراق ، ولو كان هناك أمثال حجر فى عقيدته وإيمانه ورأيه وإخلاصه لما صالح معاوية ، كما بين عليه السلام أنه إنما صالح خصمه محافظة على حجر وأمثاله من المؤمنين .

واندفع الصحابى العظيم وهو الذى ضرب الرقم القياسى للعقيدة والإيمان والفداء فى سبيل الله « عدى بن حاتم » بثورة نفسية عارمة إلى إنكار الصلح ، وكانت لهجة حديثه لهجة مؤدب كامل ، فقال للإمام وقد ذابت حشاه من الحزن والمصاب :

« يا ابن رسول الله ، لوددت أنى مت قبل ما رأيت ، أخرجتنا من العدل إلى الجور ، فتركنا الحق الذى كنا فيه ودخلنا فى الباطل الذى كنا نهرب منه ، وأعطينا الدنية من أنفسنا وقبلنا الخسيس التى لم تلق بنا » .

وترك كلام عدى فى نفس الإمام بالغ الأسى والحزن ، فانبرى عليه السلام مبيناً له العلة التى صالح من أجلها قائلا :

« يا عدى إنى رأيت هوى معظم الناس فى الصلح ، وكرهوا الحرب فلم أحب أن أحملهم على ما يكرهون ، فرأيت دفع هذه الحروب إلى يوم ما ،

فإن الله قال كل يوم هو فى شأن ، وأعرب عليه السلام فى جوابه عن سأم جيشه من الحرب وحبه للعافية وإيثار السلم ، ولم يقتنع عدى بكلام الإمام ، فمضى وهو مثقل الخطى نحو الإمام الحسين وقلبه يلتهب ناراً وحماساً ، وكان معه عبيدة بن عمر ، فلما انتهى إلى الإمام قال له بنبرات تقطر حماساً وعزماً إلى إثارة الحرب :

« يا أبا عبد الله شربتم الذل بالعز وقبلتم القليل وتركتم الكثير ، أطعنا اليوم وأعصينا الدهر . دع الحسن وما رأى من هذا الصلح واجمع إليك شيعتك من أهل الكوفة وغيرها . وولنى وصاحبى هذه المقدمة ، فلا يشعر ابن هند إلا ونحن نقارعه بالسيوف .

فقال له عليه السلام : « إنا قد بايعنا وعاهدنا ولا سبيل لنقض بيعتنا » .

« والمسيب بن نجية » وهو من عيون المؤمنين وخيار الصالحين الذين عرفوا بالولاء والإخلاص لآل البيت عليهم السلام ، وقد تأثر من الصلح وتألم بكل ما للتألم من معنى ، فقد أقبل إلى الإمام وهو محزون النفس مكلوم القلب قائلا :

« ما ينقضى تعجبى منك ؛ بايعت معاوية ومعك أربعون ألفا ، ولم تأخذ لنفسك وثيقة وعهداً ظاهراً ، أعطاك أمراً فيما بينك وبينه ، ثم قال ما قد سمعت والله ما أراد بها غيرك ، فقال له الإمام : ما ترى « أرى أن ترجع إلى ما كنت عليه ، فقد كان نقض ما بينك وبينه » فانبرى إليه الإمام مبيناً له أن المصلحة كانت تقضى بالصلح قائلا :

« يا مسيّب إني لو أردت ، بما فعلت ، الدنيا لم يكن معاوية بأصبر عند اللقاء ولا أثبت عند الحرب مني ، ولكني أردت صلاحكم وكف بعضكم عن بعض » .

وأعرب الإمام فى حديثه أنه لو كان من طلاب الدنيا وعشاق الملك والسلطان ، ما كان معاوية بأصبر منه ولا أثبت فى الحرب ، ولكن الانتصار عليه يتوقف على الاعتماد على الطرق التى لا يقرها الدين كالمواربة والمداهنة وما شاكل ذلك ، ولكنه عليه السلام أبى أن يسلك ذلك وسار على خطة أبيه الداعية إلى ملازمة الحق والعدل ومتابعة الشرع .

ودخل على الإمام (مالك بن ضمرة) وكان معروفاً بسعة العلم والفضل ، وكان ملازماً للصحابى العظيم أبى ذر ، وقد أدرك النبى صلى الله عليه وسلم ، ولما حضرته الوفاة أوصى بسلاحه إلى المجاهدين من بنى ضمرة واشترط عليهم ألا يقاتلوا به أهل البيت ، فقال له أخوه يا أخى عند الموت تقول هذا ، فقال له هو ذاك .

ولما أقبل سيد الشهداء إلى العراق وخرج أهل الكوفة لقتاله ، جاء أحد أعوان ابن زياد إلى موسى بن مالك مستعيراً منه رمح أبيه ليقاتل به ريحانة رسول صلى الله عليه وسلم فأعطاه إياه .

فلما خرج قالت له امرأة من أهله : يا موسى أما تذكر وصية أبيك ؟ فلما سمع بذلك طلبه حتى أخذ منه الرمح فكسره[1] .

---

(١) الإصابة ٣ – ٤٦٠ .

وقال مالك للإمام الحسن كلاماً مرًّا وكان فى منتهى الشدة ، فأجابه الإمام :

« إنى خشيت أن يجتث المسلمون عن وجه الأرض فأردت أن يكون للدين ناع » ، وأدلى الإمام عليه السلام فى حديثه عن حرصه على دماء المسلمين وأنه لو فتح باب الحرب بينه وبين معاوية لما بقى مسلم على وجه الأرض ، فصالح حفظاً على دماء المسلمين وإبقاءً عليها .

أما (سفيان بن أبى ليلى) والذى كان ممن يدين بفكرة الخوارج فقد دخل على الإمام وتكلم بكلمات تنم عن نفس مترعة بالجفاء والجهل قائلا :

« السلام عليك يا مذل المؤمنين » فتأثر عليه السلام منه واندفع قائلا :

« ويحك أيها الخارجى ، لا تعنفنى ، فإن الذى أحوجنى إلى ما فعلت قتلكم أبى وطعنكم إياى ، وانتهابكم متاعى ، وإنكم لما سرتم إلى صفين كان دينكم أمام دنياكم ، وقد أصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم ، ويحك أيها الخارجى ، إنى رأيت أهل الكوفة قوماً لا يوثق بهم ، وما اعتز بهم إلا من ذل ، وليس أحد منهم يوافق رأى الآخر ، ولقى أبى منهم أموراً صعبة وشدائد مرة ، وهى أسرع البلاد خراباً ، وأهلها هم الذين فرقوا دينهم ، وكانوا شيعاً » .

ومن الغريب أن نسمع كلمة (مذل المؤمنين) مرة أخرى من رجل جليل من أصحاب الإمام الحسن وهو « سليمان بن صرد » ، فقد كان من صفوة أصحاب الإمام فى إيمانه وعقيدته وولائه لآل البيت عليهم السلام ، وقيل إنه لم يكن حاضراً فى المدائن حينما جرى الصلح ، فلما وافته الأنباء المؤلمة ،

توجه إلى الإمام وكان فى يثرب وقال :

السلام عليك يا مذل المؤمنين ، ثم اندفع قائلا :

« إن تعجبنا لا ينقضى من بيعتك لمعاوية ، ومعك أربعون ألف مقاتل من أهل العراق ، وكلهم يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم ومواليهم سوى شيعتك من أهل البصرة وأهل الحجاز ، ثم لم تأخذ لنفسك ثقة فى العقد ، ولا حظًّا من العطية . فلو كنت إذ فعلت ما فعلت وأعطاك ما أعطاك بينك وبينه من العهد والميثاق ، كنت كتبت عليه بذلك كتاباً وأشهدت عليه شهوداً من أهل المشرق والمغرب ، إن هذا الأمر لك من بعده ، كان الأمر علينا أيسر ، ولكنه أعطاك هذا فرضيت به من قوله ، ثم قال : وزعم على رءوس الناس ما قد سمعت « إنى كنت شرطت لقوم شروطاً ، ووعدتهم عدات ومنيّتهم أمانى إرادة إطفاء نار الحرب ، ومداراة لهذه الفتنة ، إذ جمع الله لنا كلمتنا وألفتنا ، فإن كل ما هنالك تحت قدمى هاتين ، والله ما عنى بذلك إلا نقض ما بينك وبينه فأعد للحرب خدعة وأذن لى أن أشخص إلى الكوفة فأخرج عامله منها وأظهر فيها خلعه ، وانبذ إليه على سواء ، إن الله لا يهدى كيد الخائنين » .

ويدل هذا الحديث بدون شك ، على شدة إخلاص سليمان بن صرد وولائه للإمام على ، وقد حفزه إلى الثورة على حكومة معاوية ونقض البيعة لأنه لم يف بالعهد ولم يلتزم ببنود الصلح ، كما أعلن ذلك أمام الرأى العام .

ولما كانت المصلحة العامة للمسلمين لا تساعد على خلع معاوية ونقض المعاهدة فقد طلب الإمام من أنصاره الخلود إلى الصبر والسكون ما دام

معاوية على قيد الحياة ، ثم خاطب سليمان بن صرد قائلا :

وأما قولك : « يا مذل المؤمنين فوالله لأن تذلوا وتعافوا أحب إلىّ من أن تعزوا وتقتلوا ، فإن رد الله علينا حقنا فى عافية قبلنا ، وسألنا الله العون على أمره وإن صرفه عنا رضينا ، وسألنا الله أن يبارك فى صرفه منا ، فليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته ما دام معاوية حيًّا ، فإن يهلك ونحن وأنتم أحياء سألنا الله العزيمة على رشدنا والمعونة على أمرنا ، وألا يكلنا إلى أنفسنا ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

وفى النهاية دخل على الإمام بعض أصحابه وهو مندلع الثورة قد أخذ منه الوجد والأسى مبلغاً ليس بالقليل ، فقال له :

« يا ابن رسول الله أذللت رقابنا بتسليمك الأمر إلى هذا الطاغية » .

فقال الإمام : والله إنى ما سلمت الأمر إلا لأنى لم أجد أنصاراً ، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلى ونهارى حتى يحكم الله بينى وبينه ، ولكن عرفت أهل الكوفة وبلوتهم ، ولا يصلح لى منهم من كان فاسداً ، إنهم لا وفاء لهم ولا ذمة فى قول ولا فعل ، إنهم لمختلفون ويقولون لنا : « إن قلوبهم معنا وإن سيوفهم لمشهورة علينا » .

وترى مما تقدم أن الإمام رد على الناقدين لسياسته ، وأوضح لهم الحكمة فى ذلك ، وأجاب كلاًّ على عتابه ببراعة الحجة وأصالة الرأى .

كما بين لهم أنه لا ناصر له ولا معين ليناجز معاوية ، إذ لم يكن معه سوى الكوفة الذين لا وفاء لهم ولا ذمة فى قول ولا فعل ، فكيف يحارب بهم معاوية .

وكما ترى أن الإمام لم يحفل بشيء مما قاله أنصاره ، وإنما رضى عن خطته كل الرضا ورأى فيها حقناً للدماء ووضعاً لأوزار الحرب ، كما كرر بذلك لكل من عارضه ومن عاتبه ، وجمعاً لكلمة الأمة ، وتمكيناً للمسلمين من أن يستقبلوا أمورهم مؤتلفين لا مختلفين ، ومتفقين لا مفترقين ، ومن أن يفرغ أهل الثغور لثغورهم يردون عنها طمع العدو فيها وفيما وراءها ، ومن أن يفرغ الجند للفتح يستأنفونه من حيث وقفته الفتنة .

ولم يكن قعود الحسن عن الحرب جبناً ، وإنما كان كراهية لسفك الدماء من جهة وشكًّا فى أصحابه من الجهة الأخرى[١] .

وأخيراً فيرى الشيعة أن عليًّا قد أنبأ الحسن فى أكثر من مناسبة أن معاوية لا يموت حتى يملك ما تحت قدميه ، ولما عوتب الحسن من أصحابه فى أمر الصلح كما رأينا قال : « سمعت أبى عليًّا رحمه الله يقول : سيلى أمر هذه الأمة رجل واسع البلعوم كبير البطن ، فسألته : من هو ؟ فقال : معاوية ، كذلك تنبأ النبى صلى الله عليه وسلم بملك بنى أمية ، إذ رآهم فى المنام يعلون منبره واحداً واحداً ، فشق ذلك عليه ، فأنزل الله سبحانه وتعالى عليه : (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن) . كما أنبأ النبى أن ملكهم سيدوم ألف شهر ، فأعطى الله النبى ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر »[٢] .

---

(١) الأستاذ العميد الدكتور طه حسين .

(٢) ابن أبى الحديد . شرح نهج البلاغة .

موقف الإمام الحسين من الصلح :

اختلف المؤرخون فى موقف الإمام الحسين من صلح أخيه الإمام الحسن مع معاوية فيقول البعض إن الإمام الحسن أرسل إلى أخيه أبى الشهداء رضى الله عنهما فأتاه .

فقال : أى أخى ، إنى رأيت رأياً وأحب أن تتابعنى عليه .

فقال : ما هو

فقال : رأيت أن أعمد إلى المدينة فأنزلها وأخلى بين معاوية وبين هذا الحديث فقد طالت الفتنة وسفكت فيها الدماء وقطعت الأرحام وعطلت السبل وعطلت الثغور .

فقال الحسين : أعيذك بالله أن تكذب عليًّا فى قبره وتصدق معاوية .

فقال الحسن : والله ما أردت أمراً إلا خالفتنى إلى غيره ، والله لقد هممت أن أقذفك فى بيت فأطبنه عليك حتى أقضى أمراً .

فلما رأى الحسين غضبه قال فى أدب رفيع : أنت أكبر ولد على وأنت خليفتى وأمرنا لأمرك تبع فافعل ما بدا لك .

والفريق الآخر يقول إن موقف سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام من قضية الصلح كموقف أخيه الحسن عليه السلام فكان يرى ضرورة المهادنة ولزوم المسالمة وأنه ليس من الحكمة ولا من الصالح فتح باب الحرب مع معاوية ، فإنه يعود بالمضاعفات السيئة على الإسلام ، ويجر الويلات والخطوب

للمسلمين وذلك لتفلل الجيش الذى نزح معهم .

ويروى بعض رجال التاريخ أن الحسن عليه السلام قال لابن عمه عبد الله بن جعفر : « إنى رأيت رأياً أحب أن تتابعنى عليه » فانبرى إليه ابن جعفر قائلا : ما هو ؟

رأيت أن أعمد إلى المدينة فأنزلها وأخلى بين معاوية وبين هذا الحديث ، فقد طالت الفتنة وسفكت فيها الدماء وقطعت الأرحام وعطلت الفروج » .

فأيد ابن جعفر رأيه قائلا : « جزاك الله عن أمة محمد خيراً وأنا معك » .

ويدلل هذا الفريق على أن الإمام الحسين كان موافقاً على الصلح من أنه لما أبرم الإمام الحسن الصلح أقبلت إلى الإمام الحسين طائفة من الزعماء والوجوه يطلبون منه أن ينقض ما أبرمه أخوه ويناجز معاوية فأبى عليه السلام وامتنع ولو كان رأيه مخالفاً لرأى أخيه لأجابهم إلى ذلك .

ونقول إنه مما لا شك فيه أن الصلح قد ترك فى نفس الحسين أسى مريرًا وحزناً مرهقاً كما ترك فى نفس الحسن أيضاً لوعة وحزناً ولكنهما سلام الله عليهما ماذا يصنعان والظروف لم تكن مواتية لهما حتى يقوما بمناجزة معاوية .

لقد تم الصلح وعادا إلى المدينة معاً .

ولعله من المفيد أن أختم هذا الموضوع بالبحث القيم الذى كتبه السيد عبد المحسن شرف الدين عن « ثورة الحسين صدى لصلح الحسن » يقول : «كان بنفسى من قديم أن أعنى ببحث هذه المسألة بحثاً يدفع هذه الشبهة عن أبى محمد فى نفوس غير المتمكنين فى فهم التاريخ فهماً صحيحاً ،

وكثير من هؤلاء لا يرجعون إلى مصدر علمي في وزن هؤلاء النفر من أهل البيت وإخضاع حركاتهم في حالتي مدها وجزرها للمبدأ الأسمى الذى طوعهم لخدمته وأفنى ذواتهم في ذاته ، فكانوا ينقبضون حين يشاء لهم الانقباض وينبسطون حين يشاء لهم الانبساط كذلك .

كان بنفسي أن أرد هذه الشبهة عن أبي محمد السبط بإقامة هذا الميزان العلمي الذى يجلو هذه الحقيقة ويكشف خدرها ، غير أن وارداً ثقيلاً من المشاغل التي لا تنتهى كان يصرفني عما بنفسي من ذلك فهأنذا الآن أوجز الإشارة إلى هذه الشبهة ودفعها ، وعسى أن تعود هذه النواة غرساً أتعهده أنا بما ينميه إن سنحت الفرصة أو لا فينميه قلم من هذه الأقلام الصقيلة المغموسة بقلوب الأحرار وعقول العلماء من خدام الحقائق .

أما الشبهة فقديمة كقدم النظر القاصر فيمن يأخذون من الأشياء بالظاهر ، والملمون بتاريخ الحسن عليه السلام يعرفون أن قوماً من صحابته أخذوا عليه قعوده عن حرب معاوية ومناجزته إياه القتال ، حتى لأوشك أن يذهب يومئذ ضحية هذه الفتنة ، وحتى دخل عليه خاصته بسلام غليظ يقولون فيه « السلام عليك يا مذل المؤمنين » .

وقد يكون لهؤلاء عذر بحماستهم التي نعرفها لذوى النجدة من فتيان الإيمان الذى تغلب فيهم عاطفة الحماسة واستقرار الروية وبعد النظر .

وقد يكون ذلك ، ولكنا لا نقصد الآن إلى الاعتذار لهم ، بل نريد أن نثبت طرف هذه الشبهة عن الأول لنراها تتسلسل منه فتظهر بين حين وآخر ، طوراً

على لسان أوليائه ، وتارة على لسان أعدائه ، وهى هنا وهناك لا تظهر إلا لتدل على جهل هؤلاء وأولئك .

فنحن حين نزن صلحه عليه السلام وحربه نرجح كفة الصلح من حيث اعتبرت المعايير المرعية ، وكن إذا شئت (ماديًّا) أو كن (روحيًّا) تتجاوز بإيمانك وفهمك مدى المحسوسات المرئية .

كن أول الأمر ماديًّا وناقش حرب الحسن فى جيش حكم على نفسه بالهزيمة قبل أن يخوض المعركة ، وغزاه معاوية الذى ثبت لعلىّ من قبل ، ولعلىّ معنوية عسكرية ترجف الأرض من خيفتها . مضافاً إلى معنوياته الأخرى التى لم يكن الحسن يتمتع بمثلها فى نفوس معاصريه .

نعم لك أن تقول كان على الحسن أن يستشهد فيموت عزيزاً ، ولكن أعد النظر فى تاريخ هذه الفترة لترى أن الاستشهاد فيها ينمسخ إلى معنى من معانى (الخروج) فلم تكن يومئذ حقيقة وطنية ثابتة ولا روحاً مبدئية مستقرة لتكون التضحية تضحية مقررة القواعد ، وليس أنفه فى هذه الحال ، من الموت يعين على صاحبه ويميته مرة أخرى فى معناه .

كذلك الحياة الإسلامية تنتكس حقًّا وتتحول إلى ملك عضوض ، وكانت المطامع تتجند فى ركاب الملك هاربة من حواشى الخلافة ، ولكنها كانت ما تزال تحتفظ بوسيلة الإسلام وظاهر مبادئه فى (وصولية) صاغها معاوية بدهائه ، وكان هذا وحده عذراً للحسن من ناحيتين :

١ – كان عذره فى الصلح لأن (الدنيا) كانت تظاهر معاوية فتستلب

منه ابن عمه وقائد عسكره .

٢ — ثم كان عذره فى القعود عن الشهادة ، لأن ذلك بعينه ليس ظرف الشهادة لأنه كان قادراً على مسخها .

فأى ربح مادى فى الموت لو اختاره الحسن كما يريد هؤلاء غير أنه يعين معاوية على نفسه حيًّا وميتاً .

إننى لا أرى شيئاً أدل على عظمة الحسن من هذه السياسة المادية التى حددت موقفه على هذا النحو فى أخطر دور مرّ به الإسلام ، فكانت نواة لقلب الحكم الأموى كما كانت مادة ذلك البارود الجبار الذى انفجر فى مصرع الحسين عليه السلام ذلك الانفجار ، ولو لم يكن موقف الحسن هذا لأتيح لمعاوية سلطان لا يعرف الناس منطوياته ، ولما أتيح للحسين أن يكون الفداء الخالد للمبدأ الخالد .

وبعد أن كنت ماديًّا فكن (روحيًّا) وناقش حرب الحسن لتجتمع لك الاعتبارات كلها على رجحان كفة الصلح .

الحسن عليه السلام ليس من طلاب (الإمرة) لذات الإمرة ، بل هو ممن يريدون الخلافة وسيلة للإصلاح ، وإقامة العدل والسلام بين الناس ، وما أظن هذه العقيدة الروحية تعدم دليلها المادى فأبوه وجده أثبتا فى الإسلام أنهما كذلك ، وله قبل الإسلام إرث ينهض دليلا على أنه من معدن مصلح لا يطلب النفوذ إذا استغنى عن فعل الخير .

ومن هنا كان سهلا عليه أن يتنازل عن الخلافة لأنه فى فترة لا تقدرهى على

بداء الخير فى ظل ذلك الجيل المكبوت المشتاق إلى الشهوات يصيب منها فوق كفايته على موائد معاوية ، بل لقد كان الواجب عليه أن يتنازل مع عدم المقدرة على تذليل العقبة من إخضاع (الأموية) المندفعة لأن تنازله يأتى وفق الخطة التى رسمتها له مبادئه .

وليس عاتبو تنازله أشد إحساساً منه بآلام التنازل وهو المجروح ، ولكنها التضحية الضخمة فرضت عليه أن يتحمل آلام القعود التى كتبتها عليه مثله العليا ومبادئه الحسنى .

وهى تضحية لا تقل قدراً ، إن لم تزد ، عن تضحية الإمام الحسين عليه السلام وكن الآن ما شئت ، كن مادياً أو كن روحياً فستنتهى آخر الأمر إلى نتيجة رائعة ، وهى أن صلح الحسن مصدر من أكبر مصادر ثورة الحسين التحريرية ، وإلى أن جوهر التضحية واحد عند الإمامين وإن اختلف مظهرهما » .

والحق أنه عليه السلام لو ضحى بنفسه لذهبت تضحيته معدومة الأثر ، لا تقيم حقاً ، ولا تغير باطلا ، لأن معاوية بمكره وخداعه يلقى المسئولية على الحسن ويبرئ نفسه عن ارتكاب الجريمة .

فيقول للناس : « إنى دعوت الحسن للصلح ، ولكن الحسن أبى إلا الحرب ، وكنت أريد له الحياة ، ولكنه أراد لى القتل ، وأردت حقن الدماء ولكنه أراد هلاك الناس بينى وبينه . . . » ومعاوية له هذه القابليات التى يظهر بها نفسه مظهر العادل المنصف ، وبذلك تكون التضحية مسلوبة

الأثر معدومة الفائدة .

أما الحسين عليه السلام فقد جاءت تضحيته الخالدة موافقة لظرفها الملائم ومنسجمة مع مقتضيات الزمن ، لأن الأثيم يزيد ليس معه من يدير شئونه ويردعه عن طيشه وغروره ، فقد هلكت تلك العصابة التى كان يعتمد عليها معاوية فى تدبير شئونه كابن العاص والمغيرة وأمثالهما من دهاة العرب ولم يبق منهم معه أحد ، فلذا نهض الإمام الحسين عليه السلام بتلك النهضة الموفقة التى جاءت بالنهاية المحتومة لدولة أميَّة .

وبالجملة إن مهادنة الحسن وشهادة الحسين عليهما السلام قائمتان على فكْرة عميقة منبعثة من وحى جدهما الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولولا صلح الإمام الحسن وشهادة أخيه سيد الشهداء لما بقى للإسلام اسم ولا رسم ، وفى ذلك يقال إنه كما كان الواجب فى الظروف التى ثار فيها الحسين سلام الله عليه على طاغوت زمانه أن يحارب ويقاتل حتى يقتل هو وأصحابه وتسبى عياله ودائع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما كان هذا هو المتعين فى فن السياسة وقوانين الغلبة .

كذلك كان الواجب فى ظروف الحسن رضى الله عنه وملابساته هو الصلح وشهادة الحسين ، والذى لولاه لما بقى للإسلام اسم ولضاعت كل جهود سيدنا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به للناس من خير وبركة ورحمة .

ولم يقتصر نقد صلح الحسن على أصدقائه وشيعته ، بل تجرأ (لامنس)

الرجال الذى حاول أن يطعن الدين الإسلامى فى كل ما كتبه ، فيقول :
« وبويع الحسن بعد مقتل علىّ فحاول أنصاره أن يقنعوه بالعودة إلى قتال أهل الشام ، وقلب هذا الإلحاح من جانبهم حفيظة الحسن القعيد الهمة ، فلم يعد يفكر إلا فى التفاهم مع معاوية . كما أدى إلى وقوع الفرقة بينه وبين أهل العراق ، وانتهى بهم الأمر إلى إثخان إمامهم اسماً لا فعلا بالجراح ، فتملكت الحسن منذ ذلك الوقت فكرة واحدة هى الوصول إلى اتفاق مع الأمويين ، وترك له معاوية أن يحدد ما يطلبه جزاء تنازله عن الخلافة ، ولم يكتف الحسن بالمليون درهم التى طلبها معاشاً لأخيه الحسين بل طلب لنفسه خمسة ملايين درهماً أخرى ودخل كورة فى فارس طيلة حياته ، وعارض أهل العراق بعد ذلك فى تنفيذ الفقرة الأخيرة من هذا الاتفاق ، بيد أنه أجيب إلى كل ما سأله حتى إن حفيد النبى اجترأ فجاهر بالندم على أنه لم يضاعف طلبه وترك العراق مشيعاً بسخط الناس عليه ليقبع فى المدينة » .

وزيادة على ذلك فهناك كثير من المؤرخين الآخرين يلقى تبعة الصلح على الحسن نفسه ، إذ قد أثار الريبة فى موقفه حين طلب منهم البيعة على أن يكونوا سامعين مطيعين يسالمون من سالم ويحاربون من حارب ، فعده بعض أهل العراق ليس لهم بصاحب وما يريد القتال ، فقصدوا الحسين وعرضوا عليه البيعة فأبى عليهم ما دام الحسن قائماً .

ويرى بروكلمان : أن الحسن لم يكن رجل الساعة إذ رفض أن يصحب جنده ليهاجم عدوه . وذهب « هوكلى » إلى أن الحسن لم يكن كفؤاً للموقف

الأثر معدومة الفائدة .

أما الحسين عليه السلام فقد جاءت تضحيته الخالدة موافقة لظرفها الملائم ومنسجمة مع مقتضيات الزمن ، لأن الأثيم يزيد ليس معه من يدير شئونه ويردعه عن طيشه وغروره ، فقد هلكت تلك العصابة التى كان يعتمد عليها معاوية فى تدبير شئونه كابن العاص والمغيرة وأمثالهما من دهاة العرب ولم يبق منهم معه أحد ، فلذا نهض الإمام الحسين عليه السلام بتلك النهضة الموفقة التى جاءت بالنهاية المحتومة لدولة أميَّة .

وبالجملة إن مهادنة الحسن وشهادة الحسين عليهما السلام قائمتان على فكْرة عميقة منبعثة من وحى جدهما الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولولا صلح الإمام الحسن وشهادة أخيه سيد الشهداء لما بقى للإسلام اسم ولا رسم ، وفى ذلك يقال إنه كما كان الواجب فى الظروف التى ثار فيها الحسين سلام الله عليه على طاغوت زمانه أن يحارب ويقاتل حتى يقتل هو وأصحابه وتسبى عياله ودائع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما كان هذا هو المتعين فى فن السياسة وقوانين الغلبة .

كذلك كان الواجب فى ظروف الحسن رضى الله عنه وملابساته هو الصلح وشهادة الحسين ، والذى لولاه لما بقى للإسلام اسم ولضاعت كل جهود سيدنا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به للناس من خير وبركة ورحمة .

ولم يقتصر نقد صلح الحسن على أصدقائه وشيعته ، بل تجرأ (لامنس)

الرجل الذى حاول أن يطعن الدين الإسلامى فى كل ما كتبه . فيقول : « وبويع الحسن بعد مقتل علىّ فحاول أنصاره أن يقنعوه بالعودة إلى قتال أهل الشام ، وقلب هذا الإلحاح من جانبهم حفيظة الحسن القعيد الهمة ، فلم يعد يفكر إلا فى التفاهم مع معاوية ، كما أدى إلى وقوع الفرقة بينه وبين أهل العراق ، وانتهى بهم الأمر إلى إثخان إمامهم اسماً لا فعلا بالجراح ، فتملكت الحسن منذ ذلك الوقت فكْرة واحدة هى الوصول إلى اتفاق مع الأمويين ، وترك له معاوية أن يحدد ما يطلبه جزاء تنازله عن الخلافة ، ولم يكتف الحسن بالمليون درهم التى طلبها معاشاً لأخيه الحسين بل طلب لنفسه خمسة ملايين درهماً أخرى ودخل كورة فى فارس طيلة حياته ، وعارض أهل العراق بعد ذلك فى تنفيذ الفقرة الأخيرة من هذا الاتفاق ، بيد أنه أجيب إلى كل ما سأله حتى إن حفيد النبى اجترأ فجاهر بالندم على أنه لم يضاعف طلبه وترك العراق مشيعاً بسخط الناس عليه ليقبع فى المدينة » .

وزيادة على ذلك فهناك كثير من المؤرخين الآخرين يلقى تبعة الصلح على الحسن نفسه ، إذ قد أثار الريبة فى موقفه حين طلب منهم البيعة على أن يكُونوا سامعين مطيعين يسالمون من سالم ويحاربون من حارب ، فعده بعض أهل العراق ليس لهم بصاحب وما يريد القتال ، فقصدوا الحسين وعرضوا عليه البيعة فأبى عليهم ما دام الحسن قائماً .

ويرى بروكلمان : أن الحسن لم يكن رجل الساعة إذ رفض أن يصحب جنده ليهاجم عدوه . وذهب « هوكلى » إلى أن الحسن لم يكن كفؤاً للموقف

لميله إلى السلم . وعد « سايكس » الحسن غير جدير أن يكُون ابناً لعليّ ، ذلك الرجل العظيم لانشغاله بملذاته واكتفائه بإرسال اثنى عشر ألفاً كطليعة لجيشه .

وكذلك قال المستشرق (روايت م رونلدس) : « إن الأخبار تدل على أن الحسن كانت تنقصه القوة المعنوية والقابلية العقلية لقيادة شعبه بنجاح » .

وقال الدكتور (فيليب حتّي) : « وفى بدء حكم معاوية قامت حركة أخرى كان لها شأن كبير فى الأجيال التى تلت ، أعنى إعلان أهل العراق الحسن بن على الخليفة الشرعى ، ولعملهم هذا أساس منطقى ، لأن الحسن كان أكبر أبناء علىّ وفاطمة ابنة النبي الوحيدة الباقية بعد وفاته ، ولكن الحسن الذى كان يميل إلى الترف والبذخ لا إلى الحكم والإدارة ، لم يكن رجل الموقف فانزوى عن الخلافة مكتفياً بهبة سنوية منحه إياها » .

وما كتبه (لامنس) وغيره من المستشرقين عن صلح الإمام فيه كل الحقد والعداء للإسلام ، كما أن رأيهم لم يكن خاضعاً لحرية الفكر ، ودراستهم تعتمد على الدراسة السطحية الخالية من التحقيق والتدقيق ، كما لم يحتضن قولهم الدليل فى جميع أحواله ، وذلك لعدم وقوفهم على العوامل التى أحاطت بالإمام حتى دعته إلى مسالمة خصمه . وإن كان البعض قد أعطى الإمام الحسن العذر فيقول (دونلدسون) : « إن الحسن صالح معاوية حين شعر أن أصحابه قد افترقوا عنه » . ويقول (ميور) : « إنه على الرغم من حزن أهل العراق على رحيل الحسن ، فإنه لم يأسف لفراقهم ، فإنهم جماعة لا يمكن الثقة بهم فهم

لا يستقرون على رأى واحد » ، وأخيراً يقول السيد أمير على : « إن عدم استقرار الشعب المتقلب الأهواء كان العامل الذى حطم آمال علىّ بن أبى طالب وحمل ابنه الحسن على النزول على الخلافة »[١] .

ولا شك أن تعليقات أكثر المستشرقين الذين تجنوا على الحسن – رضى الله عنه – فيها تجاهل للموقف ، فمما لا شك فيه أن الأمور كانت تسير من سيئ إلى أسوأ فى أواخر عهد الإمام على ، وقد تولى الحسن الخلافة فى أدق الظروف ولم يكن تحت ولايته من الأقاليم غير العراق بعد أن استولى معاوية على معظم أرجاء الدولة ، وكان مقتل الإمام على أكبر انهيار فى الموقف ، ثم توالت الخيانات من أشراف العراق كما بينا ، وقد عبر الإمام الحسن نفسه عن سبب تنازله بقوله : « يا أهل العراق إنى سخى بنفسى عنكم لثلاث : ١ – قتلكم أبى . ٢ – طعنكم إياى . ٣ – انتهابكم متاعى ، وكرهت الدنيا ، ورأيت أهل الكوفة قوماً لا يثق بهم أحد أبداً إلا غلب ، ليس أحد منهم يوافق آخر فى رأى ، لا يطمأن لهم فى خير ولا شر قد لقى أبى منهم أموراً عظاماً[٢] .

---

(١) ابن قتيبة = الإمامة والسياسة .

(٢) ابن الأثير ، الكامل .

مقدمة

الحسن والحسين

إذا ذكر اسم الحسن فلابد أن يذكر اسم الحسين فكأنهما كانا مخلوقاً واحداً يحمل هذين الاسمين .

١ – كلاهما فيض من نفسى على وفاطمة – حتى كأن الله قسم بينهما كل هباته ومننه بالعدل .

٢ – وإنه من اسم أولهما اشتق اسم الثانى .

٣ – وولادتهما متقاربة واستعدادهما كان واحداً إذ نشآ فى بيت واحد ونبت لحمهما على نفس الغذاء .

٤ – وتوافر على تربيتهما أشخاص بعينهم فرويا من معين واحد فاجتمعت فيهما أمور تجيز لمن عرفهما -- لولا تفاوت فى الطبائع والهيئة الخارجية – أن يقول : الحسن أرى أم الحسين .

٥ – دخلا الحياة من باب واحد وافترقا يقصدان هدفاً معيناً ثم خرجا منها عن طريقين مختلفين والتقيا فيها .

ولم يباعد بينهما التباين فى تصرفاتهما لأنهما قد نشدا الضالة ذاتها ، وكانا بحق من سلالة بيت أبى طالب الذى عبد الله حق عبادته وعرفه

حق معرفته فقدم الأنفس الزكية قرابين فى سبيله ، وإنه لبيت ينسى نفسه عندما يذكر الدين .

٦ – وهناك تشابه فى الصراع بين الحسن ومعاوية ، والصراع بين الحسين ويزيد ، كلاهما صراع دين ودنيا أو حق وباطل ، من أجل ذلك سلمّ الحسن ملك المسلمين إلى معاوية بشروط لئلا يضرب الأمة بعضها ببعض من أجل منصب فتكون من ثم نهاية الخلافة والخلفاء ، ففعل ما فعله أبوه يوم حُمل على قبول التحكيم ثم لاقاهما الحسين بنفس النتيجة النهائية : التضحية .

٧ – وفى أيام الإمام على كان الجيشان ضخمين ومتقاربين بالعدة والعديد .

٨ – وفى أيام الحسن كاد الجيشان يتقاربان بالعدة والعدد لولا الخيانة والغدر .

٩ – ويوم الحسين كان الجيشان مختلفين أشد الاختلاف بالعدة والعدد ، فموقفهم جميعاً ليس فيه سذاجة ولا ارتجال ولا تهور بل كلها تبصر وتدبر ، لأن السبط الأول لم يرغب بنفسه عن الناس ولا رغب أخوه فى منفعة ذاتية كما لم يرغب أبوهما عن المنفعة العامة .

١٠ – ولابد أن نذكر أن الحسن قد يختلف قليلا عن أخيه – كما أن معاوية غير يزيد قطعاً .

وينبغى أن لا نخلط بين ظرف وظرف ومجتمع ومجتمع ومناسبة

فالحسن حليم – بله إنه الحلم مجسماً .

ومعاوية متعرض يأخذ إذا تمكن ويترك إذا لم تُعطه الظروف . والحسين فادٍ بل إنه الفداء الرمزى مخلوقاً فى شخص . ويزيد أحمق وهو الحمق مجسداً على الأرض .

ولنترجم هذا إلى أن الحسن لو ثار فى زمن معاوية لصالحه كما صالحه أخوه بعد أن يرى جيشاً يكثر عدد الخونة فيه وأن الحسن لو كان فى زمن يزيد لثار ولقتل كما قتل أخوه دون أن يتردد فى تضحية فئة قليلة من الرجال والنساء والأطفال .

فالحسن والحسين وإن اختلفا بالواسطة فقد اتفقا بالغاية وضحيا فى سبيل ما عملا من أجله تضحيتين مختلفتين ، هذا بجاه الدنيا وزينتها وذاك بالدنيا وبالنفس الغالية .

والمعادلة أخيراً ليست صعبة .

فالحسن مع معاوية يساوى الحسين مع يزيد .

أوالحسن مضروباً بمعاوية يساوى الحسين مضروباً بيزيد .

ويروى (جندب الأزدى) أنه دخل على الحسن بعد الصلح مع جماعة وقالوا له . . . فأجاب . . ودخلنا على أخيه الحسين وهو يأمر غلمانه بالخروج إلى المدينة فجاءنا وسلّم علينا وجلس معنا ، ورأى فى وجوهنا الكآبة والحزن فسبقنا بالكلام – وقال :

الحمد لله كما هو أهله – إن أمر الله كان مفعولا وإن أمر الله كان قدراً

مقدوراً - إنه كان أمراً مقضيًّا . والله لو اجتمعت الإنس والجن على الذى كان ألا يكون لما استطاعوا ، والله لقد كنت طيب النفس بالموت حتى عزم علىّ أخى الحسن وناشدنى الله ألا أنفذ أمراً ولا أحرك ساكناً فأطعته ، وكأنما يجدع جادع أنفى بالسكاكين ويشرح لحمى بالمناشير ، وقد قال الله تعالى : (عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . . .) .

الآن كان صلحاً وكانت بيعة ولننظر ما دام معاوية حيًّا فإذا مات نظرنا ونظرتم هذا ما قاله الحسين بعد الصلح بأيام ، ثم حفظ موثق أخيه طيلة أيام معاوية كما وعد أصحابه ، فقد اجتمع عليه الأصحاب بعد وفاة أخيه يعزونه وكتب له كثير منهم يستحثونه على الثورة فكان دائماً يقول : (معاذ الله أن أنقض عهداً عهد به أخى الحسن) .

ألم يكن باستطاعة أبى الشهداء الإمام الحسين أن يجمع الذين جمعهم أخوه ويزيد عليهم بما أوتيه من حماس ليثور بوجه معاوية ؟ — ولم أجل ثورته وما الذى قعد به اليوم ؟ — لم يقعد إلا اعترافاً بما فعل سيده — ولم يتغاض إلا لذات الأسباب التى حملت أخاه على التغاضى والقعود . . فقد تحرك العراقيون إذاً بعد وفاة الحسن وكتبوا لأخيه يبايعونه ويخلعون معاوية — وقد امتنع هو عنهم وذكر العهد الذى لا يجوز نقضه حتى تنقضى المدة ووعد بأن ينظر فى الأمر بعد موت الرجل .

فقد كان الحسن يعرف - من الظواهر كثيراً مما يلى عهد معاوية

فهو فى الحقيقة الممهد للنُّهزة المنتظرة لأنه يرى غوغاء عهده لا يرون كبير فارق بين ولايته وولاية معاوية ، فليترك الأمر حتى يتبين الخبيث من الطيب فمن غير المعقول أن يكون غير ما كان .

فسالمة الحسن لخصمة كمجاهدة الحسين لعدوه .

ومدّ يد الأول لمعاوية كتقديم الثانى نفسه لمدية يزيد إذا اعتبرنا الصافى من نتائج الصلح ونتائج الثورة لأحد السبطين قد فعل ما يجب عليه مع مراعاة الواجب والظرف ، ولأن الثانى قد فعل ما لزمه وقام بالواجب الذى حتمه الظرف .

فبايعة الأول لمعاوية المجهول من جل معاصريه كمحاربة الثانى ليزيد المشهور لدى جل معاصريه .

وفى تحمل الحسن للذل عِزّ وذلت دعوة الأمويين وافتضح أمرهم كما أن فى تحمل الحسين للقتل عاش وماتت دعوة الأمويين ! فلم يرغب الحسن بنفسه عن الصلح العام عند عرض شروط ملائمة ولم يقل الحسين يوم الطفّ إلا :

إن كان دينُ محمدٍ لم يستقم   إلا بقتلى يا سيوف خذينى

والحسن والحسين يتفقان فى الأمور الروحية والأوامر الربانية — وإذا انعدمت الأمور الروحية أو ألغيت الأوامر الربانية فقد انعدم كيانهما وألغى وجودهما لأنهما إن تعريا من ذلك فما تبقّى لهما من صورة ولا تبقى لحياتهما من ضرورة ألبتة .

ولنلتفت إلى أن معاصريهما وجميع من لحق بمعاصريهما لم يحكموا لأحدهما أو على أحدهما بما نجّوا منه الثانى – بل كانا فى وزن واحد وباعتبار واحد يكفى لتقريبه إلى كل ذهن – وإلى الأبد – أن يقال : هذا الحسن وذاك الحسين .

فهم سبطا محمد وابنا على وفاطمة وإمامان معصومان قاما فى طلب الأمر أو قعدا عن طلبه وسيدا شباب أهل الجنة بنظر الناس إلى يوم يبعثان . . من أحبهما – كما نقل الخدرى – تساقط الذنوب عنه كما تُساقط الريح الورق عن الشجر .

ولذا قال الإمام الشافعى :

يا راكباً قف بالمحصب من منى ... واهتف بساكن خيفها والناهض

إن كان رفضاً حبّ آل محمـــدٍ ... فليشهد الثقلان أنى رافضى

موقف الإمام الحسن

رأينا موقف أنصار الإمام الحسن من صلحه مع معاوية وما لاقاه منهم من عنت وكيف أن أكثرهم لقبوه (بمذل المؤمنين) .

وسيرى القارئ فى الكتاب الرابع الخاص بالإمام الحسين فى الجزء الخاص « برحلة الإمام الحسين رضى الله عنه فى الميزان » المقارنة بين موقف الإمام الحسن والإمام الحسين ، وأرى فى هذا المقام أن أبادر بالمقارنة بين ظروف كل من الإمامين .

فقد رأى[1] كثير من الناس أن الشمم الهاشمى الذى اعتاد أن يكون دائماً فى الشواهق . كان أليق بموقف الحسين عليه السلام منه بموقف الحسن رضى الله عنه .

وهذه هى النظرة البدائية التى تفقد العمق ولا تستوعب الدقة .

فما كان الحسن فى سائر مواقفه إلا الهاشمى الشامخ المجد الذى واكب فى مجادته مثل أبيه وأخيه معاً . فإذا هم جميعاً أمثولة المصلحين المبدئيين فى التاريخ . ولكل بعد ذلك ، جهاده ورسالته ومواقفه التى يستمليها من صميم ظروفه القائمة بين يديه . وكلها الصور البكر فى الجهاد . وفى المجد . وفى الانتصار للحق المهتضم المنصوب .

---

(١) صلح الحسن = للشيخ راضى آل ياسين .

وكان احتساء الموت ، قتلا ، فى ظرف الحسين ، والاحتفاظ بالحياة صلحاً ، فى ظرف الحسن ، بما مهدا به : عن طريق هاتين الوسيلتين لضمان حياة المبدأ ، وللبرهنة على إدانة الخصوم هو الحل المنطقى الذى لا معدى عنه لمشاكل كل من الظرفين ، وهو الوسيلة الفضلى إلى الله تعالى ، وإن لم يكن الوسيلة إلى الدنيا ، وهو الظفر الحقيقى المتدرج مع التاريخ ، وإن كان فيه الحرمان حالا وخسارة السلطان ظاهراً .

وكلتا التضحيتين : تضحية الحسين بالنفس ، وتضحية الحسن بالسلطان هما قصارى ما يسمو إليه الزعماء المبدئيون فى مواقفهم الإنسانية المجاهدة .

وكانت عوامل الزمن التى صاحبت كلا من الحسن والحسين فى زعامته هى التى خلقت لكل منهما ظرفاً من أصدقائه وظرفاً من أعدائه ، لا يشبه ظرف أخيه منهما ، فكان من طبيعة اختلاف الظرفين اختلاف شكل الجهادين واختلاف النهايتين أخيراً .

ولنتكلم أولا : عن ظروفهما من أنصارهما ومثلت خيانة الأصدقاء الكوفيين بالنسبة إلى الحسين عليه السلام خطوته الموفقة فى سبيل التمهيد لنجاحه المطرد فى التاريخ ، ولكنها كانت بالنسبة إلى أخيه الحسن عليه السلام ، يوم مسكن والمدائن ، عقبته الكؤود التى شلّت ميدانه عن تطبيق عملية الجهاد ، ذلك لأن حوادث نقض بيعة الحسين كانت قد سبقت تعبئته للحرب ، فجاء جيشه الصغير يوم وقف به للقتال منخولا من كل شائبة تضيره كجيش إمام له أهدافه المثلى .

أما الجيش الذى أَخذ مواقعه من صفوف الحسن ، ثم فر ثلثاه ونفرت به الدسائس المعادية ، فإذا هورهن الفوضى والانتقاض والثورة ، فذلك هوالجيش الذى خسر به الحسن كل أمل من نجاح هذه الحرب .

ومن هنا ظهر أن هؤلاء الأصدقاء الذين بايعوا الحسن وصحبوه إلى معسكراته كمجاهدين ، ثم نكثوا بيعتهم وفروا إلى عدوهم أو ثاروا بإمامهم كانوا شراًّ من أولئك الذين نكَثوا بيعة الحسين قبل أن يواجهوه ، وهكذا مهد الحسين لحربه ، بعد أن نخلت حوادث الخيانة أنصاره ، جيشاً من أروع جيوش التاريخ إخلاصاً فى غايته وتفادياً فى طاعته وإن قل عدداً .

أما الحسن فلم يعد بإمكانه أن يستبقى حتى من شيعته المخلصين أنصاراً يطمئن إلى جمعهم وتوجيه حركاتهم ، لأن الفوضى التى انتشرت عدواها فى جنوده كانت قد أفقدت الموقف قابلية الاستمرار على العمل ، وأى فرق أعظم من هذا الفرق بين ظرفيهما من أنصارهما ؟

وأما ظروفهما من أعدائهما هو الفرق بين معاوية ويزيد ، والفرق بينهما هو ما طفح به التاريخ من قصة البلادة السافرة فى الابن والدهاء فى الأب ، ومن وراء ذلك الخصومة التاريخية التى أكل عليها الدهر وشرب بين بنى هاشم وبنى أمية ، ولم تكن الأموية يوماً من الأيام كفؤاً للهاشمية ، وإنما كانت عدوتها التى تخافها على سلطانها ، وتناوئها دون هوادة .

ولا تنس الاختلاف أيضاً بين هذين الأخوين فى الطبع والمزاج والسيرة .

كان الحسن صاحب أناة ورفق ، كرّها إليه الحرب وسفك الدماء وحملاه

على أن يؤثر السلم ويترك خلافة تكلفه مثل ما كلفت أباه من أهوال الحرب .

وكان الحسين كأبيه ، صارماً فى الحق لا يحب الرفق ولا الهوادة ولا التسامح فيما لا ينبغى التسامح فيه ، وكان صارماً على نفسه وعلى غيره يتجرع مرارة الصبر على ما لا يجب ، رأى الوفاء لأخيه حقًّا عليه ، فوفى له وأطاعه كما أطاع أباه من قبله ، كما كان الحسين صاحب فطنة وحسن النظر فى الأمور .

ولقد كان لهاتين السياستين آثار ظاهرة ، فلم يؤذ الشيعة فى أنفسهم ولا فى أموالهم ما عاش الحسن كانوا يعارضون فى لين وينكرون فى رفق ، وكان معاوية وولاته يسمعون منهم ويكفون عنهم وربما استصلحوهم بالقول والعمل ، فلما صار أمر الشيعة إلى الحسين عنفت المعارضة وكادت تصبح ثورة فى الكوفة ، فلقيها معاوية وولاته بالشدة بل بالإسراف فى الشدة حتى تجاوزوا فى قمعها كل معقول .

وكانت نتيجة هذه الشدة أن عظم أمر الشيعة فى الأعوام العشرة الأخيرة من حكم معاوية ، وانتشرت دعوتهم أى انتشار فى شرق الدولة الإسلامية وفى جنوب بلاد العرب ، ومات معاوية حين مات ، وكثير من الناس وعامة أهل العراق بنوع خاص يرون بُغض بنى أمية وحب أهل البيت .

ولم يكن من الاحتمال البعيد ما قدره الحسن بن على احتمالا قريباً فيما لو اشتبك مع معاوية فى حرب يائسة تجر بذيولها أكبر كارثة فى الإسلام وأن تبيد بمكائدها آخر نسمة تنبض بفكرة التشيع لأهل البيت ، ولمعاوية قابلياته

الممتازة لتنفيذه هذه الخطة وتصفية الحساب الطويل فى التاريخ وهو هو فى عدائه الصريح لعلىّ وأولاده وأنصارهم .

أما الحسين فقد كفى مثل هذا الاحتمال حين كان خصمه الغلام المترف الذى لا يحسن قيادة المشاكل ولا تعبئة التيارات ، ولا حياكة الخطط ثم هو لا يعنيه من الأمر إلا أن يكون الملك ذا الخزائن حتى ولو واجهه الأخطل الشاعر بقوله :

ودينك حقًّا كدين الحمار بل أنت أكفر من هرمز

وكفى الحسين هذا الاحتمال بما ضمنه سيف الإرهاب الذى طارد الشيعة تحت كل حجر ومدر فى الكوفة وما إليها والذى حفظ فى غيابات السجون والمهاجر وكهوف الجبال سيلاً من السادة الذين كانوا يحملون مبادئ أهل البيت وكانوا يؤتمنون على إيصال هذه المبادئ إلى الأجيال بعدهم .

فرأى أن يمضى فى تصميمه مطمئنًّا على خطته وأهدافه وعلى مستقبلهما من أعدائه أما الحسن فلم يكن له أن يطمئن على مخلفاته المعنوية طمأنينة أخيه وفى أعدائه معاوية .

وقد أفاد الحسين من غلطات معاوية فى غاراته على بلاد الله الآمنة المطمئنة ، وفى موقفه من شروط صلح الحسن وفى قتله الحسن بالسم وفى بيعته لابنه يزيد وفى أشياء كثيرة أخرى بما زاد حركته فى وجه الأموية قوة ومعنوية وانطباقاً صريحاً على وجهة النظر الإسلامى فى الرأى العام ، وأفاد إلى ذلك .

من مزالق الشاب (خليفة معاوية) فكانت كلها عوامل تتصرف معه فى تنفيذ أهدافه .

وكانت ظروفه من أعدائه وظروفه من أصدقائه تتفقان معاً على تأييد حركته وإنجاز مهمته . والأخذ به إلى النصر المجنح الذى فاز به فى الله وفى التاريخ .

أما الحسن فقد أعيته ظروفه من أصدقائه فحالت بينه وبين الشهادة وظروفه من أعدائه فحالت بينه وبين مناجزتهم الحرب التى كانت معناها الحكم على مبادئه بالإعدام ، لذلك رأى لزاماً أن يطور طريقة جهاده وأن يفتتح ميدانه من طريق الصلح .

وما كانت الألغام التى وضعها الحسن فى الشروط التى أخذها على معاوية إلا وسائله الدقيقة التى حكمت على معاوية وحزبه بالفشل الذريع فى التاريخ .

ويتفق رأيى مع رأى زميلى الكبير الأستاذ حسن كامل الملطاوى فى موقف الإمام الحسن وفى مقارنته بالإمام الحسين فنقول : إن الحسن رضى الله عنه سلم الأمر لمعاوية ولم يفعل الإمام الحسين مثله مع يزيد ولعل اختلاف الموقفين يثير شكوكاً فى أفهام بعض الناس والمنصف المتأمل يرى أن كلا منهما كان مجتهداً فى رأيه ومحقًّا فى موقفه .

أما عذر الإمام الحسن فى التنازل فقد تبين أن أنصار معاوية كانوا من أهل الدنيا تلعب الأموال بأهوائهم وقد عرف معاوية علتهم فنثر عليهم الذهب والفضة نثراً فوجدوا فى يد معاوية ما يشتهون ، وكان معاوية صالحاً لأهل الدنيا ، وكان

أهل الدنيا صالحين لمعاوية ، وقد قال عمرو بن العاص لا يصلح لهذا الأمر إلا رجل له ضرسان يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر ، وما قاله معاوية : « لأستميلن بالدنيا ثقاة على ولأقسمن فيهم الأموال حتى تغلب دنياى آخرته » ، فلم يكن فى أهل العراق أحد فى قلبه مرض إلا طمع فى معاوية .

أما أنصار الإمام الحسن فهم أنصار أبيه وقد وصفهم أبوه فقال : « أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم » وقليل منهم من كان معه قلباً وقالباً .

وقد طلب الإمام الحسن خلافة الراشدين وخاف الله كأبيه فى أموال المسلمين فلم ينثر على جنوده الأموال نثراً بل أراد أن يقاتل الناس معه انتصاراً للحق وطلباً للآخرة فلم يتحمس لذلك منهم إلا أهل الصدق والوفاء والدين وقليل ما هم ، ولقد خذله فى موقف الجد ابن عمه عبيد الله بن عباس والتمسه الناس ليصلى بهم الصبح فوجدوه فى عسكر معاوية فلا ردعه دينه وورعه ، ولا ردعته عصبيته لبنى هاشم ، فلم يبق إلى جوار خليفة الحق وابن عمه أمير المؤمنين الحسن عليه السلام وغلبت دنياه على دينه وخمدت حمية العصبية فكان منه ذلك الموقف المخزى ، وقد ذهب المال الذى أغراه وبقى لاصقاً به عار الموقف ، وكان للحق أنصار أوفياء فى صف الإمام الحسن لكنه فى قلة من أمثال قيس بن سعد ، وعدى بن حاتم ، لكن معاوية كان معه عشرات الألوف يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه ، لذلك لم يكن عجيباً أن ترى جند الإمام الحسن اعتدوا عليه ونهبوا عسكره وشتموه على مسمع الناس فى سفاهة الحمقى

الذين لا يكادون يفقهون قولا .

وقد عارض الشيعة معارضة قوية صلح الإمام الحسن بعد موته وشجعتهم معارضة الإمام الحسين لسياسة معاوية كما شجعتهم قسوة ولاة معاوية فى معاملتهم وبخاصة ما كان منها على يد زياد وابنه عبد الله وآلت الخلافة لمعاوية عن رضا وصلح من الإمام الحسن .

ولكن يزيد آلت إليه الخلافة عن معارضة من الإمام الحسين وسائر أبناء المهاجرين .

وكان الصراع بين الحسين ويزيد أول تجربة من قبيلها بعد عهد النبوة وعهد الخلفاء الأولين . وقد بذل فيها الحسين روحه وطبيعة الشهادة موكلة ببذل الحياة لما هو أدوم من الحياة فهو أبو الشهداء وينبوع شهادة متعاقبة لا يقرن بها ينبوع فى تاريخ البشر أجمعين .

ويرى ابن أبى الحديد أن كلا من الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام كان مجتهداً فيما رآه ، فسلم الإمام الحسن الأمر إلى معاوية ونازع الإمام الحسين يزيد فى الخلافة وعمل كل فى موقفه بموجب اجتهاده وما غلب على ظنونهما من المصلحة .

وقد كان تمكن الإمام الحسن من المصلحة الحاضرة أكثر من تمكن الإمام الحسين فى حاله الحاضرة لأن جند الحسن كانوا حوله وهم كما روى مائة ألف سيف ولم يكن مع الإمام الحسين من يحيط به ويسير بمسيره إلى العراق إلا دون مائة فارس ، ولكن ظنهما فى عاقبة الأمر ومستقبل الحال كان مختلفاً .

فكان الإمام الحسن يظن خذلان أصحابه عند اللقاء والحرب .
وكان الإمام الحسين يظن نصرة أصحابه عند اللقاء والحرب .
فلذلك أحجم أحدهما وأقدم الآخر .

ويقول ابن أبي الحديد : وقد صح فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما شاور في أمر أسرى بدر أبا بكر أشار ألا يقتلهم ، وأشار عمر بقتلهم فمدحهما رسول الله صلى الله عليه وسلم جميعاً .

ويتضح شعار الحسين عليه السلام حين طلبوا إليه أن يبايع ، فقال لقائد الجيش الذى أرسلوه لقتاله « أبالموت تخوفنى » .

العودة إلى المدينة

أقام الإمام الحسن بالكوفة أياماً ثم عزم رضى الله عنه على مغادرتها إلى مدينة جده عليه الصلاة والسلام ، وودعه جمهرة من المسلمين وفى مقدمتهم الصحابى ظبيان بن عمارة التيمى والمسيّب بن نجية الفزارى ، فقال الإمام الحسن : « الحمد لله الغالب على أمره لو أجمع الناس جميعاً على ألا يكون ما هو كائن ما استطاعوا » وتكلم المسيب وعرض إخلاصه الصميم لأهل البيت .

فقال له الحسين رضى الله عنه : « يا مسيب نحن نعلم أنك تحبنا » .

وقال الحسن رضى الله عنه : « سمعت أبى يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أحب قوماً كان معهم » .

ثم عرض له المسيب وظبيان بالرجوع فقال : « ليس إلى ذلك سبيل » .

فلما كان الغد خرج من الكوفة وشيعه الناس بالبكاء وكان معه سيد الشهداء الحسين بن علي رضى الله عنه وأهل بيته ، ولم تكن إقامته فيها بعد الصلح إلا أياماً قلائل .

فلما صار بدير هند (الحيرة) نظر إلى الكوفة وقال :

ولا عن قلى فارقت دار معاشرى
هم المانعون حوزتى وذمارى[١]

وفى كلام الإمام التسليم لقضاء الله وقدره والحزن على ضياع حقه الشرعى ، وقد ندب أهل الكوفة حظهم التعس بنقل الخلافة ومعها بيت المال من بلدهم إلى دمشق .

وفى يثرب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم استقبله أهلها أحسن استقبال . على أن معاوية لما سافر إليها ورأى بعينه تكريم الناس وحفاوتهم بالإمام وإكبارهم له ساءه ذلك ، فاستدعى أبا الأسود الدؤلى والضحاك بن قيس الفهرى فاستشارهم فى أمر الحسن وطلب منهم الرأى فى الطريقة التى يوصمه بها ليتخذ من ذلك وسيلة إلى الحط من شأنه والتقليل من أهميته أمام الجماهير ، واختلفت المشورة فأشار أبو الأسود[٢] بعدم التعرض للإمام الحسن وكانت مشورته

(١) ابن أبى الحديد .

(٢) وأبو الأسود الدؤلى هو الذى قال :

أحب محمداً حبًّا شديداً وعباساً وحمزة والوصيا
هوى أعطيته منذ استدارت رحى الإسلام لم يعدل سويا =

الصواب ، فأى نقص أو عيب فى الإمام حتى يوصمه به وهو المطهر من كل رجس ونقص كما نطق بذلك الذكر الحكيم ، وأشار عليه الضحاك بن قيس بأن ينال من الإمام ويتطاول عليه ، واستجاب معاوية فعلا لرأى الضحاك ، وهاجم الإمام .

وقد رد عليه الإمام الحسن قائلا :

« أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن على ابن أبى طالب أنا ابن نبي الله ، أنا ابن من جعلت له الأرض مسجداً وطهوراً ، أنا ابن السراج المنير أنا ابن البشير النذير ، أنا ابن خاتم النبيين وسيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين أنا ابن من بعث إلى الجن والإنس أنا ابن من بعث رحمة للعالمين » .

واسترسل فقال : « أنا ابن مستجاب الدعوة ، انا ابن الشفيع المطاع أنا ابن أول من ينفض رأسه من التراب ويقرع باب الجنة ، أنا ابن من قاتلت الملائكة معه ولم تقاتل مع نبي قبله أنا ابن من ذلت له قريش رغماً » .

وغضب معاوية وكان حاضراً فقال : « أما أنك تحدث نفسك بالخلافة » فأجابه الإمام الحسن عمن هو أهل بالخلافة قائلا :

« أما الخلافة فلمن عمل بكتاب الله وسنته ، وليست الخلافة لمن خالف كتاب الله وعطل السنة ، إنما مثل ذلك مثل رجل أصاب ملكاً فتمتع به وكأنه

= بنو عم النبي وأقربوه أحب الناس كلهم إليا
فإن يك حبهم رشداً أصبه ولست بمخطئ إن كان غيا

انقطع عنه وبقيت تبعاته عليه » .

واستمر الإمام فى تعريف نفسه فقال :

« أنا ابن من ساد قريشاً شاباًّ وكهلا ، أنا ابن من ساد الورى كرماً ونبلا ، أنا ابن من ساد أهل الدنيا بالجود الصادق والفرع الباسق والفضل السابق ، أنا ابن من رضاه الله تعالى » وقد ضاق به معاوية ذرعاً وأوعز إلى القوى المنحرفة المعادية لأهل البيت بالتطاول على ريحانة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن الإمام فى كل هذه المناظرات هو الظافر المنتصر.

رفض الإمام مصاهرة الأمويين :

فى رواية[1] أن معاوية أراد أن يصاهر بنى هاشم ليحرز بذلك الشرف والمجد فكتب إلى عامله على المدينة مروان بن الحكم أن يخطب ليزيد أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر ، على حكم أبيها فى الصداق وقضاء دينه بالغاً ما بلغ على صلح الحيين بنى هاشم وبنى أمية ، وكان معاوية يبغى من ذلك أن يرضى عبد الله بن جعفر وعبد الله بن عباس والحسين بن على فأم كلثوم ابنة زينب بنت على ، فلو ارتبطت بينه وبين حفيدة الإمام الأسباب لرضى رؤساء بنى هاشم وقضى على الأحقاد ، فبعث مروان خلف عبد الله فلما حضر عنده فاوضه فى أمر كريمته فأجابه عبد الله :

---

(١) هناك رواية أخرى بأن محاولة المصاهرة تمت بعد وفاة الحسن مباشرة وأن الإمام الحسين رفض ذلك .

إن أمر نسائنا بيد الحسن بن علي فاخطب منه .

فأقبل مروان إلى الإمام فخطب منه ابنة عبد الله .

فقال عليه السلام : اجمع من أردت ، فانطلق مروان فجمع الهاشميين والأمويين فى صعيد واحد وقام فيهم خطيباً قائلاً :

« أما بعد : فإن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن أخطب أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر ليزيد بن معاوية على حكم أبيها فى الصداق ، وقضاء دينه بالغاً ما بلغ وعلى صلح الحيين بنى هاشم وبنى أمية ويزيد بن معاوية كفؤ له ، ولعمرى لمن يغبطكم بيزيد أكثر ممن يغبط يزيد بكم ، فيزيد ممن يستسقى بوجهه الغمام » .

فرد الإمام عليه بما يأتى :

١ – أما ما ذكرت من حكم أبيها فى الصداق . فإنا لم نكن لنرغب عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أهله وبيته .

٢ – أما قضاء دين أبيها فتى قضت نساؤنا بمهورهن ديون آبائهن .

٣ – وأما صلح الحيين . فنحن عاديناكم لله وفى الله فلا نصالحكم للدنيا .

٤ – وأما قولك يزيد كفؤ من لا كفؤ له ؛ فأكفاؤه اليوم أكفاؤه بالأمس لم يزده سلطانه .

٥ – وأما قولك : من يغبطنا بيزيد أكثر ممن يغبطه بنا ، فإن كانت الخلافة قادت النبوة فنحن المغبطون . وإن كانت النبوة قادت الخلافة ، فهو المغبوط بنا .

٦ – وأما قولك : إن الغمام يستسقى بوجه يزيد ، فإن ذلك لم يكن إلا لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى نهاية تفنيد مزاعم مروان حطم الإمام الحسن آماله قائلا : « وقد رأينا أن نزوجها (يعنى أم كلثوم) من ابن عمها القاسم محمد بن جعفر ، وقد زوجتها منه وجعلت مهرها ضيعتى التى لى بالمدينة ، وقد أعطانى بها معاوية عشرة آلاف دينار» .

وأخبر مروان معاوية بالحادث فلما علم قال متأثراً : « خطبنا إليهم فلم يفعلوا ولو خطبوا إلينا لما رددناهم » .

وفى رواية أخرى عن معاوية بن خديج قال : أرسلنى معاوية بن أبى سفيان إلى الحسن بن على أخطب على يزيد بنتاً له – أو أختاً له – فأتيته فذكرت له يزيد .

فقال : إنا قوم لا نزوج نساءنا حتى نستأمرهن فأتيتها فذكرت لها يزيد ، فقالت : والله لا يكون ذلك حتى يسير فينا صاحبك كما سار فرعون فى بنى إسرائيل يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم .

فرجعت إلى الحسن فقلت له : أرسلتنى إلى من تسمى أمير المؤمنين فرعون .

قال عليه السلام : إياك يا معاوية وبغضنا ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لا يبغضنا ولا يحسدنا أحد إلا زيد يوم القيامة عن الحوض بسياط من نار» .

إن أمر نسائنا بيد الحسن بن على فاخطب منه .

فأقبل مروان إلى الإمام فخطب منه ابنة عبد الله .

فقال عليه السلام : اجمع من أردت . فانطلق مروان فجمع الهاشميين والأمويين فى صعيد واحد وقام فيهم خطيباً قائلاً :

« أما بعد : فإن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن أخطب أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر ليزيد بن معاوية على حكم أبيها فى الصداق ، وقضاء دينه بالغاً ما بلغ وعلى صلح الحيين بنى هاشم وبنى أمية ويزيد بن معاوية كفؤ له ، ولعمرى لمن يغبطكم بيزيد أكثر ممن يغبط يزيد بكم ، فيزيد ممن يستسقى بوجهه الغمام » .

فرد الإمام عليه بما يأتى :

١ – أما ما ذكرت من حكم أبيها فى الصداق . فإنا لم نكن لنرغب عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أهله وبيته .

٢ – أما قضاء دين أبيها فتى قضت نساؤنا بمهورهن ديون آبائهن .

٣ – وأما صلح الحيين . فنحن عاديناكم لله وفى الله فلا نصالحكم للدنيا .

٤ – وأما قولك يزيد كفؤ من لا كفؤ له ؛ فأكفاؤه اليوم أكفاؤه بالأمس لم يزده سلطانه .

٥ – وأما قولك : من يغبطنا بيزيد أكثر ممن يغبطه بنا ، فإن كانت الخلافة قادت النبوة فنحن المغبطون . وإن كانت النبوة قادت الخلافة ، فهو المغبوط بنا .

٦ – وأما قولك : إن الغمام يستسقى بوجه يزيد ، فإن ذلك لم يكن إلا لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى نهاية تفنيد مزاعم مروان حطم الإمام الحسن آماله قائلا : « وقد رأينا أن نزوجها (يعنى أم كلثوم) من ابن عمها القاسم محمد بن جعفر ، وقد زوجتها منه وجعلت مهرها ضيعتى التى لى بالمدينة ، وقد أعطانى بها معاوية عشرة آلاف دينار» .

وأخبر مروان معاوية بالحادث فلما علم قال متأثراً : « خطبنا إليهم فلم يفعلوا ولو خطبوا إلينا لما رددناهم » .

وفى رواية أخرى عن معاوية بن خديج قال : أرسلنى معاوية بن أبى سفيان إلى الحسن بن على أخطب على يزيد بنتاً له – أو أختاً له – فأتيته فذكرت له يزيد .

فقال : إنا قوم لا نزوج نساءنا حتى نستأمرهن فأتيتها فذكرت لها يزيد ، فقالت : والله لا يكون ذلك حتى يسير فينا صاحبك كما سار فرعون فى بنى إسرائيل يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم .

فرجعت إلى الحسن فقلت له : أرسلتنى إلى من تسمى أمير المؤمنين فرعون .

قال عليه السلام : إياك يا معاوية وبغضنا ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لا يبغضنا ولا يحسدنا أحد إلا زيد يوم القيامة عن الحوض بسياط من نار» .

لقد كان الإمام يعلم بدوافع معاوية ، وبما يبغيه من تشييد أسرته فكان يسعى لإحباط الوسائل التى يتخذها ويفسد عليه أمره ، وقد بلغه أنه قال : « لا ينبغى أن يكون الهاشمى غير جواد ، ولا الأموى غير حليم ولا الزبيرى غير شجاع ، ولا المخزومى غير تياه » .

وعرف عليه السلام أن غرض معاوية بذلك إنما هو تحطيم هذه الأسر وتشييد أسرته ، فرد عليه مقالته وقال « قاتله الله ، أراد أن يجود بنى هاشم فينفد ما بأيديهم ويحلم بنو أمية فيتحببوا إلى الناس ويتشجع آل الزبير فيفنوا ويتيه بنو مخزوم فيبغضهم الناس » .

وهكذا كان عليه السلام يندد بأعمال معاوية ويكشف الستار عن سوء نيته غير مكترث بسلطانه .

خرق معاوية شروط الصلح

بينت سابقاً اتفاقية الصلح التى تمت بين الإمام ومعاوية ، كما لخصت الاتفاقية فى النهاية فى شروط خمسة ، والآن نرى مدى التزام الجانبين بها .

أولا : فأما عن تسليم الأمر إلى معاوية ، فكان هذا هو الشرط الوحيد الذى لمعاوية على الحسن ، وكان الشرط الذى حظى بالوفاء من شروط هذه الاتفاقية ولم يحدث من الإمام بعد توقيعه الصلح أية محاولة لنقض شرطه هذا ولا التحدث بذلك ، ولا الرضا بالحديث عنه ، وكما بينا جاءه أنصاره بعد أن أعلن معاوية التخلف عن شروطه ؛ فعرضوا عليه ، وقد رجع إلى المدينة ،

أنفسهم وأتباعهم للجهاد بين يديه ، ووعده الكوفيون منهم بإخلاء الكوفة من عاملها الأموى وضمنوا له السلاح لإعادة الكرة على الشام ، فلم تهزه العواصف ولا قلقلته حوافز الأنصار المتوثبين .

ولنأخذ ما قاله سليمان بن صرد كنموذج لما قاله أصحابه ، قال وهو كما يقول ابن قتيبة ، سيد العراق ورئيسهم : « وزعم (يعنى معاوية) على رءوس الناس ما قد سمعت : إنى كنت شرطت لقوم شروطاً ووعدتهم ومنيتهم أمانى ... فإن كل ما هنالك تحت قدمى هاتين ، ووالله ما عنى بذلك إلا نقض ما بينك وبينه فأعد الحرب خدعة وأذن لى أشخص إلى الكوفة ، فأخرج عاملها منها وأظهر فيها خلعه ، وأنبذ إليه على سواء ، إن الله لا يهدى كيد الخائنين » .

وسكت ابن صرد وتكلم كل من حضر مجلسه بمثل مقالته .

وكان جواب الإمام الأخير لهم : « ليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته ما دام معاوية حيًّا ، فإن يهلك معاوية ، ونحن وأنتم أحياء سألنا الله العزيمة على رشدنا ، والمعونة على أمرنا ، وألا يكلنا إلى أنفسنا ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

ثانياً : أما الشرط الثانى وهو أن يكون الأمر للحسن من بعد معاوية .. فقد أجمع المؤرخون على أن العهد الذى أعطاه معاوية للحسن فى شروط الصلح هو أن لا يعهد بالأمر من بعده إلى أحد ، ومعنى ذلك رجوع الأمر من بعده إلى صاحبه الشرعى وهو الحسن بن على فإن لم يكن فللحسين أخيه تمشياً مع مفهوم الشرط ، وأجمع المؤرخون ، بعد ذلك ، على أن معاوية نقض هذا

العهد علناً ، وعهد من بعده إلى ابنه يزيد ، وبذلك ارتكب بهذا العمل الجرىء أكبر إثم فى دينه ، وسأبين فى نهاية هذا الفصل الوسيلة التى اتبعت مع الإمام الحسن حتى يخلو الأمر ليزيد بن معاوية .

ثالثاً : أما عن الشرط الثالث ، وهو ترك سب أمير المؤمنين وألا يذكر عليًّا إلا بخير ، فيقول ابن الأثير : « إن معاوية كان إذا قنت سب عليًّا وابن عباس والحسن والحسين والأشتر » والذى حدث أن معاوية أخذ بعد إبرام الصلح فى سب أمير المؤمنين ، وبالغ فى انتقاصه ولم يمنعه عنه انتقال الإمام إلى جوار ربه ، وكان الباعث إلى ذلك أن معاوية علم أنه لا يستقيم له أمر إلا بانتقاص الإمام والنيل منه ، وبهذه الطريقة يريد معاوية أن يشيد ملكه ، ويقرر فى أنفس الناس أن بنى هاشم لاحظ لهم فى هذا الأمر وأن سيدهم الذى به يصولون وبفخره يفخرون ، هذا حاله ، وهذا مقداره ، فيكون من ينتمى إليه ويدل به عن الأمر أبعد ، وعن الوصول إليه أشحط وأنزح[١] .

وظن معاوية أن الناس إذا كرهوا وجه السوء فى بدأة الرؤية ، فإنه حين يعود ويشمل ويتكرر تذهب عنه الوحشة ويتوارى منه القبح ، وظن معاوية أنها ستكون عادة مألوفة وسنة شريفة ؛ فإذا غابت عن الناس يوماً اشتاقوا لها وحنوا إليها ، وقيل : إنه عزل سعيد بن العاص عن إمارة يثرب لأنه امتنع عن سب الإمام ، وقيل : إن معاوية كان يقول فى آخر خطبته : « اللهم إن أبا تراب (يعنى عليًّا) ألحد فى دينك وصد عن سبيلك فالعنه لعناً وبيلا وعذبه عذاباً

(١) خطط الشام عن أبى الحديد .

أليماً » . وكتب بذلك إلى الآفاق ؛ فكانت هذه الكلمات يشاد بها على المنابر .

وذكر الحافظ السيوطى أنه كان فى أيام بنى أمية أكثر من سبعين ألف منبر يلعن عليها ابن أبى طالب وذلك بما سنه لهم معاوية ، وفى ذلك يقول العلامة أحمد حفظى مصطفى الشافعى :

وقد حكى الشيخ السيوطى أنه ... قد كان فيما جعلـــوه سنه
سبعون ألف منبر وعشرةَ ... من فوقهـــن يلعنون حيدره
وهـــذه فى جنبهــا العظائم ... تصغر بل توجـــه اللوائم

وقد كان مجهود معاوية فى هذا السبيل ما طفحت به السير والتواريخ وهو أول من سنّ الجهر بسب صحابة الرسول وأول من فتح هذا الباب على مصراعيه .

ولكن هل نجح معاوية ، لقد أخطأ معاوية الرأى وجاوز الحلم الذى قالوا إنه وسم به وعادت البدعة بغير ما ظن ورأى ، فإنها كانت تحدث فى نفوس الناس وجمة غيظ واستغفارة ندم يفطن لها الخطيب الفطين فيعثر ويتلعثم وتغيب عن غير الفطن فتنطلق اللعنة حارقة صارخة من القلوب .

وقيل إن معاوية قدم الخطبة على صلاة العيد لأن الناس كانوا يكرهون سماع اللعن فكانوا إذا أدوا الصلاة خرجوا من المسجد فألزمهم بتقديم الخطبة لسماع المسبة ، ولكنهم كانوا إذا فرغوا من سماع الخطبة اجتمعوا – ولا سيما الطالبيون – بعد كل صلاة وصبوا لعناتهم على بنى أمية جميعاً .

وخاض خطباء البلدان فسبوا على بن أبى طالب على المنابر بأمر الأمير وجاو

خطباء بنى أمية حد النهية والمروءة فى الجهر بها ، ونطق بها عبد العزيز بن مروان فيمن نطق على منبر المسجد الجامع بفسطاط مصر ، ولكنه كان فطناً فقلق ورجف وتعثر وتلعثم كلما هم بها ، فأحس القلوب تغضب ورأى الوجوه تشيح وسمع الأفواه تزفر . ولكنه كان تقليداً مرسوماً ولم ينهه أحد عنه ولو وجد من يكفه لكف .

واستمرت هذه العادة سارية إلى أن تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، ولنستمع أولا إلى ما قاله الخليفة الزاهد فقد قال : « كان أبى إذا خطب فنال من علىّ رضى الله عنه تلجلج فقلت : يا أبت ، إنك تمضى فى خطبتك فإذا أتيت على ذكر على عرفت منك تقصيراً . قال : أوفطنت إلى ذلك ؟ قلت نعم . فقال : يا بنى إن الذين حولنا لا يعلمون من على ما نعلم تفرقوا عنا إلى أولاده » .

ولكن عمر بن عبد العزيز كان قد غلبه الصبا والنسيان فحين عاد إلى المدينة لطلب العلم خاض فى البدعة ونزع إليها منازع أهله – ولم يكن يعرف فى نفسه حبًّا لعلى بن أبى طالب حتى دله عليه راهب قريش – وفى ذلك يقول الخليفة الزاهد : « كنت بالمدينة أتعلم العلم وكنت ألزم عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود فبلغه عنى شىء من ذلك فأتيته يوماً وهو يصلى فأطال الصلاة فقعدت أنتظر فراغه فلما فرغ من صلاته التفت إلى فقال لى : متى علمت أن الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضى عنهم ؟ قلت : لم أسمع ذلك – قال : فما الذى بلغنى عنك فى على ؟ فقلت : معذرة إلى الله وإليك

وتركت ما كنت عليه ! » .

ورأى الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يمحو البدعة ويدفع الناس عن سفساف الأمور فكان أول ما أمر به أن منع الناس عن السب وكتب بالمنع إلى جميع عماله وولاته وأمر أن يجعل بدل اللعن فى خطبة الجمعة والأعياد قوله تعالى : (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءُوف رحيم) وقوله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) .

ولما أبطل سب علىّ أقبل عليه كثير عزه ينشده ويقول :

وليت فلم تشتم عليًّا ولم تخف ... بريًّا ولم تتبع مقالة مجرم

تكلمت بالحق المبين وإنما ... تبين آيات الهدى بالتكلم

وصدقت معروف الذى قلت بالذى ... فعلت فأضحى راضياً كل مسلم

وبذلك يكون عمر بن عبد العزيز قد سجل مكرمة لا تنسى مدى الأجيال ، وقد مدحه الشاعر السيد الشريف الرضى رحمه الله على ذلك فقال :

يا ابنَ عبد العزيز لو بكت العـ ... ـين فتى من أمية لبكيتك

غير أنى أقول إنك قد طبـ ... ـت وإن لم يطب ولم يزك بيتك

أنت نزهتنا عن السب والقذ ... ف فلو أمكن الجزاء جزيتك

ولو أنى رأيت قبرك لأستحييـ ... ـت من أن أرى وما حبيتك

وقليل إن لو بذلت دماء الـ ... ـبدن ضرباً عن الذرى وسقيتك

دير سمعان فيك مأوى أبي حفـ ص بودى لـو أننى آويتك

دير سمعـان لا أغبك غيث خيرميت من آل مروان ميتك[١]

وقد أثارسب الإمام على سخط الأخيارمن المسلمين ولأن سب المسلم من أفحش المحرمات فقد أثرعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سباب المسلم فسوق » وقال أيضاً : « لا يكون المؤمن لعاناً » .

---

(١) لم يكتف بنو أمية بسب على بل إنهم حرموا أن يذكر اسمه بين أيديهم ، وكان زريق مولى على بن أبى طالب قد حفظ القرآن والفرائض ، ولكنه لم يرزق شيئاً من بيت المال فوفد على عمر فقال يا أمير المؤمنين : إنى رجل من أهل المدينة ، وقد حفظت القرآن والفرائض وليس لى عطاء فى الديوان ، فقال عمر : ولم يرحمك الله ؟ من أى الناس أنت ؟ فقال زريق : رجل من موالى بنى هاشم .

فقال عمر : مولى من ؟ فسكت زريق وهم واحد من الناس أن يجيب فقال عمر لزريق : إليك أسألك ؛ وصاح به : أتكتمنى من أنت ؟

فقال زريق بصوت خافت كأنه نجوى : أنا مولى على بن أبى طالب (قد خاف أن يجهر) فقال عمر رافعاً صوته [وأنا مولى على — أتكاتمنى ولاء على] .

حدثنى سعيد بن المسيب عن سعد بن أبى وقاص أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من كنت مولاه فعلى مولاه » .

وقال عمر بن مورق : كنت بالشام وعمر بن عبد العزيز يعطى الناس فتقدمت إليه فقال لى : من أنت ؟ قلت : من قريش — قال من أى قريش قلت : من بنى هاشم — قال : من أيهـم فسكت فقال : من أى بنى هاشم ؟ قلت مولى على بن أبى طالب .

فوضع يده على صدره وقال : أيا مولى على بن أبى طالب حدثنى عدة أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من كنت مولاه فعلى مولاه ، ثم قال : يا مزاحم كم تعطى أمثاله ؟ قال مزاحم : مائة درهم أو مائتين فقال : أعطه خمسين ديناراً لولائه لعلى بن أبى طالب عليه السلام ، ثم قال له عمر : الحق ببلدك فسيأتيك مثل نظرائك .

فقد رأى الصحابى زيد بن أرقم المغيرة بن شعبة يعلن سب أمير المؤمنين ، فانبرى له منكراً سبه للإمام قائلا : « يا مغيرة ألم تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن سب الأموات فلم تسب علياً وقد مات ؟ »[١]

ومن الذين غضبوا لسب الإمام سعد بن أبى وقاص ، وقد قال لمعاوية : « يا معاوية والله لأن يكون فىّ خصلة واحدة من خصال كانت لعلى أحب إلىّ من أن يكون له ما طلعت عليه الشمس ، والله لأن أكون صهراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولى من الولد ما لعلى أحب إلىّ من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى ما قال له فيه يوم خيبر « لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله ، ليس بفرار يفتح الله على يديه » أحب إلى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس ، والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى ما قال فى غزوة تبوك : « ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » أحب إلى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس .

ولنستمع إلى المحاورة التى جرت بين معاوية وابن عباس فهى تكشف عن الخطط التى سلكها معاوية فى إخفاء مآثر الإمام وفى حجب مناقبه وفضائله :

ذكر المؤرخون أن معاوية بعد عام الصلح حج بيت الله الحرام فاجتاز على جماعة من قريش فقاموا إليه سوى ابن عباس فبادره معاوية قائلا :

– يا بن عباس ما منعك من القيام كما قام أصحابك إلا لموجدة على

---

(١) الأغانى .

بقتالي إياكم يوم صفين ؟ يا ابن عباس إن ابن عمى عثمان قتل مظلوماً .

– فعمر بن الخطاب قد قتل مظلوماً فسلم الأمر إلى ولده وهذا ابنه – وأشار إلى عبد الله بن عمر –

– إن عمر قتله مشرك .

– فمن قتل عثمان ؟

– قتله المسلمون .

– فذلك أدحض لحجتك إن كان المسلمون قتلوه وخذلوه فليس إلا بحق .

– فإنا كتبنا إلى الآفاق ننهى عن ذكر مناقب على وأهل بيته فكف لسانك يا بن عباس .

– فتنهانا عن قراءة القرآن ؟

– لا .

– فتنهانا عن تأويله ؟

– نعم

– فأيهما أوجب علينا قراءته أو العمل به ؟

– العمل به .

– فكيف نعمل به حتى نعلم ما عنى الله بما أنزل علينا ؟

– سل عن ذلك من تأويله على غير ما تتأوله أنت وأهل بيتك .

– إنما أنزل القرآن على أهل بيتى أفأسأل عنه آل أبى سفيان وآل أبى معيط؟

– فاقرءوا القرآن ولا ترووا شيئاً مما أنزل الله فيكم ، ومما قال رسول الله

وار ووا ما سوى ذلك .

– قال الله تعالى : (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواهم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) .

– يا بن عباس اكفنى نفسك وكفّ عنى لسانك ، وإن كنت فاعلا فليكن سرًّا ولا تسمعه أحداً علانية[١] .

ومن أشد المنكرين لسبِّ الإمام الشاعر كثير بن كثير السهمى . وفى ذلك يقول :

لعـن الله من يسب عليّـا ... وحسينًا مـن سوقة وإمـام
أيسب المطهـرون جـدودًا ... والكـرام الأخوال والأعمام
يأمن الطير والحمـام ولا ... يأمـن آل الرسول عند المقام
طبت بيتاً وطاب أهلك أهلا ... أهل بيت النبى والإسلام
رحمـة الله والسلام عليهم ... كلما قام قائم بسلام[٢]

ودخل الأحنف بن قيس على معاوية ، فلما استقر به المجلس قام وغد أثيم خطيباً ، فافتتح خطابه بسب أمير المؤمنين ، وثقل ذلك على الأحنف فالتفت إلى معاوية وقد اسودّ الفضاء فى وجهه مما داخله من الحزن قائلا : « إن هذا القائل لو يعلم أن رضاك فى لعن المرسلين لعنهم ، فاتق الله يا معاوية ودع عنك عليًّا فلقد لقى ربه ، وأفرد بقبره وخلى بعمله كان والله مبروراً

---

(١) شرح النهج ابن أبى الحديد .

(٢) شرح ابن أبى الحديد .

فى سبقه – أى إلى الإسلام – طاهر الثوب ميمون النقيبة عظيم المصيبة » .
فالتاع معاوية من هذا التقريع وتألم من هذا الثناء العاطر على الإمام علىّ ، فالتفت إلى الأحنف قائلا : « يا أحنف لقد أغضيت العين على القذى وقلت ما ترى ، أما والله لتصعدن المنبر وتلعن عليًّا كرهاً أو طوعاً » ، فقال له الأحنف : « إن تعفنى فهو خير لك ، وإن تجبرنى على ذلك فوالله لا تجرى شفتاى به أبداً » .

ولم يعتن معاوية بكلامه وقال له : « قم فاصعد المنبر » .

– أما والله لأنصفنك فى القول والفعل .

– وما أنت قائل إن أنصفتنى ؟

– أصعد المنبر فأحمد الله وأثنى عليه وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أقول : أيها الناس ، إن أمير المؤمنين معاوية أمر أن ألعن عليًّا ، وإن عليًّا ومعاوية اختلفا واقتتلا ، فادعا كل واحد منهما أنه بغى عليه وعلى فئته ، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله ، ثم أقول : اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغى منهما على صاحبه والعن الفئة الباغية ، اللهم العنهم لعناً كثيراً – أمنوا رحمكم الله – يا معاوية ، لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفاً ولو كان فيه ذهاب روحى .

فراوغ معاوية وقال : « إذاً نعفيك يا أبا بحر »[١] .

وماذا كانت النتيجة أراد معاوية تحطيم شخصية الإمام على ، وأراد الله

---

(١) العقد الفريد .

سبحانه وتعالى غير ذلك ، وها هو ذا قبر أمير المؤمنين كعبة للوافدين من المسلمين ، وها هو ذا معاوية وقبره محطم استولى عليه الهوان ، ويقول أحد الشعراء فى ذلك :

هذا ضريحك لو بصرت ببؤسه لأسال مدمعك المصير الأسود

كتل من الترب المهين بخربة سكر الذباب بها فراح يعربد

خفيت معالمها على زوارها فكأنها فى مجهل لا يقصد

ومشى بها ركب البلى فجدارها عارٍ يكاد من الضراعة يسجد

والقبة الشماء نكّص طرفها فبكل جزء للفناء بها يد

تهمى السحائب من خلال شقوقها

والريح فى جنباتها تتردد

حتى المصلى مظلم فكأنه مذ كان لم يجتز به متعبد

رابعاً : من شروط الصلح التى اشترطها الإمام على معاوية أن يعطيه خراج دارابجرد ليرفه بذلك على الفقراء والمعوزين من شيعته ، ولكن معاوية لم يف بذلك .

خامساً : وكان الشرط الخامس هو العهد بالأمان العام وعدم التعرض لأنصار علىّ على الخصوص وأنصار ابنه بسوء أو مكروه ، ولكن معاوية جعل من أهدافه القضاء على هذه الطبقة المؤمنة التى آمنت بحق أهل البيت ، وقد لاقى أنصار أهل البيت من الأذى والاضطهاد ما تنوء بحمله الجبال ، وكان أشدهم بلاءً وأعظمهم محنة وشقاءً أهل الكوفة ، فقد استعمل عليهم معاوية زياداً بعد هلاك المغيرة ، وكان بهم عالماً فأشاع فيهم القتل والإعدام وشردهم

وطردهم [١] .

وقيل : إن معاوية أرسل إلى جميع عماله وولاته رسالة جاء فيها « انظروا إلى من قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه » .

وفى ذلك يقول الباقر رضى الله عنه : « وقتلت شيعتنا بكل بلدة وقطعت الأيدى والأرجل على الظنة ، وكان من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله أو هدمت داره » [٢] ، وأصبحت مودة أهل البيت كفراً وإلحاداً ومروقاً من الدين ، وفى ذلك يقول الكميت :

يشيرون بالأيـدى إلىّ وقولهم ... ألا خاب هذا والمشيرون أخيب
فطائفة قـد كفرتنى بحبـكم ... وطائفة قالوا مسىء ومذنب
يعيبوننى من خبهم وضلالهم ... على حبكم بل يسخرون وأعجب
وقالوا ترابى هـــواه ورأيـه ... بذلك أدعى فيهم وألقب

ويقول عبد الله بن كثير السهمى ، على من عابه على موالاة أهل البيت بقوله :

إن امرأ أمست معايبـــه ... حب النبى لغير ذى ذنب
وبنى أبى حسن ووالـــدهم ... من طاب فى الأرحام والصلب
أيعـــد ذنبـــاً أن أحبهم ... بل حبهم كفـــارة الذنب [٣]

---

(١) شرح ابن أبى الحديد .
(٢) شرح ابن أبى حديد .
(٣) البيان والتبيين .

أما بلاء أهل البيت وما تعرضوا له من الاضطهاد والقتل والاغتراب . وهو بلاء تحملوه بالصبر الجميل مرضاة لله تعالى ، فإنى أرجو أن يوفقنى الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا موضوع الجزء الثانى من هذا الكتاب إن شاء الله .

على أن جميع ما بذله معاوية لكى يجعل الخلافة والملك وراثة فى ذريته . وقد بذل جميع جهوده ومساعيه فى تحقيق ذلك .

ومن ذلك أنه بعد أن قبل نصيحة زياد التى نصحه فيها بالتؤدة وألا يعمل وأن يتريث مدة أخرى بعد ما بدأ المحاولة بالشام وعارضه الكثيرون . وكان مما قاله الأحنف لمعاوية : « يا أمير المؤمنين ، إنا قد فررنا عنك قريش فوجدناك أكرمها زنداً وأشدها عقداً وأوفاها عهداً ، وقد علمت أنك لم تفتح العراق عنوة ولم تظهر عليها قعصاً ، ولكنك أعطيت الحسن بن على من عهود الله ما قد علمت ليكون له الأمر من بعدك ، فإن تف فأنت أهل الوفاء ، وإن تغدر تعلم والله أن وراء الحسن خيولا جياداً وأذرعاً شداداً وسيوفاً حداداً ، إن تدن له شبراً من غدر تجد وراءه باعاً من نصر ، وإنك تعلم أن أهل العراق ما أحبوك منذ أبغضوك ولا أبغضوا عليًّا وحسناً منذ أحبوهما ، وما نزل عليهم فى ذلك عِيرَ من السماء وأن السيوف التى شهروها عليك مع علىّ يوم صفين لعلى عواتقهم . والقلوب التى أبغضوك بها بين جوانحهم ، وأيم الله إن الحسن لأحب إلى أهل العراق من علىّ » .

وقال الأحنف بن قيس أيضاً : « يا أمير المؤمنين أنت أعلمنا بليله ونهاره

وبسره وعلانيته ، فإن كنت تعلم أنه خير لك فوله واستخلفه ، وإن كنت تعلم أنه شر لك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، فإنه ليس لك من الآخرة إلى ما طاب ، واعلم أن لا حجة لك عند الله إن قدمت يزيد على الحسن والحسين وأنت تعلم من هما وإلى ما هما ، وإنما علينا أن نقول : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » .

وكما قلت إزاء هذه المعارضة ، رأى معاوية أن يتريث ، ولكن إلى حين ، لأن الفكرة قد ملكت عليه فؤاده ، وكان يعلم أن خيرة الصحابة لن يبايعوا يزيد فرأى أن ينطلق إلى المدينة ليفاوضهم يمنيهم مرة ويتوعدهم مرة أخرى لعله يستطيع أن يطويهم بدهائه أو يشتريهم بماله ، ودخل المدينة وبعث إلى عبد الله ابن عباس وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ، فلما اكتمل اجتماعهم قال لهم : « الحمد لله الذى أمرنا بحمده ووعدنا عليه ثوابه نحمده كثيراً كما أنعم علينا كثيراً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد فإنى قد كبرت سنى ووهن عظمى وقرب أجلى وأوشكت أن أدعى فأجيب ، وقد رأيت أن أخلف عليهم بعدى يزيد ورأيته لكم رضاً وأنتم خيار قريش ولم يمنعنى أن أحضر حسناً وحسيناً إلا أنهما أولاد أبيهما ، على حسن رأيى فيهما وشديد محبتى لهما فردوا على أمير المؤمنين خيراً يرحمكم الله » وقد عارضه الجميع ، وكان مما قاله عبد الله بن عباس : « إن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لرسالته واختاره لوحيه وشرفه على خلقه فأشرف الناس

من تشرف به وأولاهم بالأمر أحقهم به ، وإنما على الأمة التسليم لنبيها إذا اختاره الله لها فإنه إنما اختار محمداً بعلمه وهو العليم الخبير » .

وقال عبد الله بن جعفر : « الحمد لله أهل الحمد ومنتهاه ، نحمده على إلهامنا حمده ونرغب إليه فى تأدية حقه ، وأشهد أن لا إله إلا الله واحداً صمداً ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، أما بعد فإن هذه الخلافة إن أخذ فيها بسنة الشيخين أبى بكر وعمر فأى الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول ، وأيم الله لو ولوه بعد نبيهم لوضعوا الأمر موضعه لحقه وصدقه ولأطيع الله وعصى الشيطان ، وما اختلف فى الأمة سيفان ، فاتق الله يا معاوية فإنك قد صرت راعياً ونحن رعية فانظر لرعيتك إنك مسئول عنها غداً ، وأما ما ذكرت من ابنى عمى وتركك أن تحضرهما ، فوالله ما أصبت الحق ولا يجوز لك ذلك إلا بهما ، وإنك لتعلم أنهما معدن العلم والكرم فقل أو دع وأستغفر الله لى ولكم » .

ومما قاله ابن الزبير : « اتق الله يا معاوية وأنصف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ، وهذا عبد الله بن جعفر ذو الجناحين ابن عم رسول الله ، وأنا عبد الله بن الزبير بن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلىّ خلف حسناً وحسيناً وأنت تعلم من هما وما هما فاتق الله يا معاوية وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك » .

وقال عبد الله بن عمر : « إن هذه الخلافة ليست بهرقلية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبى ، فوالله

ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى إلا على أن الخلافة ليست شرطاً مشروطاً وإنما هي فى قريش خاصة لمن كان لها أهلا ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم من كان أتقى وأرضى ، فإن كنت تريد الفتيان من قريش فلعمرى إن يزيد من فتيانها واعلم أنه لا يغنى عنك من الله شيئا » .

ولنستمع إلى رد معاوية قال : « قد قلت وقلتم ، وإنه قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء ، فابنى أحب إلىَّ من أبنائهم ، وإنما كان هذا الأمر لبنى عبد مناف لأنهم أهل رسول الله ، فلما مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولى الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك ولا الخلافة ، غير أنهما سارا بسيرة جميلة ، ثم رجع الملك إلى بنى عبد مناف ، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يا بن الزبير وأنت يا بن عمر منها ، فأما ابنا عمي هذان ، فليس بخارجين من الرأى إن شاء الله » .

وأخيراً وجد أنه لن يظفر بما يريد ما دام الإمام حسن حيًّا وعلم أيضا أنه لا يمكن إنجاز مهمته إلا بالتفكير فى القضاء عليه ووجد فى « جعدة بنت الأشعث » الأداة التى تمكنه من تنفيذ خطته فأبوها الأشعث بن قيس كان ممن أرغم الإمام عليًّا على قبول التحكيم وإنه ليطمع فى أن يجد فى الابنة عوناً كما وجد فى الأب عوناً وقيل إنها وضعت له السم فى اللبن وكان الإمام صائماً فتناول منه جرعة فلما وصل إلى جوفه تقطعت أمعاؤه ، فقال وقد أحس بألم شديد : « إنا لله وإنا إليه راجعون الحمد لله على لقاء محمد سيد المرسلين

وأبى سيد الوصيين وأمى سيدة نساء العالمين وعمى جعفر الطيار وحمزة سيد الشهداء » .

بهذا يتفق أكثر المؤرخين أن الإمام مات مسموماً ، وذهب فريق آخر إلى أن يزيد هو الذى سم الإمام .

على أن ابن خلدون ينفى عن معاوية هذه الجريمة ويقول : « وما ينقل من أن معاوية قد دس السم إلى الإمام الحسن على يد زوجته جعدة بنت الأشعث فهو من أحاديث الشيعة وحاشا لمعاوية ذلك » .

كما ذكر بعض المستشرقين روايات أخرى عن موته فقيل إنه مات بالسل عندما بلغ من العمر خمساً وأربعين سنة ، كما ذكر المؤرخ العالم أحمد بن سهل البلخى : « إن الإمام كان يطوف فى البيت الحرام فطعنه شخص لظهر قدمه بزج مسموم فتوفى على أثر ذلك » ، وذكر الدكتور حسن إبراهيم أن بعض المؤرخين ذهب إلى أن الإمام مات حتف أنفه بعد رجوعه من العراق إلى يثرب بأربعين يوماً ، وفى مقاتل الطالبيين قيل لأبى إسحاق : متى ذل الناس ؟ قال : حيث مات الحسن وادعى زياد وقتل حجر بن عدى . وكان الحسن رضى الله عنه شرط على معاوية فى شروط الصلح ألا يعهد إلى أحد بالخلافة بعده وأن تكون الخلافة له من بعده . قال أبو الفرج الأصفهانى : وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد فلم يكن شىء أثقل عليه من أمر الحسن وسعد ابن أبى وقاص فدس إليهما السم فماتا منه » . أرسل إلى ابنة الأشعث أنى مزوجك بيزيد ابنى على أن تسمى الحسن وبعث إليها بمائة ألف درهم ولم يزوجها منه

فخلف عليها رجل من آل طلحة فأولدها ، فكان إذا وقع بينهم وبين بطون قريش كلام عيروهم وقالوا : يا بنى مسممة الأزواج ، وكان ذلك بعد ما مضى على إمارة معاوية عشر سنين وفى الاستيعاب قال ابن عبد البر : سم الحسن ابن على ، سمته امرأته بنت الأشعث بن قيس الكندى .

وهناك شبه إجماع على أن الإمام الحسن مات بالسم ، فالشيعة يرون أن معاوية قد دس إليه من سمه ليخلو له ولابنه وجه الخلافة ، وكذلك مؤرخو الجماعة من أهل السنة ، يرون ذلك ويكثرون من روايته ، ويستشهد بعض المؤرخين على ذلك بأن الموت بالسم قد عرف فى أيام معاوية بتشكل غريب ومريب ، فقد مات الأشتر فيما يقول المؤرخون مسموماً فى طريقه إلى ولاية مصر فخلصت مصر لمعاوية ، وقال معاوية وعمرو : « إن لله جنداً من عسل » . ومات عبد الرحمن بن خالد بن الوليد مسموما بحمص ، فى خبر طويل ، وكذلك مات الحسن .

ويتحدث رجال التاريخ بأن الحسن قال لبعض عائديه فى مرضه الأخير : « لقد سقيت السم مرات ، ولكنى لم أسق قط سمًّا أشد علىّ من هذا الذى سقيته هذه المرة ، ولقد لفظت آنفاً قطعة من كبدى » .

وفى رواية أخرى : أنه لما عرف يزيد من والده معاوية اتجاهه فى أن يقلب الخلافة إلى ملك ويجعله وراثيًّا يتعاقبه ولد عن والده ، صادف ذلك هوى فى نفس يزيد لأنه يتوق إليه ويتمناه ، واختمرت الفكرة فى نفس يزيد واستبد به حب الملك عقب مقابلة المغيرة بن شعبة وترغيبه فى أن يكون ولى عهد أبيه ،

فعل هذا ثالث دهاة العرب لما علم أن معاوية يريد أن يعزله عن ولاية البصرة .

وقصد يزيد إلى أبيه وقال له : يا أبت ما أراك صنعت شيئاً لبنيك من بعدك ، وما دبرت لهم أمراً ، وعهدى بك داهية العجم والعرب ورجل السياسة والتجارب .

فابتسم له أبوه وقال : يا بنى لم أغفل عن أمر ولكنى مرتبط بعهد كتابى بينى وبين الحسن بن علىّ على أن تكون له الخلافة بعدى إذا أنا قبضت قبله فانتظر لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً .

وانصرف يزيد يفكر ويدبر فهداه تفكيره إلى أن يتخلص من العقبة التى تعترض ولايته للملك بعد أبيه فأرسل يزيد من يفاوض زوجته (جعدة بنت الأشعث) فى أن تسم الحسن مقابل مائة ألف درهم وأن يتزوجها يزيد بعد موت الحسن ، وكانت امرأة لعوباً تحب المال وتفنى فى السلطان فأعمى الله بصرها وبصيرتها وأخذت على رسول يزيد العهود والميثاق أن يفى بما وعد ثم جعلت تدبر أمرها وتضع خطتها ، وكانت جعدة قد علمت أن الحسن تزوج امرأة اسمها (خولة بنت منظور) وأنها تعلقت به تعلقاً شديداً حتى لقد بات ليلة على السطح فشدت خمارها برجله وجعلت الطرف الآخر بخلخالها . فقام من الليل ، فقال : ما هذا : قالت خفت أن تقوم من الليل بوسنك فتسقط وأنت نائم فأكون أشأم سخلة على العرب وقد بينت ذلك من قبل ، ويقال إنه رضى الله عنه كان يقوم كثيراً ثم يمشى وهو نائم فأحبها وأقام

عندها سبعة أيام لا يذهب إلى سواها علمت جعدة هذه القصة فلما جاء الحسن بكت فى حضرته بكاء مرًّا وأظهرت من ضروب الشوق والحب والإخلاص واللوعة ما جعله يقبل على الطعام والشراب الذى قدمته إليه بشغف كثير ورغبة قوية ، فلما أصبح الصباح أحس ألماً فى أمعائه أخذ يزداد رويدا رويداً حتى خيل إليه أنه يلفظ كبده » . وقيل إنه التفت إلى « جعدة » فقال لها : « يا عدوة الله قتلتنى قتلك الله ، والله لا تصيبن منى خلفاً ، ولقد غرك (يعنى معاوية) وسخر منك يخزيك الله ويخزيه » .

ولقد أخزاها الله فعلا فأصبحت مضرب الأمثال للسوء والخزى والإثم والخيانة فقد أصبحت عاراً لذريتها وأبنائها من غير الإمام فقد وصموا بأبناء مسممة الأزواج ، ولقد سخر منها معاوية فلم يف لها بزواج يزيد حيث طلبت منه ذلك فقد ردها بسخرية واستهزاء قائلا : « إنا نحب حياة يزيد ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه » .

ولكن كثيراً من المؤرخين يقولون إن الإمام مات مسموماً وإن معاوية وليس يزيد ، كما بينت سابقاً ، هو الذى رتب وفكر ودبر ، وإنه هو الذى دس إليه فقتله . ويقول عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين تعليقا على قصة السم (ولست أقطع بأن معاوية قد دس إلى الحسن من سمه ولكنى لا أقطع كذلك بأنه لم يفعل) .

أما المستشرق « روايت م . روتلدس » و« لامنس » فقد ذكرا أن الإمام الحسن مات بالسل ، وهذا القول من الغرابة بمكان ولم يذهب إليه أحد

من المؤرخين فقد أجمعوا أنه مات مسموماً ولم يصب بداء السل . وقد كتب المستشرقون كما بينت سابقاً جميع بحوثهم على هذا الطراز فى الخلو عن التحقيق وفى الاعتماد على الافتراء والكذب .

وفى كتاب الصفوة ذكر يعقوب بن سفيان فى تاريخه أن جعدة هى التى سمته وقال الشاعر فى ذلك :

تعـز فكم لك مـن سلوة　　　تفـرج عنك غليل الحزن
بمـوت النبى وقتـل الوصى　　　وقتل الحسين وسم الحسن

وكانت آخر كلماته وهو يعانى من المرض ما قاله للصحابى : « جنادة ابن أبى أمية » قال الإمام رضى الله عنه : « يا جنادة ، استعد لسفرك وحصل زادك قبل حلول أجلك واعلم أنك تطلب الدنيا والموت يطلبك . ولا تحمل هم يومك الذى لم يأت على يومك الذى أنت فيه ، واعلم أنك لا تكسب من المال شيئاً فوق قوتك إلا كنت فيه خازناً لغيرك ، واعلم أن الدنيا فى حلالها حساب ، وفى حرامها عقاب ، وفى الشبهات عتاب ، فأنزل الدنيا بمنزلة الميتة خذ منها ما يكفيك فإن كان حلالا كنت قد زهدت فيه . وإن كان حراماً لم يكن فيه وزر فأخذت منه كما أخذت من الميتة . وإن كان العقاب فالعقاب يسير ، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ، وإذا أردت عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فاخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعة الله عز وجل ، وإذا نازعتك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا صحبته زانك ، وإذا أخذت منه صانك ، وإذا أردت

منه معونة أعانك ، وإن قلت صدق قولك ، وإن صلت شد صولتك ، وإن مددت يدك بفضل مدها ، وإن بدت منك ثلمة سدها ، وإن رأى منك حسنة عدها ، وإن سألته أعطاك ، وإن سكت عنه ابتدأك ، وإن نزلت بك إحدى الملمات واساك ، من لا تأتيك منه البوائق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق ولا يخذلك عند الحقائق وإن تنازعتما منقسماً آثرك » .

وعن الحسن بن أبي العلى عن جعفر بن محمد قال الحسن بن على لأهل بيته إنى أموت بالسم كما مات رسول الله فقال له أهل بيته ومن الذى يسمك قال جاريتى أو امرأتى فقالوا له : أخرجها من ملكك عليها لعنة الله – فقال هيهات من إخراجها ومنيتى على يدها مالى منها محيص ولو أخرجتها ما يقتلنى غيرها كان قضاء مقضياً وأمراً واجباً من الله فما ذهبت الأيام حتى بعث معاوية إلى امرأته قال : فقال الحسن : هل عندك من شربة لبن فقالت نعم وفيه ذلك السم بعث به معاوية فلما شربه وجد مس السم فى جسده فقال يا عدوة الله قتلتنى قاتلك الله أما والله لا تصيبين منى خلفاً ولا تنالين من الفاسق عدو الله اللعين خيراً أبداً .

وفى اللحظات الأخيرة دخل عليه أخوه سيد الشهداء فلما نظر إلى ما يعانيه من ألم اغرورقت عيناه بالدموع .

فنظر إليه الحسن ، فقال له : ما يبكيك يا أبا عبد الله .

– أبكى لما صنع بك .

واستشف الإمام الحسن بما سيجرى على أخيه من بعده فهان عليه ما هو

فيه وأرخى عينيه بالدموع وقال بنبرات مرتعشة حزينة : « إن الذى أوتى إلى سم أقتل به ، ولكن لا يوم كيومك يا أبا عبد الله ، وقد ازدلف إليك ثلاثون ألفاً يدعون أنهم من أمة جدنا محمد صلى الله عليه وسلم وينتحلون دين الإسلام فيجتمعون على قتلك وسفك دمك وانتهاك حرمتك وسبى ذراريك ونسائك وانتهاب ثقلك » .

(وفى حلية الأولياء) روى بسنده عن عمير بن إسحاق قال : دخلت أنا ورجل على الحسن بن على عليهما السلام نعوده فقال يا فلان سلنى قال لا والله لا نسألك حتى يعافيك الله ثم نسألك . قال ثم دخل ثم خرج إلينا فقال : سلنى قبل ألا تسألنى فقال بل يعافيك الله ثم أسألك . قال لقد ألقيت طائفة من كبدى وإنى سقيت السم مراراً فلم أسق مثل هذه المرة ، ثم دخلت عليه من الغد وهو يجود بنفسه والحسين عليه السلام عند رأسه وقال : يا أخى من تتهم قال : لم لتقتله ؟ قال : نعم — قال : إن يكن الذى أظن فالله أشد بأساً وأشد تنكيلا — وإلا يكن فما أحب أن يقتل بى برىء .

واشتد الوجع بالإمام فأخذ يعانى آلام الاحتضار فعلم أنه لم يبق من حياته الغالية إلا بضع دقائق فالتفت إلى أهله قائلا : « أخرجونى إلى صحن الدار ، أنظر فى ملكوت السماء » فحملوه إلى صحن الدار ورفع رأسه إلى السماء وأخذ يناجى ربه ويتضرع إليه قائلا : « اللهم إنى أحتسب عندك نفسى فإنها أعز الأنفس علىّ لم أصب بمثلها اللهم آنس صرعتى وآنس فى القبر وحدتى » .

ثم حضر فى ذهنه غدر معاوية به ونكثه للعهود فقال : « لقد حاقت

شربته ، والله ما وفّى بما وعد ولا صدق فيما قال » .

وأخذ يتلو أى الذكر الحكيم ويبتهل إلى الله ويناجيه حتى فاضت نفسه الزكية .

وصية الحسن إلى أخيه الحسين :

عن ابن عباس : هذا ما أوصى به الحسن بن على إلى أخيه الحسين ، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنه يعبده حق عبادته لا شريك له فى الملك ولا ولى له من الذل وأنه خلق كل شىء فقدره تقديراً ، وأنه أولى من عبده وأحق من حمد من أطاعه رشد ومن عصاه غوى ومن تاب إليه اهتدى فإنى أوصيك يا حسين بمن خلفت من أهلى وولدى وأهل بيتك أن تصفح عن مسيئهم وتقبل من محسنهم وتكون لهم خلفاً ووالداً وأن تدفننى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنى أحق به وببيته فإن أبوا عليك فأنشدك الله بالقرابة التى قرب الله عز وجل منك والرحم الماسة من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تهريق من أمرى محجمة من دم حتى تلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى الحاكم فى المستدرك أنه لما توفى أقام نساء بنى هاشم النوح عليه شهراً وعن أبى جعفر قال : مكث الناس يبكون على الحسن بن على وعطلت الأسواق .

وروى أنه لما توفى الإمام الحسن دعا الحسين ابن عباس وعبد الرحمن بن

جعفر وعلى بن عبد الله بن عباس فأعانوه على غسله وحنطوه وألبسوه أكفانه وخرجوا به إلى المسجد فصلوا عليه .

الخلاف بشأن دفنه بجانب جده عليه الصلاة والسلام :

وقال المفيد : لما مضى لسبيله غسله الحسين رضى الله عنه وكفنه وحمله على سريره ولم يشك مروان ومن معه من بنى أمية أنهم سيدفنونه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فتجمعوا لذلك ، فلما توجه به الحسين رضى الله عنه إلى قبر جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحدد به عهداً أقبلوا إليهم فى جمعهم ، وقيل والله أعلم ، إن السيدة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عارضت فى دفنه مع جده عليه الصلاة والسلام .

وروى أبو الفرج بسنده أن الإمام الحسن عليه السلام كان قد أرسل إلى السيدة عائشة رضى الله عنها أن تأذن له أن يدفن مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالت نعم ما كان بقى إلا موضع قبر واحد ، فلما سمعت بذلك بنو أمية قيل إن مروان قال : يارب أيدفن عثمان فى أقصى المدينة ويدفن الحسن مع الرسول عليه الصلاة والسلام لا يكون ذلك أبداً وأنا أحمل السيف ، وكادت الفتنة أن تقع بين بنى هاشم وبنى أمية .

ويقول ابن سعد عن الواقدى : لما احتضر الحسن قال ادفنونى عند أبى ، يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد الحسين رضى الله عنه أن يدفنه فى حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقامت بنو أمية ومروان بن الحكم وسعيد

ابن العاص ، وكان والياً على المدينة فمنعوه وقامت بنو هاشم لتقاتلهم .

وقيل إنه لما بلغ أبا هريرة أن مروان منع أن يدفن الإمام الحسن مع جده صلى الله عليه وسلم قال : « والله ما هو إلا ظلم ، يمنع الحسن أن يدفن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه لابن رسول الله » ، وقيل إنه قال : « أرأيتم لو مات ابن لموسى أما كان يدفن مع أبيه » .

وانطلق إلى الإمام الحسين وناشده الله وقال له : « أليس قد قال أخوك ، إن خفت أن يكون قتال فردونى إلى مقبرة المسلمين »

وجاشت لتأبى دفنه عند جده تثير على أشياعه رهج الحرب
أتدنى لها الويلات مستوجب النوى إليه وتقصى عنه مستوجب (القرب)

وكان موقف بنى أمية من تشييع جنازة الإمام الحسن موقفاً مزرياً ، فلم يشهد جنازته أحد منهم إلا سعيد بن العاص ، مع أن الإمام الحسن سالمهم وحقن دماءهم ودماء المسلمين ، ولكن أهل المدينة خرجوا جميعاً لتشييعه حتى لو طرحت فى البقيع إبرة ما وقعت إلا على رأس إنسان ، كما قال ثعلبة بن أبى مالك .

وقال الحسين رضى الله عنه : « والله لولا عهد الحسن بحقن الدماء ، وأن لا أهريق فى أمره محجمة دم لعلمتم كيف تأخذ سيوف الله منكم مأخذها ، وقد نقضتم العهد بيننا وبينكم وأبطلتم ما اشترطنا عليكم لأنفسنا » ومضوا بالحسن رضى الله عنه فدفنوه بالبقيع عند جدته فاطمة بنت أسد .

وذكر الزمخشرى فى ربيع الأبرار ، وابن عبد البر فى الاستيعاب : أنه

قيل : لما بلغ معاوية موت الحسن رضى الله عنه سجد ، وسجد من حوله ، وكبر وكبروا معه .

وقد وصف الفضل بن العباس شماتة معاوية فقال :

أصبح اليوم ابن هنـــد شامتاً ظاهر النخـوة إذ مات الحسن
رحمـــة الله عليه إنــــه طالما أشجى ابن هنـــد وأرن
استراح اليــوم منــه بعده إذ ثوى رهناً لأحداث الزمن
فارتع اليــوم ابن هنــد آمناً إنمــا يقمص بالعير السمن
لست بالباقى فلا تشمت بــه كل حى بالمنايــا مرتهــن
يا بن هند إن تذق كأس الردى تك فى الدهــر كشىء لم يكن

ورُوى أنه وفد عبد الله بن عباس على معاوية .

قال : فو الله إنى لفى المسجد إذ كبر معاوية فى الخضراء ، فكبر أهل الخضراء ، ثم كبر أهل المسجد بتكبير أهل الخضراء ، فخرجت فاختة بنت قرظة بن عمرو بن نوفل من خوخة لها فقالت : سرك الله يا أمير المؤمنين ، ما هذا الذى بلغك فسررت له ؟

قال : موت الحسن بن على .

فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم بكت وقالت : مات ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال معاوية : نعما والله ما فعلت ، إنه كان كذلك أهلا لأن يبكى عليه.

ثم بلغ الخبر ابن عباس رضى الله عنهما فدخل على معاوية .

فقال معاوية : علمت يا ابن عباس أن الحسن قد توفى .

قال : أَلذلك كبرت ؟ قال : نعم .

قال ابن عباس : والله ما موته بالذى يؤخر أجلك ولا حفرته بسادة حفرتك ولئن أُصبنا به فقد أُصبنا بسيد الأوصياء فجبر الله تلك المصيبة ورفع تلك العبرة .

فقال : ويحك يا بن عباس ما كلمتك إلا وجدتك معداً .

ولما أتى نعي الإمام إلى البصرة وذلك فى إمارة زياد بن سمية بكى الناس فسمع الضجة أبو بكرة أخو زياد وكان مريضاً : فقال ما هذا ؟ فقالت له زوجته : مات الحسن بن على وأظهرت الشماتة فى موته ، فقال لها : اسكتى ويحك فقد أراحه الله من شر كثير وفقد الناس بموته خيراً كثيراً يرحم الله حسناً .

وكانت وفاته رضى الله عنه بالمدينة فى يوم الخميس لليلتين بقيتا من صفر سنة خمسين من الهجرة .

ونختم هذا الفصل بما قاله أبو الشهداء الإمام الحسين رضى الله عنه مرثياً الإمام على قبره :

« رحمك الله أبا محمد ، إن كنت لتناصر الحق مظانه وتؤثر الله عند التداحض فى مواطن التقية بحسن الروية وتستشف جليل معاظم الدنيا بعين لها حاقرة وتفيض عليها يداً طاهرة الأطراف نقية الأسرة وتردع بادرة غرت أعداءك بأيسر المؤنة عليك ، ولا غرو فأنت ابن سلالة النبوة ورضيع لبان الحكمة فإلى

روح وريحان وجنة نعيم أعظم الله لنا ولكم الأجر عليه ووهب لنا ولكم حسن الأسى عنه » .

ثم جلس على القبر وأنشد :

أأدهن رأسى أم تطيب محاسنى	وخـــدك معفور وأنت سليب
أأشرب ماء المزن مـــن غير مائه	وقد ضمن الأحشاء منك لهيب
أو استمتع الدنيـا لشىء أحبـــه	إلى كل ما أدنى إليك حبيب
سأبكيك ما ناحت حمامة أيكـة	وما اخضر فى دوح الحجاز قضيب
غريب وأكناف الحجاز تحوطـــه	ألا كل من تحت التراب غريب
فلا يفرح الباقى ببعد الذى مضى	فكل فتى للموت فيـــه نصيب
وليس حريباً من أصيب بمالـــه	ولكن من وارى أخاه حريب
بكائى طويل والدمـــوع غزيـــرة	وأنت بعيـــد والمزار قريب
نسيبك من أمسى يناجيك طيفـــه	وليس لمن تحت التراب نسيب

وقال ابن قتيبة :

« ولم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن إلا يسيراً حتى بايع ليزيد بالشام وكتب ببيعته إلى الآفاق » .

وقال ابن الأثير « وكان ابتداء ذلك وأوله من المغيرة بن شعبة فإن معاوية أراد أن يعزله عن الكوفة ويستعمل عوضه سعيد بن العاص فبلغه ذلك ، فقال : الرأى أن أشخص إلى معاوية فأستعفيه ليظهر للناس كراهتى للولاية ، فسار إلى معاوية وقال لأصحابه حين وصل إليه : إن لم أكسبكم الآن ولاية وإمارة لا أفعل

ذلك أبداً ، ومضى حتى دخل على يزيد ، وقال له : إنه ذهب أعيان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكبراء قريش وذود أسنانهم وإنما بقي أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً وأعلمهم بالسنة ، والسياسة ، ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة قال : أوترى ذلك يتم ، قال : نعم .

فدخل على أبيه وأخبره بما قال المغيرة ، فأحضر المغيرة وقال له : ما يقول يزيد ، فقال : يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفى يزيد خلف فاعقد له فإن حدث بك حادث كان كهفاً للناس وخلفاً منك ولا تسفك دماء ، ولا تكون فتنة ، قال : ومن لى بهذا ؟ قال : أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك قال : فارجع إلى عملك وتحدث مع من تثق إليه فى ذلك وترى ونرى .

فودعه ورجع إلى أصحابه فبادروه بالسؤال عن مصيره فأجابهم :

« لقد وضعت رجل معاوية فى غرز بعيد الغاية على أمة محمد صلى الله عليه وسلم وفتقت عليهم فتقاً لا يرتق أبداً » .

وسار المغيرة حتى انتهى إلى الكوفة ففاوض بمهمته جماعة ممن عرفهم بالولاء والإخلاص للبيت الأموى فأجابوه إلى ما أراد ، فأوفد منهم عشرة إلى معاوية بعد أن أرشاهم بثلاثين ألف درهم وجعل عليهم عميداً ولده موسى ، فلما انتهوا إلى معاوية جندوا له الأمر ودعوه إلى إنجازه فشكرهم معاوية وأوصاهم بكتمان الأمر ثم التفت إلى ابن المغيرة ، وقال له : « بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم ؟ » .

فقال : بثلاثين ألف درهم .

فضحك معاوية وقال : « لقد هان عليهم دينهم ! »[١] .

وتواطأ معاوية مع رؤساء الوفود المناصحين له أن يخطبوا ويذكروا فضل يزيد ، فلما اجتمعت عند معاوية وفود الأمصار وفيهم الأحنف بن قيس ، دعا معاوية الضحاك بن قيس الفهرى ، فقال له : إذا جلست على المنبر وفرغت من بعض موعظتى وكلامى فاستأذن للقيام فإذا أذنت لك ، فاحمد الله تعالى واذكر يزيد وقل فيه الذى يحق له من حسن الثناء عليه ، ثم ادعنى إلى توليته ، ثم دعا عبد الرحمن بن عثمان الثقفى وعبيد الله بن مسعدة الفزارى وثور بن معن السلمى وعبد الله بن عصام الأشعرى فأمرهم أن يقوموا إذا فرغ الضحاك وأن يصدقوا قوله ، فقام هؤلاء النفر خطباء يشيدون بيزيد إلى أن قام الأحنف بن قيس ، ولم يكن من الممثلين الذين رتبهم معاوية لهذه الرواية ، فقال : « أصلح الله الأمير إن الناس قد أمسوا فى منكر زمان قد سلف ومعروف زمان مؤتنف ، وقد حلبت الدهور وجربت الأمور فاعرف من تسند إليه الأمر بعدك ثم اعص من يأمرك ، ولا يغررك من يشير عليك ولا ينظر إليك ، مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ولا يبايعون ليزيد ما دام الحسن حيًّا ، ثم أردف قائلا « وقد علمت يا معاوية أنك لم تفتح العراق عنوة ولم تظهر عليها قعصاً ولكنك أعطيت الحسن بن على من عهود الله ما قد علمت ليكون له الأمر من بعدك ، فإن تف فأنت أهل الوفاء وإن تغدر تظلم ، والله إن وراء الحسن خيولا جياداً

---

(١) تاريخ الطبرى ، والكامل لابن الأثير .

وأذرعا شداداً وسيوفاً حداداً ، وإن تدن له شبراً من غدر تجد وراءه باعاً من نصر ، وإنك تعلم أن أهل العراق ما أحبوك منذ أبغضوك ولا أبغضوا عليًّا وحسناً منذ أحبوهما وما نزل عليهم فى ذلك غِيَرٌ من السماء ، وإن السيوف التى شهروها عليك مع على يوم صفين لعلى عواتقهم والقلوب التى أبغضوك بها لبين جوانحهم » .

ولما رأى الأحنف تصميم معاوية على فرض ابنه خليفة للمسلمين انبرى إليه قائلا : « يا أمير المؤمنين ، أنت أعلمنا بليله ونهاره وبسره وعلانيته ، فإن كنت تعلم أنه خير لك فوله واستخلفه ، وإن كنت تعلم أنه شر لك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، فإنه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب ، واعلم أنه لا حجة لك عند الله إن قدمت يزيد على الحسن والحسين وأنت تعلم من هما وإلى ما هما وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»[١]

ومن هذا نتبين أن معاوية حاول البيعة لابنه يزيد فى حياة الحسن بن على وإن كان آخرون يقولون بأن بيعة يزيد إنما وقعت بعد وفاة الحسن حتى قال أبوالفرج : « إنه سم الحسن وسعد بن أبى وقاص تمهيداً لبيعة ابنه يزيد » .

ومعنى هذا أنه قد كان لمعاوية محاولتان :

إحداهما : فى حياة الحسن برغم ما تعهد به وهى إنما فشلت لمكان وجود صاحب العهد حيًّا .

والثانية بعد وفاة الحسن عليه السلام وهى التى تمت بأساليبها الظالمة التى

---

(١) الإمامة والسياسة .

عرضها أكثر المؤرخين ، فعزل مروان عن المدينة حين عجز عن أخذ البيعة على أهلها ليزيد وولى المدينة سعيد بن العاص فأظهر الغلظة وأخذهم بالعزم والشدة ولم يجبه أحد من بنى هاشم ، وذهب مروان إلى المدينة غاضباً وكتب معاوية إلى عبد الله بن عباس وإلى عبد الله بن الزبير ، وإلى عبد الله بن جعفر وإلى الحسين بن على يدعوهم إلى البيعة ليزيد وكان مما قاله للإمام الحسين رضى الله عنه : « أما بعد فقد انتهت إلىَّ منك أمور ، لم أكن أظنك بها ، رغبة بك عنها ، وإن أحق الناس بالوفاء من كان مثلك فى خطرك وشرفك ومنزلتك التى أنزلك الله بها ، فلا تنازع إلى قطيعتك واتق الله ولا تردنَّ هذه الأمة فتنة ، وانظر لنفسك ودينك وأُمة محمد ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » .

فكتب إليه الحسين رضى الله عنه كتاباً جاء فيه « أما بعد فقد جاءنى كتابك ، تذكر فيه أنها انتهت إليك منى أمور لم تكن تظننى بها رغبةً بى عنها وأن الحسنات لا يهدى لها ولا يسدد عليها إلا الله تعالى ، وأما ما ذكرت أنه رقى إليك عنى فإنما رقاه الملاّقون المشّاءون بالنميمة المفرقون بين الجمع ، وكذب الغاوون المارقون ، ما أردت حرباً ولا خلافاً » . . . إلى أن قال : « وقلت فيما قلت : لا ترد هذه الأمة فى فتنة ، وإنى لا أعلم فتنة لها أعظم من إمارتك عليها . . إلخ » .

وقدم معاوية بعد ذلك إلى المدينة وبعد ذلك إلى مكة ، ويقول ابن الأثير : « وسبقه الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر وابن عمر

إليها ، ولما كان آخر أيامه بمكة أحضر هؤلاء وقال لهم : إنى أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر ، إنى كنت أخطب فيكم فيقوم إليّ القائم منكم فيكذبنى على رءوس الناس فأحمل ذلك وأصفح ، وإنى قائم بمقالة فأقسم بالله لئن ردّ عليَّ أحدكم كلمة فى مقامى هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقينَّ رجل إلا على نفسه ، ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ، ومع كل واحد سيف ، فإن ذهب رجل منهم يردّ عليَّ كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما . . ثم خرج وخرجوا معه ، حتى أتى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم ، ولا يقضى إلا عن مشورتهم ، وإنهم قد رضوا وبايعوا يزيد فبايعوا على اسم الله ، فبايع الناس » .

وهكذا ولدت بيعة يزيد بالسيوف المشهورة على رءوس الناس ، وهل هذه هى خلافة المسلمين ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخارى فى صحيحه عنه عليه الصلاة والسلام : « ما من وال يلى رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة » . وحين قال صلى الله عليه وسلم : « الخلافة بعدى ثلاثون ثم تصير ملكاً عضوداً » . وقد كملت الثلاثون سنة بخلافة الإمام الحسن عليه السلام ، ثم صارت ملكاً عضوداً .

وأختتم هذا الفصل بما قاله الشاعر الموهوب سليمان بن قتة فى رثاء الإمام الحسن :

يا كذب الله من نعى حسناً ليس لتكذيب نعيه ثمن
كنت خليلى وكنت خالصتى لكل حى من أهله سكن
أجول فى الدار لا أراك وفى الدار أناس جوارهم غبن
بدلتهم منك ليت أنهم أضحوا وبينى وبينهم عدن

وكذلك رثاه الشاعر قيس بن عمر بأبيات ذكر فيها جريمة بنت الأشعث ، وذكر فضل الإمام وجوده :

جعدة ابكيه ولا تسأمى بعد بكاء المعول الثاكل
لم يسبل الستر على مثله فى الأرض من حاف ومن ناعل
كان إذا شبت له ناره يرفعها بالسند القاتل
كيما يراها يائس مرمل وفرد قدم ليس بالآهل
يغلى بنىء اللحم حتى إذا أنضجه لم يغل من آكل
أعنى الذى أسلمنا هلكه للزمن المستخرج الماحل

المراجع

١ – القرآن الكريم

٢ – تفسير محمد بن على بن محمد الشوكانى

٣ – سيرة النبى : عبد الملك بن هشام

٤ – أعيان الشيعة : السيد محسن الأمين

٥ – الإمام الحسن : الأستاذ باقر شريف القرشى

٦ – صلح الحسن : الشيخ راضى آل ياسين

٧ – الفتنة الكبرى : المغفور له الدكتور طه حسين

٨ – نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار : الشيخ سيد الشبلنجى

٩ – مقاتل الطالبيين : أبو الفرج الأصفهانى

١٠ – حلية الأولياء : أبو نعيم الأصفهانى

١١ – الإمام الحسن : الأستاذ حسن كامل الملطاوى

١٢ – الإجماع فى التشريع الإسلامى : السيد محمد صادق الصدر

١٣ – نظرية الإمامة : الدكتور أحمد صبحى

١٤ – حياة أمير المؤمنين فى عهد النبى : محمد صادق الصدر

١٥ – ذخائر العقبى : محيى الدين الطبرى

١٦ – شرح نهج البلاغة : ابن أبى الحديد

١٧ – طبقات ابن سعد : ابن سعد
١٨ – فاطمة وبنات محمد : لامنس
١٩ – كشف الغمة : عبد الوهاب الشعرانى
٢٠ – الحسن والحسين : الأستاذ محمد رضا
٢١ – الحقائق الخفية عن الشيعة الفاطمية والإثنى عشرية
للأستاذ محمد حسن الأعظمى
٢٢ – الحسن بن على : للأستاذ كامل سليمان
٢٣ – الرياض النضرة : محب الدين الطبرى
٢٤ – البداية والنهاية : ابن كثير
٢٥ – الكامل : ابن كثير
٢٦ – الإصابة فى تمييز الصحابة : لا بن حجر
٢٧ – تاريخ الخلفاء للسيوطى
٢٨ – تاريخ الأمم الإسلامية : للشيخ الخضرى
٢٩ – الرسول فى القرآن الكريم : الأستاذ حسن كامل الملطاوى
٣٠ – فضائل الرسول صلى الله عليه : للأستاذ حسون الدلفى
فى المعقول والمنقول
٣١ – الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وأهل بيته الأطهار
للأستاذ حسون الدلفى
٣٢ – فضائل الخمسة من الصحاح الستة : للأستاذ السيد مرتضى الحسينى

رقم الإيداع	١٩٩٠ / ٣٥٨٨
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-2940-7

١ / ٩٠ / ٤٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



هذا الكتاب

هو الثالث من سلسلة كتب أهل البيت التى أزمع - إن شاء الله - أن أكتبها، فقد صدر الكتاب الأول وهو الخاص « بالسيدة فاطمة الزهراء » ، والثانى الخاص « بالإمام على بن أبى طالب » .

ولى أن أفخر بتوفيق الله سبحانه وتعالى أن هدانى إلى هذا الطريق ، وأن أكشف الغطاء عن شيء يسير من سيرة « الإمام الحسن » رضى الله عنه ، وهو الذى قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم : (إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين) .

والإمام الحسن رضى الله عنه رجل السلام الأول ، فقد خاف الله فى دماء المسلمين فلم يرد أن يلى أمر أمة محمد وتراق فى سبيل ذلك محجمة دم .

فحياة الإمام وأصحابه بشكلها وصيغتها صفحة لها قيمتها وجلالها ؛ لأنها حياة رجال عرفوا كيف يعيشون فى طاعة الله ، وفهموا كيف يعملون فى صمت ؛ ليزرعوا دعوتهم فى الصدور إلى أن يقدر لها الانبعاث .

وسيرى القارئ الكريم آية ذلك كله فى البحث المتواضع الذى يطويه هذا الكتاب .

ص
٤٠٠